المقتطف من عيون التفاسير

للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الحصن المنصوري

حققه وخرج أحاديثه

خادم الكتاب والسنة

محمد علي الصابوني

المجلد الخامس

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأحقاف

مكية وهي خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ أي بتقدير أجل مسمى، ينتهي إليه أمر الكل، وهو يوم القيامة، وهذا يدل أن إله العالم، ما خلق هذا العالم ليبقى مخلداً، بل إنما خلقه ليكون داراً للعمل، ثم يفنيه ثم يعيده، فيقع الجزاء في الدار الآخرة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ أي والحال أنهم معرضون عمّا خوِّفوا به، لا يستعدون لحلوله، ولا يتفكَّرون ولا يتدبَّرون!.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم ﴾ توبيخاً لهم، أي أخبروني ﴿ مَّا تَدْعُونَ ﴾ أي ما تعبدون

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿أَرُونِي﴾ تأكيد لـ: ﴿أرأيتم﴾ أي أرشدوني وأعلموني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؟ أي شركة مع الله ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي في خلقها وملكها وتدبيرها؟ فإن البشر بمعزل عن الخلق والتدبير، وإن كانوا من الأحياء العقلاء، فما ظنكم بالجماد؟ ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ تبكيت لهم، أي ائتوني بكتاب سماوي كائن ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي القرآن الناطق بالتوحيد ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من علم من علوم الأولين، شاهدة باستحقاقهم العبادة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، فإنها لا تكاد تصح، ما لم يقم عليها برهان.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إنكارٌ ونفيٌ لأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال، أي هم أضل من كل ضالّ، حيث تركوا خالقهم السميع، القادر، الخبير، المجيب، إلى عبادة مصنوعهم العاجز، العاري عن السمع، والقدرة، والاستجابة، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ غاية لنفي الاستجابة، أي لا يستجيبون لهم أبداً ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ أي لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين، وفيه تهكم بهم وبعبدتهم ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لأنهم إما جمادات، وإما عباد مشتغلون بأحوالهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ عند القيامة ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي مكذبين، بلسان الحال، أو المقال، على ما يروى أنه تعالى يحيي الأصنام، فتتبرأ عن عبادتهم أو يراد بهم كل من يعبد من الملائكة، والجن، والإنس وغيرهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي مبينات للحق، واضحات ظاهرات أنها كلام العزيز الحميد ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ ﴾ أي قال الكفرة المجرمون عن القرآن المبين ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ في أول ما جاءهم من غير تدبر ولا تفكير ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي هذا سحر واضح، لا شبهة فيه، يسحركم به محمد.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ ﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾؟ انتقال من شناعتهم السابقة، إلى حكاية ما هو أشنع منها، أي بل أيقولون افترى محمد القرآن؟ ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي لا تقدرون أن تردُّوا عني عذاب الله، إذ لا ريب في أنه تعالى يعاجلني بالعقوبة، فكيف أجترىء عليه، فأعرِّض نفسي للعقوبة؟ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي هو جلَّ وعلا أعلم بما تخوضون وتندفعون فيه، من القدح في وحي الله، والطعن في آياته ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالجحود والعناد ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب وأناب، وفيه وعد بالغفران والرحمة لهم إن رجعوا عن الكفر والضلال.

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ ﴾ .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ البِدْعُ: بمعنى البديع كالخِلِّ بمعنى الخليل، وهو ما لا مثل له، كانوا يقترحون عليه ﷺ آيات عجيبة،

ويسألونه عن المغيبات، عناداً ومكابرة، فأُمر ﷺ أن يقول لهم: ما كنت بديعاً من الرسل، قادراً على ما يقدر عليه الله، حتى آتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ يصيبنا فيما يستقبل من الزمان؟ وعن الحسن أن المعنى: لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، من الحوادث والأحداث الدنيوية، دون ما سيقع في الآخرة، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحي الناطق، بتفاصيل ما يفعل بالجانبين ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يُوحي إليَّ ربي، وهو جواب عن اقتراحهم إخبارهم عن المغيّبات ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ أنذركم عقاب الله حسبما أوحي إلي ﴿مُّبِينٞ﴾ بيّن الإنذار، بالمعجزات الباهرة، عن خارجة ابن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعلُ بي»(١).

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ .

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ﴾ أي ما يوحى إليَّ من القرآن ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ﴿وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ حال بإضمار «قد» وُسِّطت بين أجزاء الشرط، مسارعةً إلى التسجيل عليهم بالكفر ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي شهد رجل من علماء بني إسرائيل، وهو «عبد الله بن سلام» الواقف على أسرار الوحي، بما أُوتي من التوراة ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ أي مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة، المطابقة لما في القرآن، من

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ٣/ ١١٤ ومناسبته أن «عثمان بن مظعون» لمَّا توفي وكُفِّن في أثوابه، قالت أم العلاء: رحمةُ الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها النبي ﷺ: وما يدريكِ أن الله أكرمه؟ ثم قال ﷺ: والله ما أدري. . الحديث.

التوحيد، والوعد والوعيد، وغير ذلك، روي أنه لما آمن عبد الله بن سلام قال: يا رسول الله: إن اليهود قوم بُهْتٌ، وإنْ علموا بإسلامي بهتوني، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: أيُّ رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا، وابن خيرنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرُّنا وابن شرنا»[1] ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ جواب الشرط محذوف، والمعنى: أخبروني إن كان من عند الله، وشهد بذلك أعلم بني إسرائيل، فآمن به، واستكبرتم عن الإيمان به، من أضلُّ وأظلم منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[2] ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصفهم بالظلم، للإشعار بعلة الحكم، فعدم هدايتهم لظلمهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة، في حق القرآن والمؤمنين به ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي قالوا لأجل إيمان المؤمنين ﴿لَوۡ كَانَ﴾ أي ما جاء به محمد من القرآن والدين ﴿خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ فإن معالي الأمور لا ينالها أيدي الفقراء والرعاة!! قالوا: وعامة من يتبع محمداً فقراء، مثل عمار، وصهيب، وابن مسعود، وغيرهم رضي الله عنهم، قالوه زعماً منهم أن الرياسة الدينية مما تُنال بأسباب دنيوية كما قالوا: ﴿لولا نُزِّل هَذَا القُرآنُ عَلَى رَجُلَيْنِ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾؟ وغاب عنهم أنها منوطة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ٧/١٩٧.

(٢) سورة فصلت، آية: ٥٢.

بكمالات نفسانية، وملكات روحانية، لا بأمور دنيئة دنيوية ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ﴾ أي وإذا لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ غير مكتفين بنفي خيريته ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي كذبٌ قديم، كما قالوا أساطير الأولين.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو ردٌّ لقولهم ﴿هذا إفك قديم﴾ فإن كونه مصدقاً لكتاب موسى، مقرر لحقيته قطعاً كأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة القرآن، أنكم لا تنازعون في أن الله أنزل التوراة على موسى، والتوراة مشتملة على البشارة بمقدم رسول الله ﷺ، فإذا سلَّمتم كون التوراة إماماً فاقبلوا حكمه في النبي حقاً ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان من كتاب موسى، أي إماماً يقتدى به في دين الله، كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه ﴿وَهَٰذَا﴾ الذي يقولون في حقه ما يقولون ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزله الله بلسان عربي ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي إنذاراً وتخويفاً للظالمين ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين، وبشارة المطيعين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي استقاموا على التوحيد والإيمان، وطاعة الرحمٰن.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة خلّدوا في الجنة.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ بأن يحسن ﴿ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ أي يحسن إليهما إحساناً كما أحسنا إليه في صغره ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ دلت الآية على أن حق الأم الفظامُ، لأنه تعالى خصَّ الأم بالكره ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ﴾ وهو الفطامُ والمراد به الرضاع ﴿ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ تمضي عليها بمعاناة المشاق لأجله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ أي اكتهل واستحكم قوته وعقله ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ قيل لم يبعث نبيٌّ قبل أربعين لأنه سنُّ اكتمال العقل ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ ﴾ أي ألهمني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ أي نعمة الدين وغيرها ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ التنكير للتفخيم والتكثير ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾ أي واجعل الصلاح سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم، قال ابن عباس: «أجاب الله دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأعتق تسعة من المؤمنين، ولم يُرِدْ شيئاً من الخير، إلا أعانه الله تعالى عليه، وأجاب الله دعاءه في ذريته، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً، فاجتمع له إسلام أبويه، وأولاده، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة» ولذلك قيل: إنها نزلت فيه ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ عما لا ترضاه ﴿ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝١٦ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بما ذُكر ﴿ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ من الطاعات فإن المباح حسن ولا يثاب عليه ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ أي خطيئاتهم ﴿ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴾ أي كائنين في عدادهم ﴿ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ﴾ مصدر مؤكد، لأن قوله: «نتقبل» و«نتجاوز» وعدٌ من الله لهم بالتقبل والتجاوز، أي وعدهم الله بذلك وعداً صادقاً ﴿ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ على ألسنة الرسل في الدنيا.

﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٧ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ لما وصف الله تعالى البار بوالديه وصف العاق في هذه الآية، أي قال لوالديه عند دعوتهما إلى الإيمان ﴿ أُفّٖ لَّكُمَآ ﴾ أي قبحاً لكما على هذه الدعوة، والآية في الكافر العاق لوالديه، المكذب بالبعث، وما روي من أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه، يردُّه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾ فإنه رضي الله عنه من أفاضل المسلمين ﴿ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ ﴾ أن أُبعث من القبر بعد الموت ﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ﴾ أي وقد مضت قرون من الناس قبلي، ولم يبعث منهم أحد ﴿ وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ يسألان أن يغيثه ويوفقه للإيمان ﴿ وَيۡلَكَ ﴾ أي قائلين له ﴿ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ أي البعث، أضافاه إليه تعالى، تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على خطئه في إسناد الوعد إليهما ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تكذيباً لهما ﴿ مَا هَٰذَآ ﴾ الذي تسميانه وعد الله ﴿ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي خرافات وأباطيل الأمم السابقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك﴾ كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ قد ضيعوا فطرتهم الأصلية، باتباع الشيطان فخسروا حياتهم وسعادتهم الأخرويَّة.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾.

﴿وَلِكُلّٖ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ مراتب من أجزية ما عملوا، من الخير والشر، والدرجة غالبة في مراتب المثوبة، وإيرادها ههنا بطريق التغليب[1] ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾.

---

(١) الدرجات في اللغة هي الطبقات من المراتب، وغلب استعمال الدرجات في الخير كقوله: ﴿هم درجات عند الله﴾ وقوله: ﴿فأولئك لهم الدرجات العُلى﴾ وفي الآية هنا إضمار تقديره: ولكل فريق منهم درجات أودركات، حذف الثاني اختصاراً لدلالة المذكور عليه.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي يعذبون بها من قولهم عرض الأسارى على السيف أي قُتِلوا ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فلم يبق لكم بعد ذلك شيء منها ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي بسبب استكباركم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي وبفسقكم المستمرَّين، ولما وبَّخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات، آثر النبي ﷺ وأصحابُه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا، رجاء ثواب الآخرة، روى الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «دخلتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكىءٌ على رمال حصير، قد أثَّر في جنبه، فقلت: أستأنسُ يا رسول الله؟ قال: نعم، فجلستُ فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردُّ البصر، إلا أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، ولا يعبدون الله!! فاستوى جالساً ثم قال: أفي شك أنت يا ابنَ الخطاب، أولئك قوم عُجِّلتْ لهم طيباتُهم في الحياة الدنيا، فقلت: استغفر لي يا رسول الله..»(١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله ﷺ»(٢) وروى البخاري عن عائشة أيضاً قالت: «كان يأتي علينا الشهر والشهران، وما يُوقد فيه نار، إنما هو الأسودان: التمرُ، والماءُ»(٣) إلا أن هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم، لأنها وردت في حق الكافر، لأنه يتمتع ولم يؤد شكره، بخلاف المؤمن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟ نعم إن الاحتراز أولى، لأن النفس إذا اعتادت التنعم، صعب عليها الاحتراز، فربما حمله ذلك على فعل ما لا ينبغي.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/٥٠٣ في التفسير ومسلم في الطلاق رقم ١٤٧٩.
(٢) الحديث أخرجه البخاري الأطعمة ٩/٤٧٨ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٧٠.
(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٢٨٢.

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ ﴾ لكفار مكة ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ أي هوداً عليه السلام ﴿ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ ﴾ أي وقت إنذاره إياهم ﴿ بِٱلۡأَحۡقَافِ ﴾ جمع حِقْف وهو التل العظيم من الرمل، قال قتادة: كانوا حياً باليمن أهل رمل، بأرضٍ يقال لها: الشحر، مشرفين على البحر. ﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أي الرسل ﴿ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ ﴾ أي من قبلِ هود، ومن بعده، والجملة اعتراضٌ وُسِّطَ بين «أَنْذَر» وبين قوله: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ والمعنى: إن هوداً قد أنذرهم بذلك، وأعلمهم أن الرسل الذين بُعثوا قبله، والذين سيبعثون بعده، كلهم منذرون نحو إنذاره.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي فائتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقاً في كلامك.

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ هود عليه السلام ﴿ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ ﴾ أي العلم بوقت نزول العذاب ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وحده، لا علم لي بوقت نزوله ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ ﴾ إليكم، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ حيث تصرُّون على كفركم، وتطلبون العذاب من جهالتكم وسَفَهكم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ أي ولما شاهدوا سحاباً يعرض في الأفق ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ أي متوجهاً نحو أوديتهم، استبشروا ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ قال المفسرون: كان قد حُبس عنهم المطر، فلما رأوه مستقبل أوديتهم، استبشروا، وقالوا: هذا سحاب مبارك ممطرنا، أي يأتينا بالمطر ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قال هود عليه السلام رداً عليهم: ليس الأمر كذلك، بل هو ﴿ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ من العذاب ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي ريح عاصفة مدمِّرة، فيها عذاب فظيع مؤلم.

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي تهلك كلَّ شيءٍ من أموالهم، ونفوسهم، وحيواناتهم، ونباتاتهم، بأمر الله ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم، لأن الريح العاتية لم تبق منهم إلا الآثار ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي نعاقب من كان كافراً مجرماً.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ ﴾ أي ملّكناهم وأقدرناهم ﴿ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾ أي في الذي لم نمكنكم يا أهل مكة فيه، من السَّعَة، والبسطة، وطول

الأعمار، وسائر مبادىء التصرفات، كقوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾[1] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أي آلات الإحساس والفهم، ليستعملوها فيما خُلقت له، ويستدلوا بها على شؤون منعمها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل ﴿وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة في صحائف العالم ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي حيث كانوا يكفرون بآيات الله وينكرونها، وهو كالتعليل لهلاكهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي نزل بهم العذاب، وأحاط بهم من كل جانب، وهو العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يا أهل مكة كبلاد ثمود باليمن، وقرى قوم لوط بالشام أهلكناها مع أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ كررناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عمّا هم فيه من الكفر والمعاصي، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي فهلاّ نصرتهم آلهتهم الذين عبدوها من دون الله، واتخذوهم قربة بينهم وبين الله عزّ وجلّ؟ حيث كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ﴾

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦.

و﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ وفيه تهكم بهم وبآلهتهم المزعومة ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عنهم، وفيه تهكمٌ آخر بهم، كأن عدم نصرهم لغيبتهم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي ضياع آلهتهم وامتناع نصرهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي أثر إفكهم وكذبهم على الله، وهو اتخاذهم إياها آلهة ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عطف على إفكهم وأثر افترائهم بقولهم إنها آلهة، وإنها تشفع لهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي وجهناهم إليك، وأقبلنا بهم نحوك ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال الراغب: والجنُّ: مخلوقات مستترة عن الحواس، وهم من الروحانيين، وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيارهُم الملائكةُ، وأشرارهم الشياطينُ، وأوساطٌ، فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ وقد دلَّ الكتاب وأخبار الأنبياء على وجود الجن، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة، وغاية ما فيه وجود أشخاص بيننا لا نراهم، وليس ذلك مما يمنع وجودهم، فإن من المقطوع به أن الروح، والعقل في البدن، ولا نراهما (١) ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي لاستماع القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿أَنصِتُواْ﴾ أي اسكتوا لنسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي أتم ﷺ وفرغ عن تلاوة القرآن ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي

(١) الجنُّ مخلوقات غيبية كالملائكة، يختلفون عنهم في أصل الخلقة، فأصلهم من نار، والملائكة من نور، وهم مكلفون كالإنس بتوحيد الله وطاعته وعبادته، وجميع الجن داخلون في دائرة المسؤولية، وقد بلَّغهم ﷺ دعوة الإسلام، فآمن البعض وكفر البعض، فالإيمان بهم واجب، ولا ينكر وجودهم إلا غبيٌّ جاهل، لأن هناك أشياء كثيرة موجودة ولا نراها كالميكروبات والجراثيم، والروح والعقل كما أشار إليه المصنف رحمه الله.

رجعوا إلى قومهم مصممين إنذارهم عذاب الله، وداعين لهم إلى الإيمان، وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، فعند ذلك:

﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ قالوه لأنهم كانوا على اليهودية ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أرادوا به الكتب السماوية ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إليه، وهو الشرائع والأعمال.

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ وهو الرسول ﷺ ﴿ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ أرادوا به ما سمعوه من الكتاب، والإيمان بالرسول الذي نزل عليه القرآن ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما كان في خالص حق الله تعالى، فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي ينقذكم من عذاب شديد مؤلم، معدٍّ للكفرة، واختلف العلماء في حكم مؤمن الجن، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلاّ نجاتهم من النار، والأكثر على أنهم في حكم بني آدم ثواباً وعقاباً، وتمام الكلام في سورة الجن.

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هذا ترهيب بعد الترغيب، أي ومن لم يؤمن بالله، ويستجب لدعوة رسوله ﷺ فليس بمعجزٍ له تعالى بالهرب، وإن هرب كل مهرب ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ بيان لاستحالة

نجاته بواسطة الغير، أي وليس له من ينقذه ويخلّصه من عذاب الله تعالى، من أنصار ولا أعوان، ولا من عبدهم من دون الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون بعدم الإجابة ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، بحيث لا يخفى على أحد، حيث أعرضوا عن الاستجابة لدعوة الله.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ابتداءً من غير مثال ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي لم يتعب، ولم يعجز ولم يضعف بذلك أصلاً ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ خبر لأنَّ، كأنه قيل: أوليس الله بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ﴾ ولذا أجيب بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام، أي لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٤﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي ذكّرهم يوم يعرضون على نار جهنم ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ﴾ أي يقال لهم: أليس هذا العذاب الذي ترونه حقاً؟ وفيه سخرية بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده حيث كانوا يقولون ﴿وما نحن بمعذبين﴾ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ أكدوا جوابهم بالقسم، كأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقيتها كما في الدنيا، وأنَّى لهم ذلك؟ ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم وجحودكم للحساب والجزاء.

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر، فاصبر على ما يصيبك يا محمد من جهتهم ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ أي أولو الثبات والحزم ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ فإنك من جملتهم، بل من أكابرهم، والمراد بأولو العزم: أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وصبروا على تحمل مشاقِّها، ومشاهيرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، وقال ابن زيد: كلهم ذوو عزم، وحزم، واختاره الرازي على أنَّ «مِنْ» للتبيين ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ أي لكفار مكة بالعذاب، فإنه على شرف النزول بهم ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةٗ﴾ يسيرة ﴿مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ استقصروها لما يشاهدونه من شدة العذاب ﴿بَلَٰغٞۚ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذا الذي وُعِظتم به تبليغٌ من الرسل ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؟ أي الخارجون عن الطاعة وعن الإيمان، وقال الزجاج: لا يهلك مع رحمة الله وفضله، إلا القوم الفاسقون.

والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على نبيه وعلى آله وصحبه، وعلى العلماء العاملين بسنته، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف»

* * *

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنية وآيها ثمان وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝١﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي امتنعوا عن الدخول في الإسلام، وصدُّوا غيرهم عنه، وهو عام في كل من كفر وصدَّ الناس عن دين الله ﴿أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها وجعلها ضائعة لا أجر لها ولا ثواب، بمعنى أنه تعالى حكم ببطلانها وضياعها، فإن ما كانوا يعملونه من أعمال البرّ، كصلة الرحم، وقرى الأضياف وغيرها، ليس لها أثر في الآخرة، لعدم مقارنتها للإيمان، فإن الإيمان شرطٌ لقبول العمل، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾(1) وإذا لم يقبل العمل، لا يكون له وجود بالكلية.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾.

---

(1) سورة النحل، آية: ٩٧.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ خُصَّ بالذكر مع اندراجه فيما قبله، تنويهاً بشأنه، وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه أصل في الكل، ولذا أكد بقوله ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بطريق حصر الحقية فيه ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي سترها بالإيمان والعمل الصالح، ومحاها وغفرها لهم ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي حالهم في الدين والدنيا، بالتأييد والتوفيق، وقيل: قلوبهم، لأن القلوب إذا صلحت صلح الجسد كله.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَٰطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ (٣) ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَٰطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي ذلك الإضلال لأعمال الكفار، بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ أي يبيّن للناس ﴿ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ أي أحوال الفريقين، وأوصافهم الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتباع الأولين الباطل وخسرانهم، واتباع الآخرين الحق وفوزهم.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (٤) ﴾.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فإذا لقيتم في المحاربة الكفار أعداءكم وقوله: ﴿لَقِيتُمُ﴾ يدل على أن القصد من جانب المؤمنين، بخلاف إذا لقيكم، ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً، ففيه اختصار، وتأكيدٌ بليغ، وتهويلٌ لأمره، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه، وذلك بضرب الرأس، فإذا أُبين عن بدنه، كان أسرع للموت

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي أكثرتم قتلهم، وأثقلتموهم بالقتل والجراح ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي فأسروهم واحفظوهم، والوَثاق بالفتح: القيدُ، والحبلُ، وهو اسم لما يوثق به أي يربط به ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي فإما تمنون مناً بعد ذلك أو تفدون فداءً، والمعنى: التخيير بين الاسترقاق، والمنِّ، والفداء.

وقال مجاهد: ليس اليوم مَنٌّ ولا فداء، إنما هو الإسلام، أو ضرب العنق ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ أوزار الحرب: آلاتُها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها، من السلاح، والكُراع، وأسند وضعها إليها وهو لأهلها إسناداً مجازياً، والمعنى إنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون مع المشركين حرب، بأن لا تبقى لهم شوكة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي افعلوا ذلك ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة والاستئصال ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ﴾ أي ليختبر إيمانكم وثباتكم، ولذلك أمركم بالقتال، وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم، فتستوجبوا ثواب الله العظيم ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي استشهدوا﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي فلن يضيِّعها، بل يوفيهم ثواب أعمالهم.

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥﴾.

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة إلى الثواب والجنة ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي ويرضى أعمالهم ويقبلها.

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾.

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ بذكر أوصافها، بحيث يعلم كل أحد منزله، كأنه ساكنه منذ خُلق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي دينه ورسوله ﴿ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ الله تعالى على أعدائكم، ﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ في مواطن الحرب، فالمؤمن ينصر الله بخروجه للقتال وإقدامه، والله ينصره بتقوية قلبه، وتثبيت أقدامه.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ ﴾ التعس: الهلاكُ والعَثَارُ والسقوط، تعِس: أكبَّ على وجهه، وهذا زيادة في تقوية قلوبهم، كأنه قال تعالى: ولكم الثبات، ولهم الزوال به ﴿ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الشقاء وضلال الأعمال ﴿ بِأَنَّهُمۡ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي القرآن لما فيه من التوحيد، والأحكام، المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أي أذهبها وأضاعها.

﴿ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ﴾.

﴿ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ ﴾؟ أي أقعدوا في أماكنهم، فلم يسيروا فيها، فينظروا كيف كان من قبلهم من الأمم المكذبة، فإن آثار ديارهم تنبىء عن أخبارهم ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ أي أهلكهم الله واستأصلهم وخرّب ديارهم ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾ أي ولهؤلاء الكافرين أمثال عقوباتهم، وعاقبتهم الوخيمة.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أي ذلك المذكور من العقوبة بسبب أنه تعالى ناصر المؤمنين بسبب إيمانهم، وأن الكافرين لا ناصر لهم يدفع ما حلَّ بهم من العذاب، ولا يخالف هذا قوله تعالى: ﴿ثم رُدُّوا إلى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ﴾ فإن المولى هناك بمعنى المالك، وههنا بمعنى الناصر، فإنه تعالى مولى المؤمنين والكافرين من جهة الملك والتصرف، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النصرة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ بيان لحكم ولايته لهم، وثمراتها الأخروية ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ ﴾ أي ينتفعون في الدنيا بمتاعها الفاني، ولذائذها وشهواتها، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم، ويأكلون ﴿ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ أي كالبهائم، غافلين عن عواقبهم ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي ونار جهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ أي وكم من أهل قرية، هم أشد قوة من أهل مكة، الذين كانوا سبباً لخروجك من بينهم، ووصفُ القرية الأولى بشدة القوة؛ للإيذان بأولوية الثانية بالإهلاك، ووصفُ الثانية بإخراجه ﷺ؛ تلميح لعظم جناياتهم ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ أي فلم ينصرهم أحد، ولم يستطع دفع العذاب عنهم، وهذه تسلية للرسول ﷺ، أي كذلك نفعل بالمجرمين من قومك.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ تقرير لتباين حال الفريقين المذكورين، أي هل من هو على حجة وبصيرة، وثبات ويقين من أمر الدين، وبرهان نيِّر، وهو القرآن الكريم ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾ الزائغة، وانهمكوا في الضلالات؟.

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ بيان محاسن الجنة الموعودة للمؤمنين، أي صفة الجنة التي وعدها الله لعباده المؤمنين المتقين، وأحوالها العجيبة الشأن ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ أي غير متغير الطعم والرائحة، يقال: أسِنَ الماءُ إذا فسد وتغيَّر ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ أي أنهار من حليب في غاية الجودة والمساغ، لم يحمض بطول المقام، لأن الحليب سريع الفساد ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أي لذيذة ليس فيها كراهة طعم، ولا غائلة سُكرٍ ولا خُمار، وإنما هي تلذذٌ محض، وإنما قال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص، فربَّ طعام يتلذذ به شخص، ويعافه الآخر ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ لا يخالطه الشمع، وفضلات النحل ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ مع ما ذكر ﴿ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي من كل صنف من الثمرات، ولما كان في الجنة الأكل للَّذة لا للحاجة، ذكر الثمار ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي ولهم مغفرة عظيمة، فإن قيل: لا يدخل أحد الجنة إلا بعد المغفرة فكيف قال ولهم مغفرة؟ الجواب أن المراد بالمغفرة رفع التكليف عنهم فكل ما تشتهيه نفسه حلال من الجنة ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أمَّن

هو خالد في هذه الجنة، كمن هو خالد في النار؟ كما نطق به قوله تعالى: ﴿والنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي ماءً حاراً قد بلغت حرارته النهاية، مكان تلك الأشربة اللذيذة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي فقطّع أحشاءهم من شدة حرارته.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون في نفوسهم الكفر والعصيان، كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ، فيسمعون كلامه، تهاوناً به وتغافلاً عنه، ولا يراعونه حق رعايته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي ما الذي قاله محمد الساعة؟ على طريق الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لعدم توجههم نحو الخير أصلاً ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة، فلذلك فعلوا ما فعلوا ممَّا لا خير فيه، والمعنى إنهم لما تركوا اتباع الحق، أمات الله قلوبهم، فلم تفهم، فعند ذلك اتبعوا أهواءهم الباطلة.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ إلى طريق الحق ﴿ زَادَهُمْ﴾ أي المسموع لأنهم فهموه وكانوا مهتدين، فزادهم الله هدى، حتى ارتقوا من درجة المهتدين، إلى درجة الهادين ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام ﴿ وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي أعانهم على تقواهم وألهمهم رشدهم.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ أي القيامة ﴿ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي تباغتهم بغتة ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي علاماتها، جمع شرط وهي العلامة، كمبعثه ﷺ، وانشقاق القمر، وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللئام، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ من أشراط الساعة، أن يُرفع العلمُ، ويظهر الجهلُ، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقلَّ الرجالُ، ويكثر النساء»(١) ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ بيان استحالة نفع التذكر حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ أي كيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة، وحينئذ لا ينفعهم ندم ولا توبة!!.

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد، ومناط الشقاوة هو الإشراك والعصيان، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، والعمل بموجبه ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ بما يصدر عنه من ترك الأولى، عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولإرشاده إلى التواضع، وهضم النفس ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي لذنوبهم بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعي الغفران ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدنيا، فإنها مراحل لا بد من قطعها لا محالة ﴿ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ في العقبى فإنها مواطن إقامتكم، وقيل: المعنى يعلم جميع أحوالكم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ١٣/ ١٤.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ (٢٠) ﴾.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ حرصاً منهم على الجهاد ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ ﴾ أي هلاَّ نُزِّلت سورة فيها ذكر الجهاد، وفريضة الجهاد، لا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال، وعن قتادة: كلُّ سورة فيها ذكر القتال، فهي محكمة لم تنسخ ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾ أي تشخص أبصارهم جبناً وهَلَعاً، كدأب من أصابته غشية الموت، ﴿ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ أي فويل لهم مشتق من الويل، وقيل معناه: الموت أولى لهم، والأول أصح، لأن الويل معناه الهلاك، أي هلاك لهم ودمار.

﴿ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ (٢١) ﴾.

﴿ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: طاعة لك يا محمد، وأمرٌ معروف خير لهم ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ أي فإذا جدّ الجِدُّ، وفُرِض القتال ﴿ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي فلو أخلصوا في إيمانهم، واتباعهم الرسول ﴿ لَكَانَ ﴾ الصدق ﴿ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ من التقاعس والعصيان.

﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ (٢٢) ﴾.

﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام، أن

ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام.

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟!.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات الكونية.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟ أي ألا يلاحظون ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؟ فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلاً، و «أم» بمعنى «بل» وهو انتقال من توبيخهم على التدبر في الآيات، إلى التوبيخ على ظلمة القلوب وقسوتها، والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة متحجرة، كأنها مكبَّلة بأقفال حديدية، فلا يصل إليها نور، ولا ينفذ إليها قرآن، وهذا كما تقول عن إنسان مؤذٍ: هذا ليس بإنسان هذا وحشٌ، وهذا ليس بقلب بل حجر!!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة، وهم المنافقون، أي من بعد أن وضح طريق الهدى بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الواضحة

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي الشيطان سهّل لهم ركوب العظائم، من الفواحش والمنكرات ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الأماني والآمال.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟﴾ يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي اليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ، مع علمهم بأنه من عند الله تعالى، حسداً وطمعاً في نزوله عليهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ عبارة عما حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين، نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾[1] الآية، وهم بنو قريظة والنضير، وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سراً، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي إخفاءهم، وما دبّروه من الكيد والدسِّ، والتآمر على الإسلام والمسلمين، قالوا ذلك لليهود سرّاً، فكشفه الله وفضَحهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾؟ أي فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة، وجاءتهم ومعهم مقامع من حديد، يضربون بها وجوههم وظهورهم؟.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) سورة الحشر، آية: ١١.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العذاب الهائل ﴿ بِأَنَّهُمُ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ أي ما يرضاه من الإيمان والطاعة ﴿ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أي أبطلها وأزهقها.

﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هم المنافقون الذين فُصِّلت أحوالهم، وصفوا بوصفهم السابق، لكونه مداراً لما نُعي عليهم، بقوله تعالى ﴿ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴾؟ جمع ضِغن، وهو الحقد الشديد، مثل حِمْل وأحمال، والمعنى: أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين، أنه تعالى لن يخرج أحقادهم، ولن يُبرزها للرسول ﷺ وللمؤمنين، فتبقى أمورهم مستورة؟ ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ ﴾ لعرَّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم ﴿ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ ﴾ بعلاماتهم التي نَسِمُهم بها، وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم» ﴿ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ ﴾ أي من فحوى كلامهم وأسلوبهم ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم، وهذا وعدٌ ووعيد.

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ﴾ علماً فعلياً يتعلق به الجزاء ﴿ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي الثابتين الذين لا

يولُّون الأدبار ﴿ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم، فيظهر حسنها وقبيحها.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي عن الدخول في الإسلام ﴿ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي حاربوا الرسول وخرجوا عن طاعته، ومنهم الذين أطعموا المشركين يوم بدر ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ بما ظهر على يديه من المعجزات، ونزل عليه من الآيات ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ ﴾ بكفرهم وصدِّهم عن سبيل الله ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الأشياء ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي مكايدهم التي نصبوها في إبطال دينه؛ ومشاقة رسوله، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ بما أبطل هؤلاء أعمالهم بالكفر والنفاق، وليس فيه إحباط الطاعات بالكبائر، أي داوموا على ما أنتم عليه ولا ترتدوا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ حكمٌ يعمُّ كل من مات على الكفر، وإن صح نزوله في أصحاب القليب أي قليب بدر لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ ﴾ أي لا تضعفوا يا معشر المؤمنين ﴿ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خوَرَاً ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فإن كونهم مؤمنين، وكونه تعالى ناصرهم، من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل، وهذا كقوله تعالى: ﴿لأَغْلِبَنَّ أنَا ورسُلِي﴾ وقوله: ﴿وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ أي لن يضيعها، من الوتر الذي هو الفرد، أي لن ينقص شيئاً من ثواب أعمالكم.

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلاَّ فانية زائلة، لا قرار لها ولا ثبات، تشبه لعب الأولاد، فلا ينبغي أن تكون مانعاً للمؤمن عن الجهاد، خوفاً من فواتها، فما عند الله خير للأبرار. ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي ثواب إيمانكم وثواب تقواكم كاملاً ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم بحيث يخلُّ أداؤها بمعاشكم، وإنما اقتصر على نَزْرٍ يسير منها، تؤدونها إلى فقرائكم.

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا ﴾ أموالكم ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾ أي يجهدكم بطلب الكلِّ فإن الإحفاء والإلحاف هو المبالغة في الإلحاح ﴿ تَبْخَلُوا۟ ﴾ لو طلبها لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير، فكيف لا تبخلون بالكثير؟ ﴿ وَيُخْرِجْ

﴿أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي أحقادكم، أي يخرج ما في قلوبكم من البخل، وكراهة الإنفاق، لأن الإنسان جُبل على حبِّ المال، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائر نفسه، فمن رحمته تعالى أنه لم يكلفكم بما لا تطيقون.

﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أنتم هؤلاء المخاطبون ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ والإنفاق في سبيل الله، يعمُّ نفقة الغزو، والزكاة وغيرهما ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي ناس يبخلون ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فإن كلاً من نفع الإنفاق، وضرر البخل، عائد إليه، كمن بخل بأجرة الطبيب، وثمن الدواء، وهو مريض ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي مستغن عنكم وعن إنفاقكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي وأنتم محتاجون إليه، فإن امتثلتم فلكم، وإن توليتم فعليكم ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ أي وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلف مكانكم قوماً آخرين ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ في التولي عن الإيمان، والبخل في الإنفاق، بل يكونوا أسخياء كرماء.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد»

* * *

سُورَةُ الفَتْح

مدنية وآياتها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ المراد به فتح مكة شرفها الله، والتعبير عنه بصيغة الماضي للإيذان بتحققه لا محالة، تأكيداً للتبشير، وقيل: هو صلح الحديبية، فإنه وإن لم يكن فيه حرب، لكن أصاب رسول الله ﷺ ما لم يصب في غزوة[1]، ووقع في الحديبية معجزة عظيمة، هي أنه كان بها بئرٌ، نُزِح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فمضمض رسول الله ﷺ، ثم مجَّ فيها، فدرَّتْ بالماء، حتى شرب من كان فيها من الجيش ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي فتحاً بيِّناً، ظاهراً، فارقاً بين الحق والباطل.

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» لما ترتَّب على هذا الصلح من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، ومن دخول كثير في الإسلام، إلى غير ما هنالك من أمور عظيمة، وإلى هذا القول ذهب الحافظ ابن كثير رحمه الله.

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ غاية الفتح من حيث إنه مترتب على سعيه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ أي جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وتسميتها ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بإعلاء الدين، وضم النصر إلى النبوة، وغيرهما مما أفاض الله عليه من النعم الدينية والدنيوية ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة، وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكنْ حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، ما جعل كثيرين من المشركين يدخلون في دين الله.

﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أي نصراً فيه عزّةٌ ومَنَعة، يجمع لك فيه بين عز الدنيا والآخرة.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ بيان لما أفاض عليهم من مبادىء الفتح، من الثبات والطمأنينة، أي أنزلها ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بسبب الصلح والأمن، إظهار نعمة الله تعالى عليهم، بتيسير الأمن بعد الخوف ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أي يقيناً منضماً إلى يقينهم، برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علام الغيوب ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يدبّر أمرها حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ مبالغاً في العلم

بجميع الأمور ﴿حَكِيمًا﴾ في تقديره وتدبيره، فكان قادراً على إهلاك عدوه، ولم يفعل، بل أهلكهم بأيدي المؤمنين، ليكون لهم الثواب العظيم بقتال المشركين، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي دبَّر ما دبر، من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك، ويشكروها فيدخلهم الجنة ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ﴾ أي يغطِّيها ولا يظهرها ويمحوها عنهم فلا يؤاخذهم بها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره، لأنه منتهى ما تمتد إليه أعناق الرجال.

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ وفي تقديم المنافقين، دلالة على أنهم أحق من الكفار بالعذاب، لأنهم كانوا أشد على المؤمنين، بحيث لا يمكن التحرز عنهم ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ﴾ أي ظن الأمر السوء، وهو أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم فلا يرجعون إلى ديارهم ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين، فهو نازلٌ بهم، ودائر عليهم ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي سخط عليهم أشد السخط، لكفرهم ونفاقهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وأعدَّ لهم في الآخرة ناراً عظيمة مستعرة هي نار جهنم، وبئست جهنم مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق والضلال.

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ كرر الآية تأكيداً، وفائدتها التنبيه على أن لله تعالى جنود الرحمة، وجنود العذاب، وأن المراد ههنا جنود العذاب، كما ينبيء عنها التعرض لوصف العزة، فذكرهم أولاً لبيان جنود الرحمة لأن الحديث عن المؤمنين، وذكرهم ثانياً لبيان إنزال العذاب، لأن الحديث عن المنافقين والكافرين.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿ شَٰهِدًا ﴾ على أمتك، لقوله تعالى ﴿ويكون الرسولُ عليكم شهيداً﴾ ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ على الطاعة ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ على المعصية.

﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وأمته ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي تقوُّوه بتقوية دينه ورسوله، والتعزيرُ نصرٌ مع تعظيم ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أي تعظّموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أي وتنزهوا ربكم(١) ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي غدوة وعشياً بمعنى دائماً في الصباح والمساء.

---

(١) على هذا القول تكون الضمائر كلها راجعة إلى الله عزَّ وجل، وهذا اختيار البيضاوي وأبي السعود، واختار جمع من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وتعزِّروه وتوقروه﴾ عائد على النبي ﷺ، أي تنصروا الرسول وتقوّوه، وتحترموه وتجلُّوه، والضمير في قوله: ﴿وتسبحوه﴾ عائد على الله عز وجل، وهذا قول الضحاك، واختاره القرطبي وكثير من المفسرين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ أي على قتال قريش تحت الشجرة ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي أن مبايعتك هي مبايعة الله، لأن المقصود توثيق العهد، بمراعاة أوامره ونواهيه، وأصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه، من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد، والمراد بهذه البيعة «بيعة الرضوان» بالحديبية، وفي هذا تشريف للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله عزَّ وجلَّ ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي نصرته إياهم فوق نصرهم إياه، ويد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين كأنها يد الله(١)، كما قال سبحانه: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فما نكث أحدٌ منا ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ أي فمن نقض عهده، فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ أي ومن وفَّى بعهده ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ هو الجنة.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أي

---

(١) قال ابن كثير: أي هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالىٰ المبايع بواسطة رسوله ﷺ (أنظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٢).

المتخلفون عن الخروج معك، وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، حين استنفر من حول المدينة من الأعراب، ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة، عام الحديبية معتمراً، حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب، أو يصدُّوه عن البيت، وأحرم ﷺ وساق معه الهدي، ليعلم أهل مكة أنه لا يريد الحرب، فقال المتخلفون: يذهب إلى قوم غزوه في عُقر داره، وقتلوا أصحابه، وظنوا أنه يهلك، فلا ينقلب إلى المدينة، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ بما قالوا: وبما تعلَّلوا به، ومنه قولهم ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ ولم يكن من يخلفنا فيهم ويحميهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى، ليغفر لنا تخلفنا عنك، حيث لم يكن ذلك باختيار، بل عن اضطرار، فأكذبهم الله تعالى فقال ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي إن الذي خلفهم ليس ما يقولون، وإنما هو النفاقُ، والشكُّ في الدين، فطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادر عن حقيقته ﴿قُلْ﴾ رداً لهم عند اعتذارهم إليك ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي فمن يقدر على شيء من النفع ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ أي ما يضركم من هلاك الأهل والمال، حتى تتخلفوا عن الخروج لحفظهما، ودفع الضرر عنهما ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي ومن يقدر على شيء من الضرر، إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهليكم؟ فأي حاجة إلى التخلف، لأجل القيام بحفظهما؟ وهذا تحقيق للحق، ورد لهم بموجب ظاهر مقالتهم الكاذبة ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي ليس الأمر كما تقولون، بل كان الله عالماً بما تعملون، مطّلعاً على أخباركم.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ الخ بدل مفسر لما فيه الإبهام، أي بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم، فلأجل ذلك تخلّفتم، لا

كما ذكرتم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقبلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم، غير مبالين بهم، لأن الشبهة قد يزينها الشيطان للإنسان كما فعل بكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ المراد به إما الظن الأول، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيل عليه بالسوء، أو ما يعمُّه وغيره من الظنون الفاسدة ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ومن لم يعتقد بالله وبرسوله بطريق الصدق والإخلاص ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي هيَّأنا لهم ناراً حامية مسعَّرة، تحرق القلوب والجلود، وإنما وصفهم بالكفر، إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر، وأنه مستوجب للسعير بكفره، بيَّن الله تعالى بأن ظنهم الفاسد يفضي إلى الكفر، وحرَّضهم على الإيمان والتوبة من ذلك الظن السيِّىء.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وما فيهما يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ من غير دخل لأحد في شيء منهما، وجوداً وعدماً، وفيه حسمٌ لأطماعهم في استغفاره ﷺ لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يشاء.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي المذكورون ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي مغانم خيبر، لتحوزوها، حسبما وعدكم إياها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها، حيث كان لهم طمع في الغنيمة، أوضح الله تعالى كذبهم بهذه الآية، حيث لا يشتغلون بأموالهم وأهليهم في هذا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم، التي خصها أهل الحديبية، فإنه ﷺ لمَّا رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست ثم غزا خيبر في أوائل المحرم ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة خصَّها بهم، حسبما أمر الله تعالى، فالمراد وعده تعالى بغنائم خيبر لأهل الحديبية ﴿قُل﴾ إقناطاً لهم ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي للمبالغة ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي عند الانصراف من الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي ليس ذلك النهي حكم الله، بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً، وهو حرصهم على حطام الدنيا، وهذا رد لقولهم، ووصفٌ لهم بالجهل في أمور الدين.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان، مبالغةً في ذمهم، وإشعاراً بشناعة التخلف ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أبداً، أو الإسلام لا غير ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم، بتكرير التخلف والكذب

في الأقوال. ولمّا نزلت هذه الآية، قال أهل الأعذار كيف حالنا يا رسول الله؟ فأنزل الله.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ أي في التخلف عن الغزو، لما بهم من العذر، فإن التكليف يدور على الاستطاعة ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ وفي نفي الحرج عن الطوائف المعدودة، مزيد اعتناء بأمرهم، لا في سائر الأعضاء، فلا مانع في الكر والفر ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهي ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ عن الطاعة ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي موجعاً مؤلماً.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ هم الذين بايعوا رسول الله على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا، وبهذه الآية سميت «بيعة الرضوان» روي أنه ﷺ لما نزل الحديبية بعث عثمان بن عفان إلى أهل مكة فأخبرهم أنه ﷺ لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائراً للبيت الشريف، فوقّروه وقالوا لو شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ، واحتبس عندهم، فأرجف بأنهم قتلوه فقال ﷺ: «لا نبرحُ حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة، على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا، وكانوا ألفاً وخمس مائة وخمسة وعشرين، عن جابر رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: «لا يدخل النار

أحد ممن بايع تحت الشجرة»(١) ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الإخلاص لله ولرسوله ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فأنزل الطمأنينة والأمن، وسكون النفس بالربط على قلوبهم، وقيل بالصلح ﴿وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي وأكرمهم بغنائم كثيرة من خيبر ينالونها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي منيعاً لا يُغالب، مراعياً لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه، وفيه إشارة إلى كثرة الفتوحات التي ستكون.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهو ما يفيئه الله على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدَّرة لكل واحدة منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ﴾ أي غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد، وغطفان، حيث جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمارة يعرفون بها صدق رسول الله ﷺ، في وعده إياهم، ما ذكر من المغانم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقيناً، وثقة بفضل الله، وللتوكل عليه.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ أي ومغانم أخرى ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ أي استولى عليها بقدرته تعالى ووهبها لكم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ لأن قدرته ذاتية، لا تختص بشيء دون شيء.

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) ﴾.

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أهل مكة، ولم يقع الصلح بينكم وبينهم ﴿ لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ منهزمين ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يحرسهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينصرهم.

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾.

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ أي سنَّ الله تعالى غلبة أنبيائه سنة قديمة، فيمن مضى من الأمم، وهو قوله تعالى: ﴿لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ تغييراً، لأنَّ سنته تعالى لا تتبدل ولا تتغير.

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) ﴾.

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي أيدي كفار مكة ﴿ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ أي في داخلها ﴿ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من مقاتلتهم، والكفِّ عنهم، لتعظيم البيت الحرام ﴿ بَصِيرًا ﴾ فيجازيكم بذلك ويجازيهم.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾ حال من الهدي أي محبوساً ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ أي من أن يبلغ مكانه، الذي يحل فيه نحره، وبه استدل أبو حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم، روي أن خيامه ﷺ كانت في الحديبية، ومصلّاه في الحرم، وهناك نحرت هداياه ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم ﴾ أي من جهتهم ﴿ مَّعَرَّةٌۢ ﴾ أي مشقة ومكروه، ويلحقكم ذنب بقتلهم، والمعرَّةُ: الإثم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي غير عالمين بهم، وجواب «لولا» محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا أناساً من المؤمنين المؤمنات بين الكافرين، لما كَفَّ أيديكم عنهم ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التي من جملتها الأمن، وأما الرحمة الأخروية فهم وإن كانوا غير محرومين منها، لكنهم قاصرون في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي، فتوفيقهم لإقامتها على الوجه الأتم إدخال لهم في الرحمة الأخروية ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ لو تميز المسلمون من الكافرين ﴿ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم.

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي كفرة قريش، فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والتكبر، أي جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من الحمية، أي حمية الملّة الجاهلية ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الطمأنينة والوقار على قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين:

روي أن رسول الله ﷺ لمّا نزل الحديبية، بعثت قريش «سهل بن عمير وحويطب، ومكرز» على أن يعرضوا على النبي ﷺ، أن يرجع من عامه ذلك، على أن تخلي له قريشٌ مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتاباً، فقال ﷺ لعلي اكتب: «باسم الله الرحمٰن الرحيم» فقالوا: لا نعرف هذا!! اكتب: «باسمك اللهم» ثم قال له: «اكتب هذا ما صالح رسول الله أهل مكة»، فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، اكتب هذا ما صالح محمد بن عبد الله أهل مكة فقال ﷺ، اكتب ما يريدون»، فهمّ المؤمنون أن يأبوا ذلك، ويبطشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقروا وتحمّلوا حتى لا يدخلهم ما دخلهم من الحمية ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي ألهمهم الثبات على كلمة الشهادة: «لا إله إلا الله» والإخلاص والوفاء لها بطاعة الله والرسول ﷺ، وفي الآية لطائف قال الله تعالى في الكافر: «جعل» وفي حق المؤمن «أنزل» إشارة إلى أن الحمية في نفسها مذمومة، وبالإضافة إلى الجاهلية، تزداد قبحاً، وكانت مجعولة في الحال، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة، فأنزلها الله فهي حسنة، وإضافة الله فيها أحسن، فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين، على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا، ويتحلوا بالصبر، فهو من فضل الله تعالى ﴿وَكَانُوٓا۟﴾ أي المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي المستأهلين لها، لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه، أهل الخير والصلاح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم كل شيء فيسوقه إلى مستحقه.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ أي صدَّقه في رؤياه ولم يكذّبه، روي أن رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا رؤوسهم وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه، ولم يعيِّن له وقتاً ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، فلمَّا تأخر ذلك، قال «عبد الله بن أُبَي» وأصحابه المنافقون: ما حلقنا ولا قصّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام؟! فنزلت الآية رداً عليهم أي أراه الرؤيا الصادقة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي صدقاً ملتبساً بالحق، ليست من قبيل الأضغاث والأحلام ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله لتدخلن ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق الدخول بالمشيئة لتعليم العباد الأدب في الحديث ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي محلقاً بعضكم، ومقصراً آخرون ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي بعد ذلك من عدو في رجوعكم، وقوله ﴿آمنين﴾ في حال الإحرام ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة، ما لم تعلموا أنتم من الحكمة، الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجله ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي من دون تحقق دخول المسجد الحرام ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، والمراد إنجازه من غير تسويف، ليستدل به على صدق الرؤيا، ولتستريح إليه قلوب المؤمنين.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي أرسله بالهداية التامة، الشاملة الكاملة، هادياً للناس إلى سبيل السعادة والنجاة ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين

الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليعليه على الأديان كلها، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية، وفيه فضل تأكيد، لما وعدهم به من الفتح، وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم البلاد، وقد حقق ذلك سبحانه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن محمداً ﷺ رسوله، وعلى أن دين الإسلام حق.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الرسول، المرسل بالهدى ودين الحق، هو محمد رسول الله ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي أصحابه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أشداء جمع شديد، ورحماء جمع رحيم، والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم بالشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين بالرحمة، والرأفة، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، لمواظبتهم على الصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي ثواباً ورضاء ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ في جباههم ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ من التأثير الذي يؤثره كثرة السجود، فقد استنارت وجوههم في النهار، من كثرة صلاتهم بالليل، مع الخشوع والتواضع ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي وصفهم العجيب الشأن، الجاري في الغرابة مجرى الأمثال ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الركوع والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ تكرير المثل لتأكيد غرابته ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي كزرعٍ أخرج فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوّاه حتى صار غليظاً، من

المؤازرة بمعنى المعاونة ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار غليظاً بعدما كان دقيقاً ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي فاستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوته، وكثافته، وغلظه، وحسن منظره، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحابه ﷺ، كانوا قلَّةً في بدء الإسلام، ثم كثروا واستحكموا، فترقى أمرهم يوماً فيوماً، بحيث أعجب الناس شأنهم ودينهم، وكامل قوتهم، وجاء في الإنجيل «سيخرج قومٌ ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر» ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ علة لما دلّ عليه تشبيههم بالزرع، من نمائهم واستحكامهم، أي ليدخل الغيظ إلى قلوب الكفار بهم ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة، مع ما لهم في الدنيا من العزة والكرامة، غاظهم ذلك أشد الغيظ، و«مِنْ» للبنيان وقال ابن جريج: من الشطأ الذي أخرجه الزرع، الداخلون في الإسلام، إلى يوم القيامة، روي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم»[1] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[2].

والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح»

* * *

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مدنية وهي ثمان عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وصَفَهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذان بأن ما في النداء يستدعي مزيد اعتنائهم، لأن الإيمان داعٍ إلى المحافظة عليه، ووازع عن الإخلال به، وفي هذه السورة إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ ﴾ أي لا تقدِّموا أمراً من الأمور، ولا تشيروا برأي من الآراء ﴿ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي لا تفعلوا شيئاً، ولا تقطعوا بأمر قبل أن يحكم الله ورسوله به، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا مشوا معه لا يمشون أمامه، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل قبله، تعظيماً لمقامه الشريف ﷺ[1] ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون، من الأقوال والأفعال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم.

---

(١) في الآية الكريمة استعارة لطيفة، حيث شبَّه حال المؤمنين مع رسول الله عليه الصلاة =

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إعادة النداء للمبالغة في الإيقاظ، بشأنه ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ أي لا تبلغوا بأصواتكم حداً يبلغه ﷺ بصوته، بل ينبغي أن تغضوا منها، بحيث يكون كلامه عالياً على كلامكم، لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام، ومن يرفع صوته عند غيره، يجعل لنفسه اعتباراً زائداً وعظمة ﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ إذا كلمتموه ﴿ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾ أي جهراً كائناً كالجهر الجاري فيما بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ﷺ، وتعهدوا في المخاطبة الحديث القريب من الهمس، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظَّم، وحافظوا على مراعاة مقام النبوة، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته، بل بالنبي والرسول، فقولوا يا نبي الله، ويا رسول الله ﴿ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم الصالحة وتضيع، بسبب عدم أدبكم مع الرسول، المبعوث رحمة للعالمين وعلة للنهي، أي لا تجهروا خشية ﴿أن تحبط﴾، وليس المراد بما نهي عنه ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة، فإن ذلك كفر، بل ما يكون أثناء المحاورة، من الرفع والجهر، حسبما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿كَجَهرِ بَعضِكُم لِبَعضٍ﴾ ﴿ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ أي بحبوطها، وفيه مزيد تحذير لهم مما نُهوا عنه.

= والسلام، بحال ملكٍ عظيم كان يمشي مع الحاشية والأتباع، فتقدم للسير أمامه بعض أفراد الحاشية، وكان الأدب يقتضي أن يسيروا خلفه لا أمامه، وهكذا شأن الصحابة مع رسول الله عليه السلام لا ينبغي لهم أن يعرضوا أمراً، أو يقطعوا حكماً في حضرة النبي ﷺ، ولهذا جاء الأمر عاماً يشمل كل شأن من شؤون الحياة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي يخفضونها في مجلسه، مراعاة للأدب، أو خشية من مخالفة النهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المتخلقين بالأدب من الصحابة الكرام، الذين يخفضون أصواتهم في مجلس الرسول عليه السلام ﴿ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي جرَّبها للتقوى، وأخلصها للتقوى وجعلها صفة راسخة فيها، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ﴾ ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادر قدره لغضهم أصواتهم، وسائر طاعاتهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ أي من خارجها ومن خلفها، والمراد بها حجرات أمهات المؤمنين، ومناداتهم أن جماعة من الأعراب، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو راقد وقت الظهيرة، فنادوه من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم ﷺ ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إذ لو كان لهم عقل، لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ أي لو ثبت صبرهم وانتظارهم ﴿ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي تفاتحهم بالكلام، وفيه بيان لحسن الأدب ﴿لَكَانَ﴾ الصبر المذكور ﴿ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ من الاستعجال، لما فيه من حسن الأدب، وتعظيم الرسول، الموجبين للثناء والثواب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ المغفرة والرحمة، إن تابوا وأصلحوا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ ﴾ المجيء بالنبأ الكاذب، يورث كون الإنسان فاسقاً ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ أي فتعرفوا وتفحّصوا الأمر، روي أنه ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة أهلها، فلما سمعوا به خرجوا لاستقباله، فحسب أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا، ومنعوا الزكاة، فهمَّ ﷺ بقتالهم، فنزلت ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ ملتبسين بجهالة حالهم ﴿ فَتُصْبِحُواْ ﴾ أي تصيروا بعد ظهور براءتهم ﴿ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ ﴾ في حقهم ﴿ نَٰدِمِينَ ﴾ مغتمين غماً لازماً، متمنين أنه لم يقع، وتنكير الفاسق، والنبأ للتعميم، كأنه قال: أيَّ فاسق جاءكم، بأيِّ نبأ فتبينوا، أي تطلّبوا انكشاف الحقيقة وتثبتوا من صحة الخبر.

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً، فإن الله تعالى يخبره فتفتضحوا ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لو أطاعكم في أغلب ما تشيرون عليه، لوقعتم في الجهد والمشقة، المؤدي إلى الهلاك، وفيه إيذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق، تصديقاً لقول الوليد، وأنه ﷺ لم يطع رأيهم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ أي ولكنه تعالى جعل الإيمان محبوباً لديكم ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي وحسّنه في قلوبكم حتى رسخ حبه فيها، وأصبح طبيعة وسجيّة ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ ﴾ أي وبغّض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من المعاصي

والآثام مما لا خير فيه، حتى اجتنبتموها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الموافقون للرشد الموفقون لفعل الخيرات.

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ أي تفضلاً منه تعالى عليكم حبَّب إليكم الإيمان، وكرَّه إليكم العصيان ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٞ﴾ يفعل ما يفعل بموجب الحكمة والمصلحة.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ أي تقاتلوا، والجمع باعتبار المعنى ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي ترجع ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه، وإلى ما أمر به ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ إليه واقتلعت عن القتال حذراً من قتالكم ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما، عسى يكون بينهما قتال في وقت آخر، وتقييدُ الإصلاح بالعدل، لأنه مظنة الحيف، لوقوعه بعد المقاتلة، وقد أكد ذلك حيث قال: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ أي اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء، وفيها دلالة على أن الباغي المقاتل، لا يخرج بالبغي عن الإيمان، وأنه يجب معاونة من

بُغي عليه، بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة، ولفظةُ «إن» إشارة إلى ندرة الوقوع بين المسلمين، وإلى أنه ينبغي أن لا يقع منهم، ولم يقل «منكم» تبعيداً لهم عنهم، وقال ههنا (بالعدل) ولم يقل هناك فأصلحوا بالعدل، لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال، وذلك يكون بالنصيحة، أو التهديد والزجر، والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل من ضمان المتلفات، وهو حكم، فقال: (بالعدل) لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي إنهم منتسبون إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لأن الأخوة الدينية، موجبة للإصلاح، وتخصيصُ الاثنين بالذكر، لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية، لتضاعف الفتنة والفساد فيه، فالمعنى: ولو كان بين الرجلين من المسلمين أدنى اختلاف، فاسعوا في الإصلاح ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون من الأمور التي من جملتها ما أُمرتم به من الإصلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين أن ترحموا على تقواكم. عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلِمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّجَ عن مسلم كربة فرّجَ الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»(١).

(١) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٩٣ والترمذي رقم ١٤٨٦ في الحدود.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ ﴾ أي جماعة منكم ﴿ مِّن قَوْمٍ ﴾ آخرين منكم، والقوم هنا الرجال خاصة، إذ لو كانت النساء داخلة في قوم، لم يقل ﴿ولا نساء﴾ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي عسى أن يكون المسخور منهم عند الله، خيراً من الساخرين، ويمكن أن يقال المراد من قوله: ﴿أن يكونوا﴾ أن يصيروا، فإنَّ من استحقر إنساناً لفقره، أو ضعفه، لا يأمن أن يفتقر هو، ويستغني الفقير، ويضعف هو، ويقوىٰ الضعيف ﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ أي ولا تسخر نساء مؤمنات من نساء مؤمنات[1] ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ أي المسخور منهن ﴿خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي من الساخرات، فإن مناط الخيرية ليس ما يظهر للناس، من الصور والأشكال، إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، ولا يعلم ما في القلوب إلا علاّم الغيوب، كما جاء في الحديث الشريف «ربَّ أشعث أغبر، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرّه»[2] ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي ولا يَعِبْ بعضكم على بعض، فإن المؤمنين كنفسٍ واحدة، فإذا عاب المؤمن مؤمناً، كأنما عاب نفسه، ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ﴾ ولا يدع

---

(١) لم يقل تعالى: لا يسخر رجل من امرأة، ولا امرأة من رجل، وإنما قال: ﴿قوم من قوم... ولا نساء من نساء﴾ أي لا يسخر رجال من رجال، ولا نساء من نساء، للإشعار بأن مجالسة الرجل للمرأة مستقبح شرعاً، لما يجرُّ إليه من المفاسد، فالمجتمع الإسلامي نظيف، لا اختلاط فيه بين الذكور والإناث كما هو الحال عند غير المسلمين، ولأن الإنسان إنما يعيب من يلابسه ويخالطه، فالرجال يلتقون بالرجال، وربَّما عاب بعضهم بعضاً، والنساء بالنساء، ولذلك جاء التحذير للرجال والنساء، فافهم أسرار الكتاب العزيز.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٦٢٢.

بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختصٌّ به عرفاً، كمن يعيب غيره بالقصر، أو يهزأ عليه فيقول: يا أقرع أو يا أعرج، فالتلقيب المنهيُّ عنه، هو ما يتداخل المدعو به كراهةٌ، لكونه ذماً له، فأمَّا ما يحبه فلا بأس به، كما قيل لأبي بكر رضي الله عنه: الصدِّيق، ولعمر رضي الله عنه: الفاروق، ولم يقل تعالى «ولا تلامزوا» لأن اللمَّاز إذا لمَزَ، فالملموز قد لا يجد في الحال عيباً يلمزه به، وأمَّا في النبز وهو الرمي فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به، فإن من نبز غيره بالثور، وهو ينبزه بالحمار، وغير ذلك.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ الاسم هنا بمعنى «الذكر» يقال: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم؛ أي بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق، بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به، والمعنى: بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن كان مؤمناً، بسبب هذه الأفعال، ويكون كقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ وكان بعض الناس يقول في شتمه لمن أسلم من اليهود يا «يهودي» ويا فاسق، فنهوا عنه، وقيل: نزلت في «صفية بنت حُييّ» أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقلن لي بنت يهودي، فنزلت الآية(١) ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نُهِيَ عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

> ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

---

(١) أشار إلى ما رواه أحمد في المسند ٣/١٢٦ عن أنس بن مالك قال: بلغ صفية أن حفصة قالت لها: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: قالت لي حفصة: أنتِ ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي - يريد موسى عليه السلام - وعمك لنبيٌّ - يريد هارون عليه السلام - وإنك لتحت نبيٍّ، فبم تفخر عليك؟ ثم قال: اتق الله يا حفصة.. الحديث.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة وإساءة الظن بالمؤمنين، وكونوا على جانب منه، وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط، والتأمل في كل ظن، فلا يسارع المؤمن بل يتأمل ويتحقَّق، قبل أن يظن السوء بأخيه المؤمن ﴿ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾ تعليل للأمر بالاجتناب، أي إن في بعض الظن إثم يلحق صاحبه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، كما أمركم، المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا، (ويشير إلى صدره) بحسب امرىءٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم، على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله»[1] ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، والتجسسُ: التفتيشُ عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، ومنه الجاسوس ﴿ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته، واغتابه اغتياباً إذا ذكره بما يكره، والاسم الغيبة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قلنا: اللهُ ورسوله أعلم؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره، قلتُ: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه»[2] ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا ﴾؟ تمثيلٌ وتصوير على أفحش وجه، وأشنعه، طبعاً، وشرعاً، مع مبالغات من فنون شتى، الاستفهام التقريري، وإسناد الفعل إلى أحد الأخوين (لحم أخيه) وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان[3]، وجعل المأكول أخاً للآكل، وكونه ميتاً، وتعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك، أي

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ والبخاري رقم ٦٠٦٥ وروى الترمذي بعضه رقم ١٩٢٨.
(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٩ باب تحريم الغيبة، «بهتّه»: أي قلت فيه البهتان وهو الباطل.
(٣) طرف من حديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨.

فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره، من الغيبة باستقامة الدين، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان، كلحمه ودمه، لأن قلبه يتألم إذا ذكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قُطع لحمه، والعرض أشرف من اللحم[1]، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نُحاس يخمشون وجوههم ولحومهم، فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[2] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه، والندم على ما صدر عنكم من قبل ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في قبول التوبة، وإفاضة الرحمة، حيث يجعل التائب كمن لم يذنب، وإن كثرت ذنوبه، والكذب والافتراء هما في غاية القبح، فلم ينه عنهما اكتفاءً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لأن وصفهم بالإيمان، يمنعهم عنهما، وهما دأب الكافر، وإنما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي من آدم وحواء، وخلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالنسب، قيل: لمَّا كان يوم الفتح، أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة وأذَّن، فقال بعض الناس: أمَا وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ فنزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وزجرهم

---

(١) جاء التعبير القرآني بأبدع التمثيل البياني، فقد مثّل تعالى للمغتاب بالشخص الذي جلس على ميتةٍ ينهش من لحمها، وهذا اللحم أولاً لحم إنسان، وهذا الإنسان أخوه، ثم هو ميّت، فإن أكل لحم الميتة هو المتناهي في كراهة النفوس، ونفور الطباع، ويا له من تمثيل مُريع، بلغ الذروة في القبح والشناعة، والفظاعة.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨ في الأدب.

عن التفاخر بالأنساب ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾ الشعب: الجمعُ العظيم، المنتسبون إلى أصل واحد، سميت شعوباً لأن القبائل تتشعب منها كتشعب أغصان الشجرة، والشعبُ يجمع القبائل، والقبيلة هي الجماعة التي يربطها حسب أو نسب، وهي تجمع البطون والأفخاذ، ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، ويعرف الإنسان نسبه فلا ينتسب أحد إلى غير آبائه، لا للتفاخر بالآباء، والتفاضل في الأنساب، والسخرية تفضي إلى التناكر ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب، كأنه قيل: إن الأكرم عند الله هو الأتقى، فإن تفاخرتم فتفاخروا بالتقوى، فإنها تكمل النفوس، وبها تتفاضل الأشخاص، وختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي يعلم التقيَّ والشقيَّ، والصالح والطالح، فلا تزكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.

﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾.

﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ أي بعض الأعراب، نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سَنَة جدب، فأظهروا الإسلام، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أتيناك بأثقال وعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون الصَّدقة، ويمنُّون عليه ﷺ ما فعلوا ﴿ ءَامَنَّا قُل ﴾ لهم ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ إذ الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب، ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لما مننتم بإيمانكم وأفعالكم!! وهذا كان معجزة للنبي ﷺ حيث أطلع الله رسوله على الغيب، وذلك كالتاريخ، لنزول الآية، لا للاختصاص بهم، لأن من أظهر فعل المتقين، وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام، لا يحصل له ذلك، لأن التقوى من عمل القلب، والله تعالى خبير بما في الصدور ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ للاحتراز من النهي عن التلفظ بالإيمان، أي فإن كنتم

تقولون شيئاً، فقولوا أمراً عاماً، لا يلزم منه كذبكم، وهو أسلمنا، فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم، ولم تذوقوا حلاوته بعد(١) ، ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص، وترك النفاق، وفيه تحريض على الإيمان الصادق ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ﴾ أي لا ينقصكم ﴿شَيْـًٔا﴾ من أجورها، يقال: لات يليت، ليتاً: إذا نقص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أي لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم، بل ثبتوا على اليقين، فهي كقوله تعالى: ﴿ثم استقاموا﴾ ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعة الله على تكثير فنونها من العبادات البدنية والمالية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا غيرهم.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟ أي أتخبرونه بتصديق قلوبكم؟ والتعبير عنه بالتعليم لتشنيعهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من مفعول «تُعلّمون» مؤكدة لتشنيعهم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي مبالغ في

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه السورة ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم. فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبهم الله في ذلك، ولو كانوا منافقين لعُنفوا وفُضحوا ـ ا هـ.

العلم بجميع الأشياء، التي من جملتها ما أخفوه من غرض إظهارهم الإيمان، وفيه مزيد تجهيل، وتوبيخ لهم.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أي يعدون إسلامهم منةً عليك ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ أي لا تعدُّوا إسلامكم منة عليَّ، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ أي لو صح ادعاؤكم بالإيمان، فلله المنة عليكم، حيث بيَّن لكم الطريق ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه محذوف، يدل عليه ما قبله، أي فلله المنة عليكم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ما غاب فيهما، فكيف يخفى عليه حالكم؟ ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في سركم وعلانيتكم والله أعلم بمراده، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»

* * *

سُورَةُ قٓ

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾.

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ المجيد أي ذي المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد جلَّ وعلا، فهو ممجَّد.

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ②﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي لأن جاءهم منذر منهم، أي من جنسهم، وهو إضراب عما ينبىء عنه جواب القسم المحذوف، كأنه قيل: والقرآن المجيد أنزلناه إليك، لتنذر به الناس ولم يؤمنوا به، وهو رجل منهم، عرفوا أمانته، وعدالته، وأصالته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن يناله مكروه، وإذا علم أن مخوفاً أظلّهم، لزمه أن ينذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف؟ ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجبهم، أي هذا شيء في منتهى الغرابة والعجب.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ③﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ﴾ أي أحين نموت ونصير تراباً، نرجع إلى الحياة مرة ثانية، ونبعث بعد موتنا؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك رجوع مستحيل، بعيدٌ غاية البعد.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ﴾ رد لاستبعادهم، فإن علمه تعالى عام ولطيف، حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، ويعلم أجزاء كل واحد منهم، وقادر على الجمع والتأليف، فليس الرجع منه ببعيد ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي حافظ لتفاصيل الأشياء كلها، وهو اللوح المحفوظ، الذي أحصى تفصيل كل شيء، مكتوبٌ موتهم، ومكثهم في القبر، ومبعثهم يوم القيامة، والحفيظ بمعنى «الحافظ» قد ورد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي بحافظ.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ إضراب وانتقال، من بيان شناعتهم السابقة، إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوة، الثابتة بالمعجزات الباهرة، وسخريتهم وتكذيبهم للقرآن الكريم ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ حين جاءهم في أول وهلة، من غير تأمل وتفكر ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مضطرب، لا قرار له، حيث يقولون تارة: شاعر، وطوراً ساحر، ومرة كاهن، لا يثبتون على شيء واحد، وكان الواجب عليهم أن ينتقلوا من الشك إلى اليقين والقطع بصدقه، لعلمهم بأمانته، واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم، ولظهور المعجزات على يديه، فلما غيّروا حصل الاضطراب.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾؟ أي أغفلوا ولم ينظروا حين كفروا بالبعث؟ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي رفعناها بغير عمد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بما فيها من الكواكب المنيرة، المترتبة على نظام بديع ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي فتوق، لسلامتها من كل عيب وخلل، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَىٰ﴾[1]؟.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسنٌ يسرُّ به من رآه.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ أي فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي راجع إلى ربه، متفكر في بدائع صنعه، والفرق بين التبصرة والتذكرة، هو أن فيها آيات مستمرة، منصوبة في مقابلة البصائر، كخلق السماء وزينتها، وآيات متجددة عند الناس، كإنبات كل زوج من أنواع الزروع.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي كثير المنافع، فيه حياة كل شيء، وهو المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ أي بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ كثيرة، أي أشجاراً ذوات ثمار ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي حب الزرع، الذي شأنه أن يُحصَد، البُرِّ، والشعير، وأمثالهما.

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٣.

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ ﴾.

﴿ وَٱلنَّخۡلَ ﴾ عطف على الجنات، وتخصيصها بالذكر لبيان فضلها على سائر الأشجار ﴿ بَاسِقَٰتٖ ﴾ أي طوالاً مستويات، مرتفعات، يقال: بَسَقَت النخلةُ بسوقاً طالت، فهي باسقة ﴿ لَّهَا طَلۡعٞ ﴾ هو ما يطلع من ثمر النخيل ﴿ نَّضِيدٞ ﴾ متراكب بعضه على بعض، والمراد تراكم الطلع، أو كثرة ما فيه من الثمر، وفيه استدلالٌ بالأشجار، تنمو وتزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت، ينمو ويزيد.

﴿ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١ ﴾.

﴿ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ ﴾ أي لرزقهم، علة لقوله تعالى: ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا ﴾ وفي تعليله بذلك، تنبيه على أن الواجب على العبد، أن يكون انتفاعه بذلك، من حيث التذكر والاستبصار، أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرزق، ولهذا قال أولاً: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ وقال ثانيا: ﴿ رِزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ مطلقاً، لأن الرزق حاصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً، وغيره يأكل كالأنعام ﴿ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ ﴾ أي أرضاً مجدبة، لا نماء فيها فجعلها بحيث تربو، وتنبت أنواع النباتات، وصارت تهتز بها، بعدما كانت جامدة هامدة ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ أي مثل تلك الحياة البديعة، حياتكم بالبعث من القبور، وفي التعبير عن إخراج النبات بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج، تهوينٌ لأمر البعث، وتقريب إلى أفهام البشر.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ ﴾.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ ﴾ أي قبل المشركين ﴿ قَوۡمُ نُوحٖ ﴾ شيخ الأنبياء، بدأ به لأنه أطول الأنبياء عمراً وأكثرهم بلاء ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾.

﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ﴾ أي فرعون وقومه، ليلائم ما قبله وما بعده ﴿ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾ سمَّاهم إخوانه لأنه عليه السلام صاهرهم وتزوج منهم.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو ملك باليمن أسلم دعا قومه إلى الإسلام ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ فيما أرسل به من الشرائع، أي كل قوم من الأقوام المذكورين، كذبوا رسولهم، وكذبوا جميعهم جميع الرسل ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحل عليهم وعيدي، وهي كلمة العذاب.

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه، حتى يُتوهم عجزنا عن الإعادة؟ وهذا جواب لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي إذا لم نعجز عن الخلق الأول، فكيف نعجز عن الثاني؟ ﴿ بَلْ هُمْ ﴾ أي قريش ﴿ فِي لَبْسٍ ﴾ وشك وشبهة ﴿ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، بل هم في شبهة في خلق مستأنف، لما فيه من مخالفة العادة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ أي ما تحدِّثه به نفسه، وهو ما يخطر بالبال من حديث النفس ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أي أعلم بحاله ممن كان

أقرب إليه، ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ والوريدُ: العرق الذي هو مجرى الدم، يجري فيه الدم ويصل إلى القلب، سمي وريداً لأنَّ الروح ترده، وهو المسمَّى بالشريان الوريدي، والآية تمثيل لشدة قرب الله من عبده، وليس هناك اتحاد وحلول، تعالى الله عن ذلك.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧)﴾.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي إنه لطيف، يتوصل علمه إلى ما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان من كل قريب، وذلك حين يتلقى المَلَكان الحفيظان [1] ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه غني عن استحفاظ الملكَيْن، فإنه أعلم منهما، ومطّلع على ما يخفى عنهما، لكنَّ الحكمة اقتضت ذلك، لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ في الكلام حذف تقديره: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، وقيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، فهو كالظل للإنسان، يلازمه حيث كان.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به من خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي مَلَكٌ يرقُب ما صدر عنه، لما أن كلاً منهما رقيب لما فوض إليه ﴿عَتِيدٌ﴾ أي معدٌّ ومهيَّأٌ لكتابة ما أُمر به، يكتبان ما فيه أجر، أو وزرٌ، ويحتمل أن يقال المتلقيان المَلَكان، اللذان يأخذان روحه من ملك الموت، أحدهما

(١) قال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحواله ـ ملكَيْن بالليل، وملَكَيْن بالنهار، يحفظان عمله، ويكتبان أثره، إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ ـ اهـ تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣.

يأخذ أرواح الصالحين، وينقلها إلى دار السرور إلى يوم النشور، والآخر يأخذ أرواح الطالحين، وينقلها إلى الويل والثبور، وعنده ملكان آخران كاتبان لأعماله، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالشهيد هو القعيد، والسائق هو المتلقي.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بحقيقة الأمر، أي بما يؤول إليه أمره، من السعادة والشقاوة، وسكرة الموت: شدته الذاهبة للعقل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتنفر عنه.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي وقت ذلك النفخ ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي يوم إنجاز الوعيد، وتخصيص الوعيد بالذكر لتهويله.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد بعملها، وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد جوارحه، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم..﴾ الآية.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي يقال له: لقد كنت أيها الإنسان في غفلةٍ من هذا اليوم العصيب ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغطاء: الحجاب

المغطِّي وهو الغفلة، والانهماك في الشهوات، وقصر النظر عليها ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي فبصرك اليوم قوي نافذ، لزوال المانع.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الجمهور على أنه المَلَك الكاتب الموكل به ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ﴾ قال الملك الموكل به، مشيراً إلى كتاب عمله: هذا مكتوب عندى ﴿عَتِيدٌ﴾ أي مهيأ للعرض.

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، أو للملكين من خزنة النار، ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي كل كافر معاند للحق.

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة، أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله، والمراد بالخير: الإسلام الذي هو خير محض، كأنه قال: كفر بالله ولم يقنع بكفره حتى منع الخير عن الغير. قيل: إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ﴿مُّعْتَدٍ﴾ ظالم، غشوم ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٌّ في الله، وفي دينه ويوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة.

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِي﴾ بدل من كل كفار ﴿ جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ تكرير للتوكيد.

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧ ﴾.

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ أي الشيطان المقيَّض له، فكأنَّ الكافر قال: رب هو أطغاني، فقال قرينه ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ ﴾ أي ما كان ابتداء الإضلال مني، لكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴾ أي ضلال بعيد عن الحق، فأعنتُه عليه بالإغواء، من غير قسر وإلجاء.

﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ أي في موقف المحاسبة، إذ لا فائدة في ذلك ﴿ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴾ أي سبق أن أنذرتكم على الطغيان، فلا تطمعوا في الخلاص اليوم.

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩ ﴾.

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ ﴾ أي ما يبدَّل حكمي، ولا يغيَّر كلامي، بعقاب أهل الكفر والإجرام ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ أي وما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم.

﴿ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠ ﴾.

﴿ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل، لتهويل أمرها، والمعنى: إنها مع اتساعها، وتباعد أقطارها، يُطرح فيها من الإنس والجن حتى تمتلىء ﴿ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴾ لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم، وهذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل، ويمكن أن يكون الأمر على الحقيقة، بأن يخلق الله للنار قدرة على الكلام، ويسألها فتجيب، والله على كل شيء قدير.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، أي قُرِّبت للمتقين، بحيث يشاهدونها من الموقف، فيبتهجون بأنهم محشورون إليها، ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي مكاناً غير بعيد.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى الجنة أي مقولاً لهم ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي حافظ لما استودعه الله من حقوقه.

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ وصف القلب بالإنابة، لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى خالصاً، أي جاء بقلب طيّب سليم، خالص من شوائب الضلال والإشراك.

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ أي يقال لهم ادخلوها ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ أي بسلامة من العذاب والهموم والأكدار ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ أي ذلك هو البقاء الدائم في الجنة، الذي لا انتهاء له، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء.

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم كائناً ما كان ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ وهو ما لا يخطر ببالهم، مما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾ أي قبل كفار قريش ﴿ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي قوة كعاد وأضرابها ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي تفرقوا في البلاد، وجالوا في أكنافها ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي هل من مهرب من الموت؟ أي لم يجدوا محيصاً، بل ماتوا وصاروا إلى أمر الله.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر في السورة ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي قلب سليم يدرك كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها، فيعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أي إلى ما يتلى عليه ليقف على جلية الأمر ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي حاضر الفكر والقلب، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا ﴾ أي خلقناهما مع عظمتهما في مقدار ستة أيام وما أصابنا ﴿ مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي من إعياء ولا تعب، وهذا رد على جهلة اليهود في زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على ظهره على العرش، فهو يوم استراحة الرب، فكذبهم الله تعالى.

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي ما يقوله المشركون في شأن البعث، من الإنكار والاستبعاد، فإن من فعل هذه الأفاعيل قادر على بعثهم، والانتقام منهم ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي نزّهه تعالى عن العجز، حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من النبوة والهداية ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ الفجر ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ العصر، والظهر.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ العشاءان والتهجد، وقيل: أراد بالتسبيح الصلاة ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ النوافل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سبَّح الله في دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبَّر الله ثلاثاً وثلاثين، ثم قال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه، وإن كانت مثل زَبَد البحر»(١).

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَاسْتَمِعْ ﴾ أي لما يوحى إليك، من أحوال القيامة، وفيه تهويلٌ لأمر المخبَرِ به ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ أي إسرافيل عليه السلام، فيقول: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٥٩٧.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ ﴾ وهي النفخة الثانية ﴿ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ أي يوم يسمعون الصيحة، ملتبسة بالحق الذي هو البعث، يخرجون من القبور.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ أي يُحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا، من غير أن يشاركنا في ذلك أحد ﴿ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ للجزاء في الآخرة.

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي تتصدع الأرض فتخرجُ الموتى من قبورهم ﴿ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ مسرعين جمع سريع، كالكرام جمع كريم ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ ﴾ أي بعث وجمع ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي هيِّن.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من نفي البعث، وتكذيب الآيات، وغير ذلك مما لا خير فيه ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي بمتسلط تقسرهم على الإيمان، وإنما أنت مذكِّر ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي فعظْ بهذا القرآن وخوِّف من يخاف وعيدي، وأمَّا من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجبه أعمالهم من فنون العذاب. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»

* * *

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكية وآيها ستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١﴾.

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ أي الرياح التي تذرو التراب وغيره، ذرت الريح الشيءَ نسفته وفرقته.

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾.

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾ أي السحب الحاملة للمطر ﴿وِقۡرٗا﴾ ثقلاً من الماء.

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣﴾.

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ أي السفن الجارية في البحر، ويسراً صفة لمصدر محذوف، أي جرياً ذا يسر وسهولة.

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾.

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ أي الملائكة التي تقسم الأمور، من الأمطار،

والأرزاق وغيرها، أقسم الله تعالى بهذه الأشياء، لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه تعالى، وقدرته، ثم ذكر الجواب فقال:

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي الموعود وهو البعث، وعدٌ صادق وحقٌّ.

﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أي الجزاء على الأعمال، لواقع وكائن، لأن من قدر على إبداع هذه البدائع، فهو قادر على البعث والجزاء.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ ﴾ .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ عن ابن عباس: ذات الخَلْق المستوي، وقيل: ذات الطرائق المحكمة، والبنيان المتقن.

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ ﴾ .

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون جواب القسم ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ أي متخالف ومتناقض، وهو قولهم في حقه ﷺ تارة شاعر، وأخرى ساحر، وأخرى مجنون، وفي شأن القرآن الكريم: تارة شعر، وأخرى سحر، وأخرى أساطير الأولين.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ ﴾ .

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يصرف عن القرآن وعن الإيمان بالرسول عليه السلام من صُرِف، إذ لا صرف أفظع منه وأشد.

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾؟ وأصله الدعاء بالقتل، والهلاك، ثم جرى مجرى اللعن ﴿الخرّاصون﴾ الكذّابون، وهم أصحاب القول المختلف، كأنه قيل: قُتِلَ هؤلاء الخراصون الأفّاكون، ولعنوا على ما قالوا من الكذب والبهتان، في حق الرسول والقرآن.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ من الجهل والضلال يغمرانهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به.

﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي متى يكون يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام، بل بطريق الاستعجال والاستهزاء.

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ جواب للسؤال، أي يقع يوم هم على النار، يحرقون ويعذبون بها وتقول لهم خزنة النار:

﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي عذابكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ بطريق الاستهزاء.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لا يبلغ كنهها ولا يُقادر قدرها.

﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي قابلين لما أعطاهم، راضين به على معنى أن كل ما آتاهم حَسَنٌ مرضي يُتلقى بحسن القبول ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ أي لأعمالهم الصالحة فلذلك نالوا ما نالوا، من الفوز العظيم.

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أي كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل، وفيه مبالغة في تقليل نومهم، هجع هُجوعاً: نام بالليل.

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي هم مع قلة نومهم، وكثرة تهجدهم، يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنهم أمضوا ليلهم باقتراف الجرائم.

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي نصيب وافر قد أوجبوه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى وإشفاقاً للناس ﴿ لِّلسَّآئِلِ ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ أي المتعفف الذي يحسبه الناس غنياً، فيحرم الصدقة لتعففه.

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ ﴾ دلالات واضحة على شؤونه تعالى، حيث إنها مدحوَّة كالبساط الممهَّد، وفيها سهل وجبل، وبر وبحر، وعيون متفجرة، ومعادن دفينة، والنباتات، وأنواع الأشجار، وأصناف الثمار، ودواب منبثة، قد رُتِّب كلها ودُبِّر لمنافع ساكنيها ﴿ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾ أي للموحِّدين، الذين سلكوا الطريق السويَّ، بعيون باصرة، وأفهام نافذة.

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ ﴾ آيات إذ ليس في العالم شيء إلاَّ في الأنفس له نظير، يدل دلالته على ما انفرد به، من الهيئات النافعة، والمناظر البهية، والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال البديعة، واستنباط الصنائع المختلفة، واستجماع الكلمات المتنوعة، وحسبك بالقلب والدماغ، وما ركز فيه من العقل والفكر، وبالألسن والنطق، وما في تركيبها ولطائفها، من الآيات الدالة على حكمة مبدعها، ومدبرها، وقدرة صانعها، فتبارك الله أحسن الخالقين!! ﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾؟ أي ألا تنظرون فتبصرون قدرة الله بعين البصيرة؟.

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ أي أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر، فإنه سبب الأقوات ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الثواب، لأن الجنة في السماء.

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾ أي أقسم لكم برب السماء والأرض إنما

توعدون من الرزق، والبعث، والجنة والنار، لحق ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون، ينبغي أن لا تشكوا في حقيته.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾؟ تفخيم لشأن الحديث، وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله ﷺ بغير طريق الوحي ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي المعظّمين عند الله، وعند إبراهيم، حيث خدمهم بنفسه وبزوجته، وإكرام إبراهيم عليه السلام لهم، ببشاشة الوجه أولاً، وبالإجلاس في أحسن المواضع ثانياً، وتعجيل القِرَى ثالثاً.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون، أنكرهم عليه السلام لأن أوضاعهم وأشكالهم تخالف أشكال أهل البلدة، إذ قدموا عليه في صورة شبان حسان، عليهم مهابة عظيمة، خلاف ما عليه الناس، وإنما قاله في نفسه، من غير أن يشعرهم بذلك، لا أنه خاطبهم جهراً لأن فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، ولو سألهم من أول الأمر عن حقيقتهم، لكشفوا أحوالهم عند ذلك، ولم يتصدَّ لمقدمات الضيافة، قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ فدل على أن إنكارهم كان حاصلاً بعد تقريبه العجل لهم ليأكلوا منه.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه، فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقِرَى، من غير أن يُشعر به الضيف، حذراً من أن يكفَّه ويمنعه، راغ فلان إلى كذا مال إليه سرّاً ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ الفاء

فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت، بدلالة الحال عليها، أي فذبح عجلاً فشواه فجاء به.

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ بأن وضعه لديهم، وهذا من آداب المضيف أن يقدم الطعام إلى الضيف، ولا يحوجهم إلى السعي إليه ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ منه؟ إنكاراً لعدم تعرضهم للأكل.

﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ ﴾ أي أضمر في نفسه ﴿ خِيفَةٗۖ ﴾ لتوهم أنهم جاؤوا للشر، قيل: «من لم يأكل طعامك، لا يحفظ ذِمامك» أي ذمتك وكرامتك ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ ﴾ إنا رسل الله، فعرفهم وأمِنَ منهم، وقيل: مسح جبريل عليه السلام العجل، فقام ولحق بأمه ﴿ وَبَشَّرُوهُ ﴾ في سورة الصافات ﴿وبشرناه﴾ أي بواسطتهم ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾ وهو إسحق عليه السلام عند الجمهور ﴿ عَلِيمٖ ﴾ أي يكمل علمه إذا بلغ، وفيه بشارة بحياته حتى يكون من العلماء النابغين.

﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ سارة رضي الله عنها لمَّا سمعت بشارتهم، وكانت في زاوية تنظر إليهم ﴿ فِي صَرَّةٖ ﴾ أي في صيحة وضجة، من الصرير وهو شدة الصياح ﴿ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا ﴾ أي لطمته من الحياء، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبينها، كما يفعله المتعجِّبُ ﴿ وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾ أي أنا عجوز عاقر، فكيف ألد؟.

﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أي قضى الله وحكم، وإنما نخبرك به عنه تعالى، لا أنَّا نقوله من تلقاء أنفسنا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي الحكيم في صنعه، العليم بشؤون خلقه، فيكون قوله حقاً، وفعله متقناً لا محالة، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط، بل مع إبراهيم أيضاً، حسبما شرح في سورة الحِجْر.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي لإهلاك المجرمين من قوم لوط.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعدما قلبنا قراهم، وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل في سورة هود ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي طين متحجِّر، هو السجيل.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحد في الفجور.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ حكاية من جهته تعالى، لما جرى على قوم لوط، بطريق الإجمال، أي: فباشروا ما أُمروا به فأخرجنا ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي في قوم لوط ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام، وفيه بيان القدرة والاختيار، فإن البلاء والعذاب يصيب البر والفاجر، فلمَّا ميز الله دلَّ على الاختيار.

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أي غير أهل بيت ﴿ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قيل هم لوط وأهل بيته وكانوا نحو ثلاثة عشر شخصاً، وفيه إشارة إلى أن الكفر والفسق إذا فشيا، لا تنفع عبادة المؤمنين عن رفع البلاء، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيه شرذمة يسرفون، فالحكم للغالب في البلاد والعباد.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ أي علامة دالة على ما أصابهم من العذاب، هي تلك الأحجار التي رُمُوا بها، وجعل عاليها سافلها ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي من شأنهم أن يخافوه، لسلامة فطرتهم، دون من عداهم، من ذوي القلوب القاسية.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ ﴾ أي وجعلنا في قصة موسى آية وعبرة ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة ظاهرة، هي ما ظهر على يديه من المعجزات الواضحة.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ أي بما يتقوى به من ملكه وعسكره، فإن الركن اسمٌ لما يُركن إليه الشيءُ ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ ﴾ أي هو ساحر ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه السلام من الخوارق إلى الجن، وتردّد في أنه حصل ذلك بسعيه وباختياره، وهذا التردُّد دليل الافتراء والبهتان.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أي فأغرقناهم في البحر، وفيه من الدلالة على عظم شأن القدرة الربّانية، كأنه قيل: واتخذ أولياءه وأركانه وعساكره فلم ينفعوه، وأخذه الله عزَّ وجلَّ وأتباعه، وألقاهم جميعاً في البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي آياتٍ بما يُلام عليه، من الكفر والعصيان.

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ وَفِى عَادٍ ﴾ أي وفي إهلاك عاد آيةٌ وعبرة ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ وُصفت بالعقم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو لأنها لم تتضمن لهم خيراً، من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وهي النكباء أو الدبور.

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ أي جرت عليه ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ هو كلُّ ما رَمَّ أي بلي وتفتَّت، من عظم، أو نبات، أو غير ذلك، والمعنى: ما تترك من شيء هبَّت عليه، من أنفسهم وأنعامهم، وأموالهم، إلاَّ أهلكته، وجعلته كالهشيم البالي، فإن قيل: الجبال والصخور أتت عليهما، وما جعلتهما كالرميم؟ نقول: المراد أتت عليه قصداً، وهو قوم عاد، ودورهم، ومواشيهم، وأموالهم.

﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ أي وجعلنا في ثمود وإهلاكهم آية وعبرة ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ

﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[1] بعد عقرهم الناقة.

﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بيان لسبب الإهلاك، أي فاستكبروا عن الإيمان بالله، وطاعة رسولهم، وعقروا الناقة، قيل: قال لهم «صالح» عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرّة، واليوم الثالث مسودّة، ثم يصبّحكم العذاب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم الصيحة المهلكة، صيحة العذاب، والصاعقة: النازلة من الرعد، وكل عذاب مهلك قيل: لما رأوا العلامات التي بيّنها صالح عليه السلام، عمدوا إلى قتله، فنجاّه الله من شرّهم ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها لأنها كانت نهاراً.

﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أي بغيرهم، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح وجعلنا هلاكهم عبرة ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المهلكين ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن الحدود، فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

(١) سورة هود، آية: ٦٥.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٖ﴾ بقوة، وهو بيان للوحدانية، وما تقدم كان بياناً للحشر ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة؛ قاله ابن عباس أو ﴿لموسعون﴾ السماء وما بينها وبين الأرض(١).

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ٤٨﴾.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ أي الفارشون لها نحنُ.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ من الأجناس من الإنسان، والحيوان، والنبات ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أي نوعين، ذكراً وأنثى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا، فتعرفوا أنه خالق الكل، وأنه المستحق للعبادة، وأنه قادر للإعادة، فتعملوا بمقتضاه.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي فاهربوا إلى الله، الذي هذه شؤونه بالإيمان والطاعة، تنجوا من عقابه، وتفوزوا بثوابه، وقوله: ﴿ففروا﴾ ينبىء عن

---

(١) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق جل وعلا الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها ـ على سعتها ـ ما هي إلاَّ ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، الذي لا يعلم ضخامته وسعته إلا الله رب العالمين، خالق الإنسان ومبدع الأكوان، وتمعَّن وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة ﴿بنيناها بأيد وإنَّا لموسعون﴾ عظمة الكون وما فيه من المجرات والكواكب، لتسبِّح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك!!.

سرعة الإهلاك ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى، أي إني لكم من جهته تعالى منذر، بَيِّنٌ كوني منذراً، وفي أمره تعالى للرسول ﷺ، بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى من عقابه، وتعليلُه بأنه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى، لا من تلقاء نفسه، وعدٌ كريم بنجاتهم من المهروب، وفوزهم بالمطلوب.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي ولا تشركوا مع الله أحداً من بشر، أو صنم، أو حجر ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من الإشراك بعبادة غير الله ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي منذر واضح أمري، أخوفكم عقابه تعالى، وفيه تأكيد لما قبله، لكن لا بطريق التكرير كما قيل، بل بالنهي عن سببه، وإيجاب الفرار منه.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ هذه تسلية للرسول ﷺ، أي كما كذبك قومك يا محمد، فقالوا عنك إنك ساحر أو مجنون، كذلك قال المكذبون الأولون لرسلهم، ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من رسل الله ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ في حقه ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي رموهم بالسحر أو بالجنون، لجهلهم بمقام النبوة.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ﴾؟ إنكار وتعجيب من حالهم، واجتماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، أي هل أوصى بعضهم بعضاً بالسخرية والتكذيب ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن تواصيهم بذلك، لأنهم لم يتلاق بعضهم مع بعض، في زمان واحد، بل حملهم على ذلك الطغيان والفجور، وهذه الآية دليل على أن كل رسول كُذِّب.

﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ ﴾ أي فأعرض عن جدالهم، فقد كرَّرت الدعوة، فلم يجيبوا عناداً ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴾ أي فلستَ على التولي، بعدما بذلتَ المجهود، بمسؤول عند الله ولا ملوم فقد بلغت الرسالة، وهذه تسلية أخرى للرسول ﷺ.

﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَذَكِّرۡ ﴾ أي افعل التذكير والموعظة ﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإنها تزيدهم بصيرة، وقوة في اليقين.

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ أي وما خلقت البشر والجنَّ، إلا ليعرفوا ربهم ويعبدوه، فالمراد بالعبادة توحيد الله، ومعرفة دلائل وجوده، وطاعته سبحانه وتعالى، في كل ما أمر ونهى، وقيل: المعنى إلاَّ ليؤمروا بعبادتي، كما في قوله تعالى: ﴿وما أُمروا إلاَّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وعن مجاهد واختاره البغوي معناه: إلاَّ ليعرفوه، والمعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى، لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة.

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾ بيان لكون شأنه تعالى متعالياً عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم، في تحصيل معايشهم، وتهيئة أرزاقهم، أي ما أريد أن أصرِّفهم في تحصيل رزقي، ولا رزقهم، بل أتفضل عليهم برزقهم، وبما يُصلحهم ويعيشهم من عندي، فليشتغلوا بما خُلقوا له من عبادتي، وفي الآية تعريض بأصنام

المشركين، حيث كانوا يحضرون لها المآكل، فربما أكلتها الكلاب، ثم بالت على الأصنام.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ أي المتكفل بأرزاق العباد، الذي يرزق كل من يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويح بأنه تعالى غُنيٌّ عنه وعن العبادة ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ أي شديد القوة، الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد، وهم كفار مكة ﴿ ذَنُوبًا ﴾ أي نصيباً وافراً من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ ﴾ أي مثل نصيب أسلافهم المجرمين من العذاب، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب، وهو الدلو العظيم المملوء ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي لا يطلبوا مني أن أعجِّل لهم في المجيء به، فإنه واقع لا محالة، إن عاجلاً أو آجلاً، يقال استعجله، أي حثّه على العجلة وأمره بها، وهو جواب لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالكفر، وإشعاراً بعلة الحكم ﴿ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة الذي وعدهم الله عزَّ وجلَّ به في قوله: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾؟ الذين فجروا لهم العذاب الدنيوي، لأن الشيء إذا خرج عن الانتفاع به، لا يحفظ ويخلى المكان عنه، ألا ترى أن الدابة التي لا يبقى منتفعاً بها يخلّى عنها المكان

وتذبح، والطعام الذي يتعفن يفرَّغ منه الإناء ويرمى، فكذلك الكافر إذا ظلم فحسن إخلاء العالم عنه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، و على آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»

* * *

سُورَةُ الطُّورِ

مكية وهي تسع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ ﴾.

﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ مكتوب على وجه الانتظام، فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به القرآن الكريم، أو اللوح المحفوظ.

﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣ ﴾.

﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ الرَّقُّ الجلدُ الذي يُكتب فيه، استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ ﴾.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ أي الكعبة المشرفة، وعمارتها بالحُجَّاج، والعُمَّار، والمجاورين.

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ ﴾.

﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ أي السماء المحكمة البناء، ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور.

﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ أي المملوء أو الموقد، من قوله تعالى: ﴿وَإِذا البحار سُجِّرَتْ﴾ والمراد به الجنس.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ أي إنَّ العذاب لنازلٌ حتماً بالكفار، الذي أُوعدوا به.

﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ من مزيدة للتأكيد، أي ليس هناك من يدفعه عنهم، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها، لما أنها أمور عظام، تنبىء عن عظيم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته، الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها، الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها المقسم عليها.

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ المورُ: الاضطراب، والتردُّدُ في المجيء والذهاب، وقيل: هو تحرك في تموج، أي تتحرك وتضطرب اضطراباً عجيباً، وهو الزلزال الذي يكون عند قيام الساعة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تزول عن وجه الأرض، فتصير هباءً منثوراً، والسبب لمورها وسيرها، قدرة الله، لأن الأرضَ، والسماء، والجبالَ، كلها كان لعمارة الدنيا، والانتفاع منها، ولا عودٍ إلى الدنيا فلم يبق فيها نفع، وتأكيد الفعل ﴿موراً﴾ و ﴿سيراً﴾ للإيذان بغرابتها، وخروجها عن الحدود المعهودة، أي موراً عجيباً، وسيراً بديعاً، لا يدرك كُنهها، وعلماء الطبيعة يقولون: إن زلزلة الأرض، ببخار يجتمع تحت الأرض، فيحرك الجبال، وما عرفوا أسرار القدرة الإلهية في تدمير الظالمين[1].

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي إذا وقع ذلك فويل لهم، ففيه إشارة بأمان أهل الإيمان، لأنه لمَّا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ولم يبين بأنه موقعه بمن؟ فلما قال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمكَذِبينَ﴾ علم المخصوص به، فمن لا يكذب لا يعذب، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نذير فكذبنا﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ هذا ليس وصفاً للمكذبين، وإنما هو للذم، كما تقول: «الشيطان الرجيم» ولا تريد فصله عن الشيطان الذي ليس برجيم.

---

(١) كثرة الزلازل نذيرٌ بقرب الساعة، وخراب الدنيا، كما جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال:
«إن من أشراط الساعة ـ أي علاماتها ـ أن يتقارب الزمان، ويفشوَ الجهلُ، ويقلَّ العلمُ، وتكثر الزلازل، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْجُ، قالوا: وما الهَرْج يا رسول الله؟ قال: القَتْلُ، القتْلُ»..

﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ الدَّعُّ: الدفع العنيف، أي يدفعون إليها دفعاً عنيفاً شديداً، بأن تُغلَّ أيديهم على أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار، ويدل هذا على هول النار، لأن خزنتها لا يقربون منها، وإنما يدفعون أهلها إليها من البعيد، فيقال لهم.

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا، ومعنى التكذيب تكذيبهم بالوحي الناطق بها، وعدم الإيمان بالبعث، والجنة والنار.

﴿ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ ﴾؟ يعني كنتم تقولون للوحي والقرآن: هذا سحر، فهل هذا العذاب الذي تذوقونه سحر أيضاً؟ ﴿ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴾؟ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا، حيث كنتم تقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾؟ وهذا تقريعٌ، وتهكم بهم، ولا ظلم بعذابهم، فإن الله تعالى قال: من كفر ومات كافراً، أعذبه عذاباً أبداً، ومن آمن أثيبه أبداً، فالكافر اختار الكفر بعدما سمع، فاختار عذابه أبداً.

﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ﴾ أي ادخلوها وقاسوا شدتها ﴿ فَٱصۡبِرُوٓاْ ﴾ على عذابها ﴿ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ ﴾ عليه، فإنه لا محيص عنها ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ أي الأمران سيان: الصبرُ وعدمه، في عدم النفع، لا يدفع العذاب، ولا يُخفِّفه ﴿ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنما تعاقبون وتعذبون بسبب أعمالكم القبيحة وكفركم بآيات الله، ولما كان الجزاء واقعاً حتماً، كان الصبر وعدمه سواء، في عدم النفع، لأن الصبر له مزية في العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر، ولا عاقبة له هناك، لأنها دار الجزاء، لا دار الابتلاء.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ أي في أية جنات، وأي نعيم؟ على أن التنوين للتفخيم، أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على أنه للتنويع.

﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ أي ناعمين متلذذين ﴿ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ وهذا يفيد زيادة قدر النعم، حيث هي من عند ربهم ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وإظهار كلمة الرب للتشريف والتكريم.

﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾ أي يقال لهم كلوا واشربوا ﴿ هَنِيٓـًٔا ﴾ أي لا تنغيص فيه ولا كدر، وفيه إشارة إلى خلو المأكول والمشروب، عما يكون فيهما من المفاسد في الدنيا ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بسببه وبمقابلته.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ مصطفة ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي وأكرمناهم بزوجات حسان، من الحور العين، بيضٍ واسعات العيون، بيَّن الله تعالى أسباب النعيم على الترتيب، فأول ما يكون المسكن، ثم الأكل والشرب، ثم الفرش، ثم الزواج، فكلٌّ ذلك مهيّأً لأهل الجنة، دون تعب.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ أي لحقهم أولادهم وشاركوهم في الإيمان، والتنكير ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ للإشعار بأنه يكفي في الإلحاق، المتابعة في أصل الإيمان. وإن لم يكونوا كآبائهم في الأعمال الصالحة ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي في الدرجة، لما رُوي عن ابن عباس أنه قال: «إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه، لتقرَّ بهم عينه، ثم تلا هذه الآية» شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة ولهذا طيَّب الله قلوب عباده بالجمع بينهم، فإن خالف دينُه دين أبيه، صار له من حيث الشرع أب آخر ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم ﴾ أي وما نقصّنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ من ثواب عملهم ﴿ مِّن شَيْءٍ ﴾ وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل[1] ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي كلُّ امرىء مرهونٌ عند الله تعالى بعمله، فإن كان عمله صالحاً فكّه، وإلاّ أهلكه، وقيل: المؤمن لا يكون مرهوناً بعمله، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إلاَّ أَصْحابَ اليَمِينِ﴾[2] وهو قول مجاهد.

﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وزدناهم على ما كان لهم من

---

(١) جمع الله لأهل الجنة أنواع السرور، بسعادتهم بأنفسهم ودخولهم الجنة، وبتزويجهم بالحور العين، وبالمؤانسة مع الإخوان في الجنة، وبالمآكل واللذائذ، والمشارب الهنيئة، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، وبالخلود الدائم في دار النعيم كما قال سبحانه: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾.
(٢) سورة المدثر، آية: ٣٨ ـ ٣٩.

مبادىء التنعُّم، وقتاً فوقتاً، ما يشتهون من فنون النعماء، من الفواكه، ولحم الطير.

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا ﴾ أي يتعاطون فيها هم وجلساؤهم، بكمال رغبة واشتياق، كما ينبىء عنه التعبير بالتنازع ﴿ كَأۡسٗا ﴾ أي خمراً تسميةً لها باسم محلها ﴿ لَّا لَغۡوٞ فِيهَا ﴾ أي في شربها، حيث لا يتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث، وسقط الكلام ﴿ وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾ ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله، أي ينسب إلى الإثم لو فعله، كما هو ديدن الشاربين في الدنيا، وإنما يتكلمون بالحِكَم، وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام.

﴿ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بالكأس ﴿ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ ﴾ أي مماليك مخصوصون بهم[1] ﴿ كَأَنَّهُمۡ ﴾ في الحسن والصفاء ﴿ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴾ مصون في الصدف لم تمسه الأيدي.

﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً آخر، عن

---

(١) أفاد التنكير في قوله سبحانه: ﴿غلمان لهم﴾ أن كل من يدخل الجنة، يجد له خدماً لم يعرفهم، وليس في الجنة من يقوم بالخدمة لِنفسه، فحال أهل الجنة كحال الملوك والعظماء، يجدون من يخدمهم لكنْ هنا بالوظيفة والمال، وهناك بالملك والتشريف، وإذا كان الخدم كاللؤلؤ المكنون في البياض والصفاء، فكيف بحال المخدومين؟ اللهم لا تحرمنا نعيم الجنة.

أحواله وأعماله، وما استحق به نيل هذه الكرامة في الجنة، تلذذاً واعترافاً بالنعمة والفضل العظيم.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي المسؤولون، وهم كل واحد منهم في الحقيقة ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين من عذاب الله تعالى، معتنين بطاعة الله، وجلين من العاقبة.

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالرحمة أو التوفيق للحق ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ أي عذاب النار، النافذة في المسام نفوذ السموم.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ نَدْعُوهُ ﴾ أي نعبده ونتضرع إليه، ونسأله الوقاية من نار جهنم ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ﴾ المحسن العطوف على عباده ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عبد أثاب، وإذا سئل أجاب، وفيه إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم، في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر، فتزداد لذة المؤمن، حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى النعيم، وحسرة الكافر حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم، ولا تكترث بما يقولون ﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ برحمة ربك وإنعامه عليك بالنبوّة والعصمة ﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ كما زعموا.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ ﴾.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ﴾ بل يقولون هو ﴿ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴾ أي ننتظر به حوادث الدهر، وصروفه، حتى يهلك ويموت فنستريح منه، ومرادهم أنهم يتربصون موته عليه الصلاة والسلام.

﴿ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١ ﴾.

﴿ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

﴿ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢ ﴾.

﴿ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم ﴾ أي عقولهم ﴿ بِهَٰذَآۚ ﴾ أي بهذا التناقض في المقال، فإن الكاهن يكون ذا فطنة، ودقة نظر في الأمور، والمجنون مختل فكره، والشاعر ذو كلام موزون مخيل، فكيف تجتمع أوصاف هؤلاء في شخص واحد؟ والمعنى: أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ وفيه سخرية وتهكم بهم وبعقولهم ﴿ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾ مجاوزون الحد في المكابرة والعناد، ولا يحومون حول الرشد والسداد، ولذلك يقولون ما يقولون.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ ﴾.

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه، والتقوُّلُ: التكلُّفُ في القول، ولا يستعمل إلا في الكذب ﴿ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الأباطيل، مع علمهم ببطلان قولهم.

﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤ ﴾.

﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ مثل القرآن في نظمه، وحسنه، وبيانه، مثله من حيثُ النظمُ، ومن حيثُ المعنى ﴿ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ فيما زعموا، فإن صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله، بقضية مشاركتهم له ﷺ في البشرية والعربية، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والبيان.

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أي أم أُحدثوا من غير محدث، ومن غير رب ولا خالق؟ ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله.

﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي أم هم الذين خلقوا السمٰوات والأرض؟ وهو أسلوب تهكمي لاذع، فما أحد يجرؤ أن يقول هما من خلقي، بل كانوا إذا سئلوا: من خلقكم؟ وخلق السماوات والأرض؟ قالوا: اللهُ ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أي هم غير موقنين بأن الله واحد أحد، فرد صمد، بل لا يوقنون أصلاً بشيء ما.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ من النبوة والرزق حتى يقسموا النبوة على من شاؤوا، ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ الغالبون على الأمور يدبرونها كيفما شاؤوا، حتى يدبروا أمر الربوبية.

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ منصوب إلى السماء ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ صاعدين إلى كلام

الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجماً بالغيب، إن ادعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة، تصدِّق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟ فيه تسفيه لهم، وإشعار بأن من هذا رأيه، لا يُعدُّ من العقلاء، فضلاً عن أنْ يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيطلع على الغيوب، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ رجوع إلى خطابه ﷺ وإعراض عنهم، أي بل تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم﴾ لذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ من التزامٍ ماليٍّ فادح ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي يحكمون فيه حتى يتكلموا في ذلك بنفي أو إثبات.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ هو كيدهم برسول الله ﷺ في دار الندوة بمكة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيق بهم كيدهم ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله عن إشراكهم، نزَّه تعالى نفسه عما يقولون[1].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ أي قطعة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا۟﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ قدْ رُكِمَ أي جُمع بعضه على بعض، ولم يصدِّقوا أنه كِسْفٌ ساقط للعذاب.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي حتى يعاينوا يوم هلاكهم، يوم تصيبهم الصعقة، والمراد بها القتل يوم بدر، لا النفخة الأولى كما قيل، إذ لا يصعق بها، إلاَّ من كان حياً حينئذٍ.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي شيئاً من الإغناء، وعدم نفع كيدهم، يستدعي استعمالهم له، طمعاً في الانتفاع به، وليس ذلك إلاَّ ما دبروه في أمره ﷺ من الكيد، الذي من جملته خروجهم لحربه يوم بدر، أما النفخة الأولى فليست مما يجري في مدافعته الكيد والحيل، وقيل: هو يوم موتهم

(١) كررت في هذه السورة الكريمة ﴿أم﴾ خمس عشرة مرة، وكلها إلزامات، وليس للمخاطبين بها عنها جواب، وهي في جميع الآيات منقطعة؛ بمعنى «بل» و «الهمزة» أي بل أيقولون شاعر.. بل أيقولون كاهن.. إلخ ومعنى الهمزة الإنكار، فهو استفهام إنكاري، واستفهم تعالى مع علمه بهم وبما يقولون، تقبيحاً عليهم، وتوبيخاً لهم، كقول الشخص لغيره: أتعرف هذا أم أنت جاهل؟ مع علمه بجهله، وما أبدع هذه السخرية والازدراء بعقول المشركين!!.

وانتقالهم من النعيم إلى الجحيم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير في دفع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي وإن لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون ما لاقوه من القتل، وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين، وما وراءه وهو عذاب القبر، وعذاب الآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كما ذكر.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، بإمهالهم إلى اليوم الموعودِ، مع مقاساة الأحزان ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك، وجَمَع العين ﴿بأعيننا﴾ للتعظيم والتفخيم للإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ ﴿وَسَبِّحْ﴾ نزهه تعالى عما لا يليق به ملتبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نعمائه الجليلة التي لا تُحصى ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قمت، قال سعيد بن جبير وعطاء: أي قل حين تقوم من مجلسك «سبحانك اللهم وبحمدك» وعن ابن عباس: حين تقوم من منامك، وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك».

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إفرادٌ لبعض الليل بالتسبيح، لما أن العبادة فيه أشق على النفس، وأبعدُ من الرياء، كما يلوح به تقديمه على الفعل ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي وقت إدبارها من آخر الليل، أي صلِّ لربك في آخر

الليل، حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح، قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، للحديث الشريف: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[1]. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلىٰ آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور»

* * *

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود، وانظر جامع الأصول ٦/ ١٠.

سُورَةُ النَّجْمِ

مكية وهي اثنتان وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المراد به إما نجم الثريا، فإنه اسم غالب له، ومنه قولهم: «إذا طلع النجم عشاءً. ابتغى الراعي كساءً» أو جنس النجوم ﴿إذا هوى﴾ أي إذا نزل، وفي القَسَم بذلك على نزاهته ﷺ عن شائبة الضلال والغواية، من البراعة البديعة وحسن الموقع، ما لا غاية وراءه، ومن شأن النجم أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنه قيل: أُقسم بالنجم الذي يهتدى به إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي ما ضلَّ محمد وما عدل عن طريق الحق، الذي هو مسلك الآخرة، وما اعتقد باطلاً قط، أي هو في غاية الهدى والرشد، وهناك فرق بين الضلال والغي، فالضلال في مقابلة الهدى، والغي في مقابلة الرشد، أي ما ضلَّ في قوله، ولا غوى في فعله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا

سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيَلاً﴾ والخطاب لقريش، والمراد نفي ما ينسبون إليه ﷺ، وإيراده ﷺ بلفظ ﴿صاحبكم﴾ للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وباتصافه بغاية الهدى والرشاد، فإن طول صحبتهم له ﷺ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً.

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أي ما يصدر نطقه بالقرآن، عن هواه ورأيه أصلاً.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما الذي ينطق به ﴿ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ من الله تعالى، قوله ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكِّدة، رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجددي ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ دليل على أنه ﷺ ما ضلَّ وما غوى، ردّاً عليهم أقوالهم الباطلة ﴿إنْ هُوَ إلاَّ وحيٌ﴾ أي ما هو إلاَّ وحيٌ من عند الله، ليس بقول كاهن ولا شاعر.

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ أي مَلَكٌ شديد قواه، وهو جبريل عليه السلام، فإنه الواسطة بين الله ورسله، ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط، ثم قَلَبها بهم، وصاح صيحة بثمود، فأصبحوا جاثمين.

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي حصافة في عقله ورأيه، ومتانة في دينه، وقيل ذو منظر حسن ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ أي فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى

عليها، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وذلك أنه ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جُبِل عليها، وكان ﷺ بحراء، فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسدَّ الأرض من المغرب، وملأ الأفق، فخرَّ ﷺ مغشياً عليه، فرجع جبريل في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه، قيل: ما رآه أحد من الآدميين غير النبي ﷺ فإنه رآه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، وقيل: استوى بقوته على ما جعل له من الأمر.

﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ أي أفق الشمس، أو أفق السماء.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ أي أراد الدنو من النبي ﷺ ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ أي استرسل من الأفق الأعلى، فدنا من النبي ﷺ حتى صار أمامه.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ فَكَانَ ﴾ أي مقدار امتداد ما بينهما ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ على تقديركم كما في قوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ والمراد تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه لما أوحي إليه، بنفي البعد الملبس، وقال الضحاك: دنا محمد من ربه. روي عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: فأين قوله تعالى ﴿ثم دنا فتدلى﴾؟ قالت: ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته[1].

---

(١) أخرجه الشيخان، ورواية البخاري ٨/٦٠٦ قالت عائشة لمسروق: «من حدَّثك أن محمداً رأى ربَّه فقد كذب، ولكنْ رأى جبريلَ عليه السلام في صورته مرتين».

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ أي إلى عبد الله محمد ﷺ، وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره، كقوله ﴿ما ترك على ظهرها﴾ ﴿ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ أي من الأمور العظيمة التي لا تفي بها العبارة، أو فأوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ما أوحى إلىٰ عبده محمد ﷺ.

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ ﴾ فؤاد رسول الله ﷺ ﴿ مَا رَأَىٰٓ ﴾ أي ما رآه ببصره، من صورة جبريل عليه السلام، أي لم يشكَّ في أن ما رآه جبريل، لأن الأمور القدسية، تدرك أولاً بالقلب، ثم تنقل منه إلى البصر، فعلم رسول الله ﷺ أنه جبريل وليس بخيال.

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾؟ أي أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي وبالله لقد رأى جبريل في صورته مرةً أخرى في المعراج.

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ هي شجرة نبق في السماء السابعة، عن يمين العرش، ثمرها كقلال هَجَر، وورقها كآذان الفيل، تنبع من أصلها الأنهار

التي ذكرها الله تعالى في كتابه، والمنتهى موضع الانتهاء، إليها ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم أحد ما وراءها، من مَلَكٍ أو رسول.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي الجنة التي يأوي إليها المتقون، أو أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ الغشيانُ بمعنى التغطية والستر، أي ولقد رآه عند السدرة، وقت ما غشيها ما غشيها، مما لا يحيط به الوصفُ، كيفاً ولا كماً، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، استحضاراً لصورتها البديعة، وللإيذان بأن استمرار الغشيان بطريق التجدد، كما يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها، ويزورونها كما يزور الناس الكعبة، وقيل يغشاها سبحات أنوار الله عزَّ وجلَّ.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزه مع ما شاهد من الأمور العجيبة المذهلة، وثبت في ذلك المقام العظيم، الذي تحار فيه العقول.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي والله لقد رأى الآيات، التي هي كبراها، حين عُرج به إلى السماء، فأُرِيَ من عجائب الملك والملكوت، ما لا يمكن أن يوصف.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ أي أخبروني ألهذه الأصنام كل شيء؟ وهي أصنام كانت لهم «فاللاتُ» كانت لثقيف بالطائف، على صورة رجل كان يلتُّ السويق ويطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، وسميت صورته باسمه. و «العُزَّى» تأنيث الأعز كانت لغطفان، وهي شجرة سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن وليد فقطعها. و«مناة» صخرة لهزيل وخزاعة، فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين، سميت مناة لأن دماء المناسك تمنى عندها، أي تراق، ثم إنهم كانوا مع عبادتهم لها، يقولون: إن الملائكة، وتلك الأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً: ﴿أفرأيتم﴾ إلخ والهمزة للإنكار، والمعنى: أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله تعالى، في ملكه وملكوته، ورأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها، جعلتموها شركاء لله تعالى؟.

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ ﴾.

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ توبيخ مبني على التوبيخ الأول، بنسبتهم إليه تعالى الإناث، مع اختيارهم لأنفسهم الذكور، أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو «الذكور»، وله تعالى النوع المذموم ـ في نظركم ـ وهو الأنثى؟.

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ ﴾.

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى القسمة ﴿ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ أي جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، ضِيزَىٰ من الضَّيْز وهو الجور.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ أي ما الأصنام إلا أسماء محضة، ليس فيها من معنى الألوهية شيء ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي جعلتموها آلهة، وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات، لا تضر ولا تنفع، وما هي إلا أسماء، خالية عن المسميات ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ أي من برهان تتعلقون به ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ألا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ أي ما تشتهيه أنفسهم الأمَّارة بالسوء ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي جاءهم الرسول من عند الله عزَّ وجلَّ بالبيان الساطع، والبرهان القاطع، على أن الله واحد لا شريك له، وفيه تأكيد على بطلان اتباع الظن، وهوى النفس، فإن اتباعهما من أي شخص قبيحٌ، وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أقبح.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ انتقال من بيان أن ما هم عليه، غير مستند إلا إلى توهمهم، وهوى أنفسهم، إلى بيان أن ذلك ممّا لا يجدي نفعاً أصلاً، أي ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه، حتى يطمع في شفاعة الآلهة التي لا تكاد تكون تحت الوجود.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي فالملك كله لله عزَّ وجلَّ فإن أمور الآخرة والأولى لله تعالى، وله الحكم فيهما، وليس لأحد أن يتحكم في شيء منهما.

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا ﴾ أي وكثير من الملآئكة لا تغني شفاعتهم عند الله شيئاً من الإغناء، في وقتٍ من الأوقات ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ ﴾ لهم في الشفاعة ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أن يشفعوا له ﴿ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ ويراه أهلاً للشفاعة، من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان، فهم محرومون من الشفاعة، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر، فما ظنكم بحال الأصنام؟.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ وبما فيها من العقاب ﴿ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ يسمون كل واحد منهم ﴿ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴾ فإن قولهم: الملائكةُ بنات الله، هي تسمية الأنثى، والعرب الجاهليون رأوا تاء التأنيث في لفظ الملائكة، فقالوا إنها أولاد مؤنثة، وحكموا بأنهم بنات الله.

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ ﴾ أي يسمونهم والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلاً ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ في ذلك ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ ﴾ الفاسد ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ ﴾ أي جنس الظن كما يلوح به الإظهار في موقع الإضمار ﴿ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴾ من الإغناء، فإن الحق لا يدرك إلاَّ بالعلم، والظنُّ لا اعتداد به في شأن المعارف الحقيقية، ولا يقوم مقام العلم اليقيني.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي فأعرض عن عبدة الأوثان، من المشركين الضالين، عمن أعرضوا عن ذكرنا، وهو القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ راضياً بها، قاصراً نظره عليها، والمراد النهي عن دعوته إلى الهداية، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا، بحيث كانت هي منتهى همته، لا تزيده الدعوة إلاّ عناداً، وإصراراً على الباطل.

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾أي التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي غاية علمهم ورأيهم، لا يجاوزونه إلى غيره حتى تجديهم الدعوة والإرشاد، والمراد من العلم مطلق الإدراك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بالشقي، والتقي، وهو العالم بمن أصرَّ على الضلال، وبمن هو أهل للهداية، فيعطي كلاًّ بحسبه، وفيه وعد ووعيد.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، لا لغيره أصلاً ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي ليجازي المجرمين بعقاب ما عملوا من الضلال، وبسبب ما عملوا ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي اهتدوا ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة، وبهذا يتبيَّن المسيء من المحسن، فمن

لا يجتنب الكبائر هو المسيء، ومن يجتنب الكبائر وما حرَّم الله تعالى فهو المحسن.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي هؤلاء المحسنون هم الذين ﴿يَجۡتَنِبُونَ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدُّد الاجتناب واستمراره ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ أي الذنوب الكبيرة ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ أي التي قبحها واضح ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ أي إلا ما قلَّ وصَغُر، فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر، اللمم بفتحتين هو الصغائر من الذنوب، التي لم يذكر الله تعالى عليها حداً، ولا عذاباً، والكبائر هي التي ذنبها عظيم، والفواحشُ: هي التي قبحُها واضح ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، على أن إخراج الصغائر عن حكم المؤاخذة، ليس لخلوها عن الذنب في نفسها، بل لسعة المغفرة الربانية ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ﴾ أي بأحوالكم يعلمها على التفصيل ﴿إِذۡ أَنشَأَكُم﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ إنشاءً إجمالياً ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ﴾ وقت كونكم مستترين ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة، لا يخفى عليه حال من أحوالكم، فكيف تخفىٰ عليه أعمالكم في الدنيا؟ فهو تعالى يعلم التقيّ والشقي، والبرَّ والفاجر. ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي فلا تمدحوا أنفسكم وتنسبوها إلى التقى والصلاح على سبيل الإعجاب، فإن النفس خسيسة، إذا مدحت اغترت وتكبرت، وإذا كان الله أعلم بأحوالكم فأي حاجة إلى تزكية النفس؟ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن، فاكتفوا بعلمه تعالى عن علم الناس، وبجزائه عن ثناء الناس، وهذا إذا كان بطريق الإعجاب، أو للرياء، وأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة بفضل الله تعالى وتوفيقه، ولم يقصد به

التمدح، لم يكن من المزكين أنفسهم، فإن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر لله تعالى.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾؟ عن اتباع الحق، والثبات عليه، قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه، فعيَّره بعض المشركين، وقالوا: أتركتَ دين الأشياخ؟ قال: إني خشيت عذاب الله!! فضمن له الرجل أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطاه بعض ماله، فارتدَّ وأعطى للذي عيَّره بعض الذي ضمن له من المال، ومنعه تمامه.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أي شيئاً قليلاً مما تعهَّد له به من المال. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي قطع العطاء، من قولهم أكدى الحافِرُ إذا بلغ الكُدْية، أي الصلابة من الأرض، كالصخرة، وقيل: نزلت في العاص بن وائل، والأول أشهر.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾؟ أي أعند هذا الكافر علم بالأمور الغيبية، حتى يعلم أن صاحبه يحمل عنه العذاب؟.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي حقوقه تعالى أي وفَّىٰ وأتم وبالَغَ بالوفاء بما عاهد الله تعالى، وتقديم موسى لما أن صحفه التي هي التوراة أشهر عندهم.

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ أَلَّا تَزِرُ ﴾ أي لا تؤاخذ ﴿ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي لا تحمل نفس ذنب غيرها، ولا تُعاقب بجرمٍ فعله أحد غيرها، إلاَّ إذا كان آمراً به.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أي ليس للإنسان إلا عمله وسعيه، وأما شفاعة الأنبياء والملائكة، ودعاء الأحياء للأموات، وصدقتهم عنهم، وغير ذلك من الأمور النافعة للإنسان، مع أنها ليست من عمله قطعاً، فهي ثمرة الإيمان والصلاح، وهذا فضل من الله على المؤمن، ويشهد له ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أمي تُوفيت، أينفعها إنْ تصدَّقتُ عنها؟ قال: «نعم»[1] وما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت، فلكون الناوي له كالنائب عنه.

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ أي يعرض عليه، ويُكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه، وفيه بشارة للمؤمنين، لأنهم يرون أعمالهم الصالحة، فيفرحون، وعقاب للكافرين، لأنهم يرون ويحزنون، فإن قيل: العملُ كيف يرى؟ قيل: على صورة جميلة أو قبيحة، أو مجاز عن الثواب والعقاب.

﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٥/٢٨٩ ورواه مسلم رقم ١٦٣٠ ولفظه عن أبي هريرة أن رجلاً قال للنبي ﷺ «إن أبي مات ولم يوص، أفينفعه أن أتصدَّق عنه؟ قال: نعم».

﴿ ثُمَّ يُجْزَلهُ ﴾ أي يجزى الإنسان سعيه ﴿ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي الأتم والأكمل.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي انتهاء الخلق، ورجوعهم إليه تعالى، لا إلى غيره، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ﴾ والمخاطب بهذا إمّا عامٌّ، تقديره: وإلى ربك أيها السامع، فعلى هذا فهو تهديد للمسيء، وحثٌّ للمحسن، وإما الرسول ﷺ فعلى هذا، ففيه تسلية له ﷺ فالمعنى: لا تحزن فإن إلى ربك المنتهى والرجوع، فيجازيك على صبرك أحسن الجزاء.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغمَّ، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى.

وقال مجاهد: أضحك المؤمنين، وأبكى الكافرين في العقبى.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيرهُ، فإن أثر القاتل نقض البنية، وإنما يحصل الموت عنده، بفعل الله تعالى على العادة، وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ أي تُدفق في الرحم، وفيه تنبيه على كمال القدرة، لأن النطفة متناسبة الأجزاء، يخلق الله تعالى

منها أعضاءً مختلفة، وطباعاً متخالفة، وخلق الذكر والأنثى أعجب، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء، وإنما هو بقدرة الله، لا بفعل الطبيعة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي الإحياء بعد الموت، وفاءً بوعده، وهو قول أكثر المفسرين، كقوله تعالى: ﴿اللهُ الذَّي خَلَقَكُمْ ثم رَزَقكُمْ، ثم يُميتُكم ثم يُحْييكُمْ﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي أغنى الإنسان ثم رضَّاه بما أعطاه، قال ابن عباس: أعطى فأرضى. وقيل المعنى: أغنى من شاء، وأفقر من شاء[1]، وفيه إشارة إلى فساد قول بعض الناس، من أن الغنى بكسب الإنسان وجهده، أو ببخته وطالعه.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحرِّ، وكانت خزاعة تعبدها، سنَّ لهم عبادتها أبو كبشة رجلٌ من أشرافهم.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) هذا قول ابن زيد ثم قرأ: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسّع على من يشاء، ويضيّق على من يشاء. أقول: ولعل هذا القول أرجح، للتناسق البديع بين الآيات ﴿أضحك وأبكى﴾ و ﴿أمات وأحيا﴾ فيكون معنى ﴿أغنى وأقنى﴾ أي أغنى وأفقر، فيتم التناسق بين الآيات، والله أعلم.

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ وهم قوم هود عليه السلام، وعاد الأخرى عاد إرم.

﴿ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ ﴾.

﴿ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴾ أي ما أبقى أحداً من الفريقين، بل أهلكهم ودمَّرهم عن بكرة أبيهم.

﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ ﴾.

﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ ﴾ أي أهلكهم من قبل إهلاك عادٍ وثمود ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴾ أي أظلم من عاد وثمود، لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه، وينفِّرون الناس عنه، ثم عتوهم على الله تعالى بالمعصية والطغيان، وما أثَّر فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة.

﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ ﴾.

﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ ﴾ هي قرى قوم لوط، ائتفكت بأهلها أي انقلبت بهم ﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي أسقطها إلى الأرض، بعد أن رفعها إلى السماء، وقيل: كانت عماراتهم مرتفعة، فأهواها بالزلزلة.

﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ ﴾.

﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ من فنون العذاب، وفيه من التهويل ما لا غاية وراءه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ ﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي تُشكِّك، والخطاب لكل إنسان مشرك، أي فبأي نعم الله، الدالة على وحدانيته وقدرته، تشكّك أيها الإنسان وتكذّب؟، وإسناد تتمارى إلى الواحد، باعتبار تعدده، بحسب تعدد متعلقه، وتسمية الأمور المعدودة آلاء، مع أن بعضها نِقَم، لما أنها أيضاً نِعم، من حيث إنها نصرةٌ للأنبياء، والمؤمنين، وفيها عظات وعبر للمعتبرين.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي ما ذُكر من أخبار المهلكين، إنذار من قبيل الإنذارات المتقدمة، التي سمعتم عاقبتها، وهذا الرسول منذر من المنذرين الأولين علمتم به.

﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ أي دنت الساعة، الموصوفة بالدنو في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وقعت الواقعة﴾.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي ليس لها نفس قادرة على كشفها وردِّها إذا غشيت الخلق.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن العظيم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً وعناداً!!.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً مع كونه أبعد شيءٍ من ذلك؟ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حزناً على ما فرَّطتم من شأنه، وخوفاً من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة.

﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ أي لاهون غافلون، أو مستكبرون، من سَمَدَ البعيرُ إذا رفع رأسه، قال الراغب: السامدُ: اللاهي الرافع رأسه، والسمود: اللهو. قيل: كان المشركون إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء واللهو ليشغلوا الناس عن استماعه.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩﴾ أي اسجدوا لله العظيم الجليل الذي خلقكم، وخصوه بالعبادة بدل أن تسخروا وتضحكوا، فأمامكم أهوال وشدائد، لا ينجي منها إلا الإيمان، والخضوع والخشوع للرحمن!!.

والصلاة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»

* * *

سورة القمر

مكية وهي خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾.

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي قربت القيامة، التي كل يوم يزداد قربها ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي انشقَّ نصفين، وعن ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي القمر[1].

وعن عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه سينشق يوم القيامة، ويردُّه قوله تعالى:

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

(١) قال ابن الجوزي: إن قوماً شذُّوا فقالوا: سيشنقُّ يوم القيامة، وهذا القول الشاذُّ لا يقاوم الإجماع، ولأن قوله تعالى: ﴿وانشقَّ﴾ لفظٌ ماضٍ، وحملُه على المستقبلِ يفتقر إلى قرينة، وليس ذلك موجوداً، وفي قوله سبحانه ﴿وإن يروا آيةً يعرضوا﴾ دل على أنه قد حدث ذلك. اهـ من زاد المسير ٨/ ٨٨.

والجمهور على الأول، وهو المروي في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه «أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر مرتين»[1] ولا يقال: لو انشق لما خفي على أهل الأقطار، لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم، وأنه حصل في الليل، ومعظم الناس نيام وغافلون، ومما هو المشاهد أن كسوف القمر وغيره يحدث في السماء، ولا يتحدث به إلا بعضُ الناس، ولا علم عند غيرهم بذلك، والمؤرخون تركوه لأنهم قالوا إنه مثل خسوف القمر، والقرآن أثبت وأدلّ دليل، وأقوى مثبتٍ له، وإمكانه لا يُشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق، فيجب اعتقاد وقوعه.

﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ أي وإن ير المشركون معجزة واضحة ساطعة، دالة على صدق الرسول، يعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا سحر مستمر، مطرد دائم، يأتي به على مر الزمان، وقولهم ﴿مستمر﴾ يدل على أنهم رأوا قبله آيات أخر مترادفة، ومعجزات متتابعة، حتى قالوا ذلك.

﴿وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾.

﴿وَكَذَّبُواْ﴾ أي الرسول ﷺ، وما عاينوه مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات، كما كذبوا بانشقاق القمر ﴿وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ التي زينها الشيطان لهم، وقالوا سحر أعيننا، والقمرُ بحاله[2]، وذكرُهُم بلفظ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٧/ ١٨٢ ومسلم رقم ٢١٥٩ وتتمة الحديث «حتى رأوا حِرَاءَ بينهما».

(٢) طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزة جلية، تدل على صدق نبوته، وخصُّوا بالذكر أن يشقَّ لهم القمر، وأعطوه العهد والميثاق على أن يؤمنوا برسالته، ويتبعوه إن أجابهم إلى ما طلبوا، فدعا رسول الله ﷺ ربه فأجاب الله دعاءه وانشق القمر فلقتين وكانت ليلة بدر، فجعلوا يعركون أعينهم وينظرون فيرونه منشقاً إلى نصفين، نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيقعان، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: =

الماضي، للإشعار بأنها من عاداتهم القديمة، من ردِّ الحقِّ بعد الظهور ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمر من الأمور مستقر، أي منتهٍ إلى غاية، يستقرُّ عليها لا محالة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ أي في القرآن ﴿مِّنَ ٱلْأَنبَآءِ﴾ أي أنباء القرون الخالية، الذين كذبوا رسلهم وعاقبتهم الوخيمة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ما فيه واعظ لهم وزاجر عن التمادي في الباطل، وهو أنباء المهلكين بسبب التكذيب.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي هذا القرآن العظيم، حكمة بالغة من ربِّ العزة والجلال ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾؟ أي فماذا تنفع الإنذارات، والزواجر، عن قوم أصمُّوا آذانهم عن سماع كلام الله، وهو الحكمة البالغة؟ فالمراد بالنُّذُر الإنذارات، والتخويف بالمواعيد.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأن الإنذار لا يؤثر فيهم حينئذ، فمن ينصح شخصاً ولا يؤثر فيه النصح، يعرض عنه ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ أي يوم يدعو

= سحر محمد أعيننا!! فقال أبو جهل: اصبروا حتى يقدم علينا المسافرون، فإن رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، وإلا فهو سحر، فلما قدم المسافرون سألوهم فقالوا: رأيناه انشق في الليلة الفلانية، وفزعنا من ذلك، فقال أبو جهل اللعين والمشركون معه: سحر محمد الناس جميعاً، وهذا سحر مستمر أي دائم، فأنزل الله: ﴿وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾.

إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ أي منكر، فظيع، تنكره النفوس، لعدم العهد بمثله، وهو هول القيامة.

﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧﴾.

﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ خشوعُ الأبصار: سكونُها على حال لا ينقلب يمنة ويسرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡ﴾ وهو كناية عن الذلة والهوان، لأن ذلة الذليل، وعزة العزيز، تظهران في عيونهما ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ أي من القبور ﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة، والجراد مَثَلٌ في الكثرة.

﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾.

﴿مُّهۡطِعِينَ﴾ أي حيارى، فزعين، مسرعين، مادِّي أعناقهم ناظرين ﴿إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ الذي يدعوهم إلى الحشر، أي إلى صوت الداعي ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ أي صعب شديد، وفي إسناد القول إلى الكفار، تلويحٌ بأن المؤمنين ليسوا كذلك، بل هو سهل يسير عليهم كقوله تعالى: ﴿على الكافرين غير يسير﴾.

﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾.

﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ أي فعل التكذيب قبل تكذيب قومك، قوم نوح ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ أي كذبوا عبدنا نوحاً شيخ الأنبياء عليهم السلام ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ﴾ أي لم يقتصروا على مجرد التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أي وزُجر عن التبليغ، بأنواع الأذية، من زجرتُ العبدَ إذا نهرته عن فعل شيء، ولم يكتفوا بذلك بل توعَّدوه بالقتل، رمياً بالحجارة فقالوا: ﴿لَئِنْ لم تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتكونَنَّ مِنَ المَرْجُومين﴾.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ أي فانتقم لي منهم، وذلك بعد يأسه منه، وسرعان ما استجيب الدعاء، قال تعالى:

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصبٌّ بقوةٍ وغزارة، وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار، وشدة انصبابها، قيل: لم ينقطع المطر أربعين يوماً.

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي جعلنا الأرض كلها، كأنها عيونٌ منفجرة ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ أي ماء السماء، وماء الأرض، والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين، لم يكن بطريق المجاورة والتقارب، بل بطريق الاختلاط والاتحاد ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي على حالٍ قد قدَّرها الله من الأزل، وقضاها بإهلاك المكذبين غرقاً، ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين، فأهلكهم الله بمطلوبهم، بالماء الذي به حياة البشر.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ ﴾ أي أخشاب عريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ ومسامير، جمع دسار، والدَّسْرُ: هو الدفع الشديد بقهر.

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا، أي محفوظة بحفظنا ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي كُفر به، فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام، لأنه كان نعمة كفروها.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ﴾ أي السفينة أو حادثة الطوفان ﴿ ءَايَةً ﴾ يعتبر بها من يقف على خبرها، وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة، وقيل: على الجودي، دهراً طويلاً ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي هل من معتبرٍ بتلك الآية الجديرة بالاعتبار؟ وأصله مذتكر، روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ ﴿فهل من مذّكر﴾، فردَّها عليَّ يقول ﴿فَهلْ مِنْ مُدَّكر﴾[1].

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾؟ استفهام تعظيم ووعيد، أي كان على كيفية هائلة، لا يحيط بها الوصف، والنُّذُر: أي الإنذارات التي فيها تخويف.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ جملةٌ قسميَّةٌ، وردت في أواخر القصص الأربع، تقريراً لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنباءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ﴾؟ وتنبيهاً على أن كل قصة منها، مستقلة بإيجاب التذكر والتدبر، كافية في الازدجار، أي وبالله لقد سهلنا القرآن لِقومك، بأن أنزلناه على لغتهم، وشحناه بأنواع المواعظ والعبر، وصرَّفنا فيه من الوعيد والوعد، للتذكر والاتعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه، أي فهل من معتبر ومتعظ بما فيه من العبر والمواعظ؟.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/٦١٨.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أي هود عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له، دوماً للاختصار، ومسارعة إلى ما فيه بيان الازدجار، من العذاب الأليم، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ لتوجيه قلوب السامعين، نحو الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذكره لتهويله وتعظيمه، كأنه قيل: كذبت عاد فهل سمعتم كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ ﴾.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أي أرسلنا إليهم ريحاً باردة، شديدة الصوت، في يوم مشؤوم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي استمرَّ شؤمه، أو مستمر عليهم إلى أن أهلكهم الله.

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ ﴾.

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ ﴾ أي تقلعهم عن أماكنهم، روي أنهم دخلوا الشِّعاب، والحفر، فنزعتهم الريحُ وصرعتهم موتىٰ ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أي المنقطع عن مغارسه، وقوله تعالى:

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ تهويلٌ لهما وتعجيب من أمرهما، أي ألم يكن هائلاً فظيعاً؟.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متعظ ومعتبر بزواجر

القرآن؟ وفائدة التكرار، أن يجدِّد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين، ادكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تيقظاً وانتباهاً، إذا سمعوا الحثَّ على ذلك، وهذا حكمةُ التكرار في قوله تعالى: ﴿فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾؟ وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكذلك تكرار القصص في أنفسها، لتكون العبرةُ حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسيَّة في كل أوان.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ أي الإنذارات والمواعظ التي سمعوها من صالح عليه السلام، أو بالرسل عليهم السلام، فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل، لاتفاقهم على أصول الشرائع.

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ أي واحداً من جنسنا من آحاد الناس، لا من أشرافهم ﴿ إِنَّآ إِذًا ﴾ أي على تقدير اتباعنا له ﴿ لَّفِي ضَلَٰلٍ ﴾ عن الصواب ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي جنون، فإن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل.

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ ﴾ أي الوحي ﴿ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ وفينا من هو أحق منه بذلك؟ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي بطر متكبر، حمله بطره على التعظم علينا بما ادعاه، يقال: أشِرَ أَشراً، أي بَطِر وتكبَّر.

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام، وعداً له، ووعيداً لقومه، والمراد بالغد وقت نزول العذاب،

والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده، أي سيعلمون البتة عن قريب، من الكذاب الأشر؟

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي مخرجوها من الصخرة حسبما سألوا، امتحاناً لهم، فانتظرهم وتبصَّرْ ما يصنعون؟ ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذيَّتهم فإن الله ناصرك عليهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي مقسوم لها يوم، ولهم يوم، و «بينهم» لتغليب العقلاء ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي يحضره صاحبه في نوبته.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَنَادَوْا﴾ نداء المستغيث ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ هو «قدار بن سالف» كان أشجعهم ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة، والتعاطي: تناول الشيء بتكلف.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي صيحة جبريل ﴿فَكَانُوا﴾ فصاروا ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي كالشجر اليابس، الذي يتخذه من يعمل الحظيرة، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي هل من معتبر ومتعظ؟

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أي ريحاً تحصبهم، أي ترميهم بالحصباء وهي الحجارة ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ وهو آخر الليل وقت السحر.

﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي إنعاماً منا عليه، فكان الإنجاء فضلاً منه تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة، وذلك الإنجاءُ كان فضلاً، كما أن ذلك الإهلاك كان عدلاً، والعضو الفاسد يُقطع.

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴾ فكذبوا بالإنذار والوعيد متشككين فيه.

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾ أي قصدوا الفجور بهم ﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي أعمينا أعينهم فجعلناهم لا يبصرون، روي أنهم لما عالجوا باب لوط ليدخلوا، قالت الملائكة: خلِّهم يدخلوا إنَّا رُسُل ربك لن يصلوا إلينا،

فصفقهم جبريل عليه السلام صفقة، فتركهم يترددون، ولا يهتدون إلى الباب عمياناً ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فقلنا لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا عذابي وإنذاري الذي كنتم به تستهزئون.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ حكاية لما قيل لهم، من جهة الله تعالى، تشديداً للعذاب.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي هل من متَّعظٍ ومعتبرٍ؟.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ صدرت قصتهم بالتوكيد القسمي، لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لعظم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهول ما لاقوه من العذاب، والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك، أي وبالله لقد جاءتهم الإنذارات.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ وهي الآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي لا يُغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾؟ إكفاركم يا معشر العرب خير من أولئك قوة، وشدة وعدة ومكانة؟ والمعنى: أنه أصابهم ما أصابهم، مع ظهور خيرتهم منكم، فيما ذكر، فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم أسوأ حالاً منهم، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾؟ انتقال من التبكيت إلى توبيخ آخر، أي أم لكم براءة وأمن من العذاب في الكتب السماوية المنزَّلة ولذلك تصرون على ما أنتم عليه.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾؟ تبكيت آخر، أي بل أيقولون نحن جمع كبير، واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد وصحبه؟.

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾ رد وإبطال لذلك أي سيهزم جمعهم البتة ﴿ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي الأدبار، والتوحيد لإرادة الجنس، وهو من دلائل النبوة، وقد وقع ذلك يوم بدر، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو في قبةٍ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك، ووعدك، اللهم إن شئتَ لم تُعبد بعد اليوم أبداً، ووَثَب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبَرَ﴾[1].

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٦١٩.

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد أصل عذابهم، وهذا من طلائعه، يعني: إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة، فإتمامها بالعذاب الدائم ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ أي في أقصى غاية من الداهية والمرارة.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ في هلاك ونيران مسعَّرة.

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يجرُّون ﴿ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ ويقال لهم ﴿ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي حر النار وألمها، و «سقر» عَلَمٌ لجهنم، واسم من أسمائها.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي ملتبساً بقدر معيَّن، اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين، أو مقدر مكتوب في اللوح قبل وقوعه. عن عبد الله بن عمر وابن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادر الخلائق كلها، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»(١).

﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ أي كلمة واحدة سريعة التكوين، وهي قوله

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٣ في القَدَر، والترمذي رقم ٢١٥٧ في القَدَر أيضاً.

تعالى: كن، فإذا أراد شيئاً قال له: «كن» فهنالك شيئان: الإرادة، والقول، والإرادة قدَرٌ، والقول قضاء ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في اليسر والسرعة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباههم في الكفر من الأمم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ يتعظ بما صنع بهم.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ من الكفر والمعاصي مكتوب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ في ديوان الحفظة.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ من الأعمال مسطورٌ فيها؛ نظيره قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرةً وَلاَ كَبِيرةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[1]؟

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في حدائق وبساتين وأنهار جارية.

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ أي مقربين

---

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

عنده، عند مليك لا يُقادر قدر ملكه وسلطانه، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته، سبحانه ما أعظم شأنه، والعندية عندية منزلة وكرامة لا مسافة ومماسة، والله أعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»

* * *

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

مكية وآيها ست وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴾ لما عدَّد في السورة السابقة، ما نزل بالأمم السالفة من النقم، عدَّد في هذه السورة الكريمة، ما أفاض على كافة الأنام، من فنون نعمه الدينية، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب الشكر، وبدأ بتعليم القرآن، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ لأنه أعظم النعم شأناً، وأرفعه مكانة، كيف لا وهو مدار السعادة الدينية، والدنيوية، جمع الله فيه العلوم والمعارف، وبيَّن فيه الهدى والضلال، وشرَّفه على سائر الكتب السماوية، فهو أفضلها وإمامُها، وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن، للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة، وقد اقتصر على ذكره تنبيهاً على أصالته، وجلالة قدره.

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ والجمل الثلاث أخبار مترادفة للرحمن وإخلاء الآخرين عن العاطف، لورودها على منهاج التعديد، كما

تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزَّك بعد ذل، كثَّرك بعد قلة، فما تنكر من إحسانه؟ والبيانُ هو التعبير عما في الضمير، وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه، بل منه ومن فهم بيان غيره أيضاً، إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن.

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾.

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ أي يجريان بحساب مقدَّر، في بروجها ومنازلها، بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول والأوقات، وتعلم السنون والحساب.

﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ ﴾.

﴿ وَٱلنَّجۡمُ ﴾ أي النبات الذي ينجم، أي يطلع من الأرض ولا ساق له، وقيل: نجوم السماء، والأول أظهر ﴿ وَٱلشَّجَرُ ﴾ الذي له ساق ﴿ يَسۡجُدَانِ ﴾ أي ينقادان له تعالى فيما يريد بها طبعاً، انقياد الساجدين من المكلفين طوعاً.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ ﴾.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ أي خلقها مرفوعة، محلاً ورتبة، حيث جعلها منشأ أحكامه، ومنزل أوامره، ومحل ملائكته، فنبَّه بذلك على كبرياء شأنه، وعظم ملكه وسلطانه ﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ أي شرع العدل، وأمر به بأن يُوفَّىٰ لكلِّ ذي حق حقه، والمراد به الميزان الذي يعرف به مقادير الأشياء، من وزن ومكيال ونحوهما، فالمعنى: خلقه موضوعاً على الأرض، حيث علق به أحكام عباده، من التسوية والتعديل، في أخذهم وإعطائهم، فالميزان نعمة، وعدمُ ظهور نعمته، لكثرته وسهولة الوصول إليه، كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما.

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي لئلا تطغوا فيه، ولا تجاوزوا الإنصاف وإنما قال: ﴿في الميزان﴾ ولم يقل في الوزن، ليشمل الأخذ والإعطاء، ولولا التساوي في الحقوق لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي قوّموا وزنكم بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوه، والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات، كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة، والثاني بمعنى المصدر، أي لا تطغوا في الوزن، والثالث للمفعول، أي لا تنقصوا الموزون؛ كرَّر لفظ الميزان، تشديداً للتسوية به، وتأكيداً للأمر باستعماله عدلاً.

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ أي خفضها وبسطها ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ أي للخلق ليستقروا عليها، وينتفعوا بما فيها من خيرات، بالزراعة، والبناء وإخراج المعادن.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به، من النعم التي لا تحصى ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ هي أوعية الثمر جمع كِمّ بكسر الكاف والكِمُّ وعاءُ الطلع، وغطاء النور، والجمع أكمام، ذكر تعالى النخل، لأنها أعظمها وأكثرها نفعاً، فهو غذاء كامل.

﴿ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلۡحَبُّ ﴾ هو ما يُتغذّى به، كالحنطة، والشعير ﴿ ذُو ٱلۡعَصۡفِ ﴾ هو ورق الزرع وقيل التبن ﴿ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴾ هو الريحانُ المعروف، ذو الرائحة الطيبة، والمراد به كل مشموم طيب الريح، كالورد، والياسمين، والفل، سمي ريحاناً لرائحته الطيبة الزكية (١).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى: ﴿للأنام﴾ وسينطق به قولهُ تعالى: ﴿أيها الثقلان﴾ والفاء لترتيب الإنكار، على ما فُصّل من فنون النعماء، الموجبة للإيمان والشكر، والتعرض لعنوان الربوبية، المنبئة عن المالكية، والتربية لتأكيد النكير، ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرهم بها، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه، كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية، وإما بإنكار كونه من الله تعالى، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه، كالنعم الدنيوية، أي فإذا كان الأمر كما فُصِّل، فبأي فردٍ من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان، مع أن كلاً منها ناطق بالحق، شاهدٌ بالصدق؟ كُرّرت هذه الآية في هذه السورة، في إحدى وثلاثين موضعاً، تقريراً للنعمة وتنبيهاً على

---

(١) ذكر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنواع النِّعم التي خلقها لعباده، فذكر الفاكهة أولاً، ونكّر لفظها ﴿فيها فاكهة﴾ لأن الانتفاع بها نفسها كالتفاح، والرمان، والعنب، والكمثرى إلخ، ثم ثنّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسَعَف، وجريد، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان، من بُرّ، وشعير، وكل ما له سنبل، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم، ليجمع بين اللذة بالغذاء، واللذة بالروائح الطيبة، فسبحان من أنزل القرآن بأفصح بيان!!.

وجوب شكر المنعم، والاعتراف له بالفضل والإحسان، ثم فصَّل هذه النعم الجليلة، وبدأ بخلق الإنسان؛ فقال:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ ﴾ الصلصالُ: الطينُ اليابسُ، الذي له صلصلة، وهو الصوت منه إذا نُقر ﴿ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ أي الطين المطبوخ بالنار، وهو الخزَفُ، وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام في أطوار وأدوار، من تراب، ثم جعله طيناً، ثم حَمَأً مسنُوناً، ثم صلصالاً، ولا اختلاف بين الآيات، لاتفاقهن معنى، فهي مراحل وأطوار.

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾ أي الجنَّ، أو أبا الجن إبليس ﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ من لهب صافٍ ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ بيان للمارج، فإنه في الأصل للمضطرب، من مَرَج إذا اضطرب.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله ممَّا أفاض عليكما من سوابغ النعم تكذبان يا معشر الجن والإنس؟.

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة، ربُّ مشرقَيْ الصيفِ، والشتاءِ، ومغربيهما.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ مما في ذلك من فوائد لا تحصى، من اعتدال الهواء، واختلاف الفصول، وحدوث ما يناسب كل فصل في وقته، وغير ذلك.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها، والمعنى أرسل البحر الملح، والبحر العذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي يتجاوران.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى، أو من الأرض، يعني أنَّ الماءين، من شأنهما أن يكون مكانهما واحداً، ثم إنهما بقيا في مكانين متميزين، فذلك برهان القدرة، على أن الماءين إذا تلاقيا لا يمتزجان في الحال، بل يبقيان زماناً، كالماء المسخَّن إذا غمس في ماءٍ بارد، إن لم يمكث فيه زماناً لا يمتزج بالبارد، لكن إذا زاد مجاورتها فلا بد من الامتزاج ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر، بالممازجة وإبطال الخاصية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ليس منهما شيء يقبل التكذيب.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ اللؤلؤُ: الدُّرُّ، والمرجانُ: الخرزُ الأحمر، لمَّا التقيا وصارا كالشيء الواحد ساغَ أن يقال يخرجان منهما وظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من بعض الناس، ممن لا يوثق بقوله

أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح، والصواب أنه يخرج من بعضها كبعض أنهار الهند ثبت ذلك قطعاً.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي السفن الجارية المرفوعات الشراع، أو المصنوعات، اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال الشاهقة، جمع عَلَم وهو الجبلُ الطويل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ من خلق مواد السفن، والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها، وإجرائها في البحر، بأسباب لا يقدر على خلقها إلا الله سبحانه وتعالى[1].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي على الأرض من الحيوانات، أو من الثقلين هالكٌ لا محالة.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ذاته عزَّ وجلَّ، والوجه يستعمل في العرف

---

(١) في الآية إرشاد وتنبيه إلى أن الفلك ـ أي السفن ـ في البحر، لا يملك أمرها في الحقيقة أحد، وكل الخلق مؤمنهم وكافرهم يعترف بالعجز والضعف، وينتظر رحمة الله عز وجل، فأحوالهم وأرواحهم في قبضة قدرة الله، وقد كانوا يقولون: لك الفُلْكُ ولك المُلْكُ، كما قال سبحانه عنهم: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ ثم هم بعد ذلك ينسون نعمة الله!!.

لحقيقة الإنسان ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي ذو الاستغناء المطلق، والفضل التام، وهذه من عظائم صفته تعالى، كما رُوي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام»[1] ومعنى ألظُّوا، أي الزموا وأكثروا من هذا الدعاء، وفي وصفه سبحانه بعد ذكر فناء الخلق، وبقائه تعالى، إيذان بأنه يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً آثار لطفه وكرمه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ فإحياؤهم بالحياة الأبدية، والإثابة بالنعيم السرمدي، أجلُّ النعم، وأعظم الآلاء، قال يحيى بن معاذ: حبَّذا الموتُ، فهو الذي يقرِّب الحبيب إلى الحبيب.

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ قاطبة ما يحتاجون إليه، في ذاتهم، وموجوداتهم وسائر أحوالهم سؤالاً مستمراً، بلسان المقال، أو بلسان الحال، فإنهم كافة لو انقطع ما بينهم، وبين العناية الإلَهية من العلاقة، لم يشمُّوا رائحة الوجود أصلاً، فهم في كل آن مستمرون على الاستدعاء والسؤال، والمراد من السؤال ما يدلُّ على الحاجة، نطقاً كان أو غيره ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي في كل وقت من الأوقات ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ من الشؤون التي من جملتها إعطاء ما سألوا، فإنه تعالى لا يزال ينشىء أشخاصاً ويفني آخرين، ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكَم

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٢٣. والحاكم في المستدرك ٤٩٨/١ وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد.

والمصالح، روي أنه ﷺ تلاها فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويَضَع آخرين[1].

وفيه ردٌّ على اليهود حيث يقولون: إن الله لا يقضي يوم السبت.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع مشاهدتكم لما ذُكر من إحسانه.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة، عند انتهاء شؤون الخلق، فعبَّر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل، وقيل: هو مستعار من قول المتهدد لصاحبه: سأفرغ لك، أي سأتجرد للإيقاع بك، والمراد التوفر على النكاية فيه، والانتقام منه ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هما الإنس والجان لثقلهما على الأرض.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟ التي من جملتها التنبيه على ما سيلقون يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب والعذاب.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ هما الثقلان، خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير، ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة، فخوطبوا بما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٣.

ينبىء عن ذلك، لبيان أن قدرتهم لا تفي بما كُلِّفوه ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي إن قدرتم ﴿أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أن تهربوا من قضائي، وتخرجوا من ملكوتي، ومن أقطار السماوات والأرض ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ منها، وخلِّصوا أنفسكم من عقابي ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل بعيد، وهذا الخطاب الظاهر أنه في الآخرة، روي أن الملائكة تحيط بجميع الخلائق، فإذا رآهم الإنس والجن هربوا، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدَّم تفسيره.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ هو لهب خالص، وقيل: المختلط بالدخان ﴿مِّن نَّارٍ﴾ والتنكير للتفخيم ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي دخان، وقيل صُفْرٌ مذاب يصبُّ على رؤوسهم، ويحتمل أن يكون للاختصاص، فالنار للإنس، والنحاس للجن ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي لا تمتنعان، ولا يكون لهم ناصر منه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ فإن بيان العاقبة لطف ونعمة، والانتقام من الكفار من عدد الآلاء.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انصدعتْ، وانفكَّ بعضُها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ أي كدهن

الزيت، كما قال تعالى: ﴿كالمهل﴾ وهو عكر الزيت، وجواب إذا محذوف، أي يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ مع عظم شأنها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ (٣٩)﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم تنشق السماء ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهم يُعرفون بسيماهم، وذلك حينما يخرجون من قبورهم، ويحشرون إلى الموقف على اختلاف مراتبهم، وضمير ذنبه للإنس لتقدمه رتبة، أي لا يُسأل أحد من المجرمين عن ذنبه، لأنهم يُعرفون بسيماهم، فلا يحتاج إلى سؤالهم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠)﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ مع كثرة منافعها، فإن الإخبار بما ذكر مما يزجرهم عن الشر، المؤدي إليه.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ (٤١)﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي يُعرفون بسواد الوجوه، وزرقة العيون، وبما يعلوهم من الكآبة والحزن ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي يجمع بين نواصيهم وأقدامهم، في سلسلة من وراء ظهورهم، وقيل: تسحبهم الملائكة؛ تارة تأخذ بالأقدام، وتارة بالنواصي.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٤٣)﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي هذه النار التي كان يكذب بها الأشقياء المجرمون.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي بين النار التي يحترقون بها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿ءَانٍ﴾ بلغ النهاية في الحرارة، يُصبُّ عليهم، ويُسقون منه، وقيل: إذا استغاثوا من النار، أغيثوا بالحميم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد أشير إلى كون هذه الأمور من الآلاء.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ شروع في تعداد الآلاء الفائضة عليهم في الآخرة، أي ولمن خاف قيامه بين يدي ربه جنتان، واعلم أن ما عُدِّد فيما بين هذه الآية، وبين خاتمة السورة الكريمة، من فنون الكرامات، كما هي في أنفسها آلاء جليلة، واصلة إليهم في الآخرة، كذلك حكاياتها الواصلة إليهم في الدنيا آلاء عظيمة، لكونها داعية لهم إلى السعي في تحصيل ما يؤدي إلى نيلها، من الإيمان والطاعة، وأن ما فُصِّل من فاتحة السورة إلى قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، وبين هذه الآية، من الأحوال الهائلة التي ستقع في الآخرة؛ فليست هي من قبيل الآلاء، وإنما الآلاء حكاياتُها، الموجبة للانزجار عما يؤدي إلى الابتلاء بها، من الكفر والمعاصي، وقوله تعالى: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، يوم يقوم الناس لربِّ العباد، وإضافته إلى الرب للتفخيم، وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ أي جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجني، فإن الخطاب للفريقين، أو

لكل واحد جنتان: جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يثاب بها، وأخرى يُتفضل عليه بها.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ صفة لـ «جنتان» وما بينهما اعتراض، والأفنان جمع فَنَن، أي ذواتا أغصان، وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر، وتمد الظل.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ صفة أخرى لجنتان، أي في كل واحدة منهما عينٌ تجري، كيف يشاء صاحبها، وعن ابن عباس والحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيمُ، والأخرى السلسبيلُ.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: غريب، ومعروف.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ ﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد،

والاتكاءِ من الهيئات الدالة على صحة الجسم، وفراغ القلب، لأن العليل يضطجع، أو يستلقي أو يستند على حسب ما قَدَر عليه، وأما الاتكاء فهو علامة الرفاهية والنعيم ﴿ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي فرش وثيرة بطائنها من ديباج، وهو الحرير السميك، المزيَّن باللؤلؤ، وهذا يدل على نهاية الرفاهية، ومتى كانت بطائنها كذلك، فما ظنك بظهائرها؟ ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ أي ما يجتنى من أشجارها من الثمار، قريب يناله القائم، والقاعد، والمضطجع.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ ﴾ أي في الجُنان والقصور ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي نساء يقصرن أبصارهنَّ على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، إنه تعالى لم يذكر النساء، إلا بأوصاف، تارة حور عين، وتارة عرباً أتراباً، وتارة قاصرات الطرف، إشارة إلى تخدّرهنَّ، وإعظاماً لهنَّ في أعين الرجال ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ أي لم يمسَّ الإنسيات أحد من الإنس، ولا الجنّيات أحد من الجن قبل أزواجهن، وفيه دليل على أن الجن يُطمثون، والطمثُ: الجماعُ.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ صفة لقاصرات الطرف، أي مشبهات بالياقوت، في حمرة الوجنة، والمرجان، أي صغار الدُرِّ في بياض البَشَرة وصفائها، فإن صغار الدُرِّ أنصع بياضاً من كباره، ولا يبعد أن يقال: هو مؤكدات لما مضى، لأنهن لما كنَّ ممتنعات عن الاجتماع بالإنس والجن، فهن كالياقوت في معدنه، والمرجان في صدفه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾؟ أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي ومن دون تلك الجنتين، الموعودتين للخائفين المقربين، جنتان أخريان، لمن دونهم من أصحاب اليمين، ولا شكَّ أن مقام السابقين المقربين أعظم وأرفع.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ صفة لـ «جنتان» أي خضراوان تضربان إلى السواد، من شدة الخضرة، وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النباتات والرياحين.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي فوارتان بالماء، والنَّضْخُ أكثر من النضح وهو الرش.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ عطف الأخيران لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، ولِلرمان فاكهة ودواء.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ ﴾ في الجنان ﴿ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ فاضلات الأخلاق، وحسان الخَلْق والخُلُق.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ أي مخدَّرات، يقال: امرأة مقصورة الطرف، قيل: إن الخيمة من خيامهن درة مجوَّفة.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ أي لم يغشهنَّ ولم يجامعهن أحد قبل أزواجهن.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ (٧٦) ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ أي مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة، والوسادة هي المخدَّة ﴿ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ العبقري منسوب إلى العبقر، وهي الطنافس الثخان، جمع عبقرية، أي طنفسة سميكة مزينة بأنواع النقوش، قال الخليل: كلُّ شيء نفيس يسمى عند العرب عبقرياً، ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أَرَ عبقرياً يَفْري فَرْيه» [١].

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري ١١/ ٣٦٥ ولفظه «بينما أنا نائم رأيتني على قليب ـ أي بئر ـ عليها دلوٌ، فنزعتُ منها ما شاء الله، فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليريحني، فنزع ذنوبين ـ أي دَلْوين ـ وفي نزعه ضعف، واللهُ يغفر له، فجاء ابن الخطاب فأخذها منه، فلم أر عبقرياً من الناس، يفري فريه، حتى رَوِيَ الناسُ، =

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى، فيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة، من آلائه الفائضة على الأنام، أي تعالى اسمه الجليل، وارتفع عما لا يليق بشأنه من العجز والضعف وتضييع أجر العاملين ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ أي ذو العظمة والكبرياء، والفضل والإكرام لأوليائه، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن»

* * *

= وضَربوا بِعَطَنٍ» اهـ أي حتى استقى الناس، وأرووا إبلهم، والحديث إشارة إلى الفتوحات الإسلامية التي كانت في زمن عمر، وإلى مدة خلافتهما، فقد قصرت مدة خلافة أبي بكر، وطالت مدة خلافة عمر، حتى تيسرت له الفتوح، وأفاء الله عليه الغنائم، وكنوز كسرى وقيصر.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكية وهي ست وتسعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ ﴾.

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ أي إذا قامت القيامةُ، وذلك عند النفخة الثانية، والتعبيرُ عنها بالواقعة، للإيذان بتحقق وقوعها لا محالة، كأنها واقعة في نفسها، مع قطع النظر عن الوقوع، كأنه قيل حدثت الحادثة، والواقعةُ اسم للقيامة، وانتصاب إذا بمضمر ينبىء عن الهول، كأنه قيل: إذا وقعت الواقعة، يكون من الأهوال، ما لا يفي به المقال.

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ ﴾.

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفسٌ تكذب على الله، ولا تكذّب في نفيها كما تكذب اليوم.

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ ﴾.

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أي هي خافضة لأقوام، رافعةٌ لآخرين، وهو تقرير لعظمتها، وتهويل لأمرها، فإن الوقائع العظام شأنها كذلك.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ ﴾.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴾ أي زُلزلت زلزالاً شديداً، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء، وجبل، ويندكُّ كل صرح وعمران.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ ﴾.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴾ أي فُتِّتَتْ حتى صارت مثل السويق الملتوت، أو سيقت وسيِّرت، من بسَّ الغنم إذا ساقها، كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾.

﴿ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦ ﴾.

﴿ فَكَانَتۡ ﴾ أي فصارت بسبب ذلك ﴿ هَبَآءٗ ﴾ أي غباراً ﴿ مُّنۢبَثّٗا ﴾ أي منتشراً، متطايراً في الجوّ.

﴿ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧ ﴾.

﴿ وَكُنتُمۡ ﴾ خطاب لجميع الخلائق، السابقين واللاحقين ﴿ أَزۡوَٰجٗا ﴾ أي أصنافاً ﴿ ثَلَٰثَةٗ ﴾ فكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود أو في الذكر فهو زوج، صنفان في الجنة، وصنف في النار، كما وضحته الآية الكريمة.

﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ ﴾.

﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾ وهم الذين يؤتون صحائف أعمالهم بالأيمان ﴿ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾ تعجيب من حالهم في السعادة، وتعظيمٌ لشأنهم، كأنه قيل: ما هم؟ وأي شيءٍ هم، في حالهم وصفتهم؟.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾؟! والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين، في الفخامة والفظاعة، كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، سُمُّوا أصحاب اليمين، لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ ولأنهم يُعطون كتبهم بأيمانهم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة، ولعل تأخير ذكرهم، مع كونهم أسبق الأقسام، وأقدمهم في الفضل، ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم، أي والسابقون إلى طاعة الله، هم السابقون إلى رحمته، وقيل: الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى السابقين ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ الذين قربت إلى العرش درجتهم، فهم في ظل العرش وجواره.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي كائنين في جنات نعيم، يستمتعون بما تشتهيه الأنفس.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هم جملة من الأولين، وهم الأمم السالفة، من

لدن آدم عليه السلام، إلى نبينا صلواتُ الله عليهم أجمعين، والثُلَّة: الأمة من الناس الكثيرة.

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أي من هذه الأمة، وقد روي مرفوعاً أن الأولين والآخرين ههنا، متقدمو هذه الأمة ومتأخروهم، وهذا ظاهر لأن الخطاب لا يتعلق إلا بالموجودين.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ الموضونة: المنسوجةُ بالذهب، المشبَّكة بالدر والياقوت، القوية اللحمة والسُّدَىٰ.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وهو وصفٌ لهم بحسن العِشرة، ومنتهى الأخلاق والآداب، أي إنَّ أحداً لا يستدبر أحداً.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يدور حولهم للخدمة ﴿ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي غلمان، مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم. قيل: هم أولاد أهل الدنيا، وقيل: أولاد الكفار خدَّام أهل الجنة، والصحيح أنهم ولدان خُلقوا في الجنة، لخدمة أهل الجنة، كالحور العين، والعربُ تسمي الغلام وليداً ما لم يحتلم، والأمة وليدة.

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ سميت إبريق لبريق لونها، وقيل: لأنها يُرى باطنها كما يرى ظاهرها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي خمر جارية من العيون.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي بسببها، وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي لا يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يختارونه ويأخذون خيره وأفضله.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي يتمنون ويحبُّون، كما ورد في الحديث «إنك لتنظر إلى الطير فتشتهيه، فيخرُّ بين يديك مشوياً»[١].

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ أي ويؤتون حوراً جميلات، واسعات العيون.

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ في الصفاء والنقاء الذي لم تُغيِّر لونَه الشمسُ والهواء.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه البيهقي، وانظر تفسير الحافظ ابن كثير ٤/٣٠٨.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي يفعل بهم ذلك كله، جزاءً بأعمالهم، أما الزيادة فلا يدركها أحد.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ أي باطلاً ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ أي لا يأتون ما هو سبب التأثيم، والمعنى: لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول، ولا فاحشاً من الكلام، فحياتهم كلُّها أُنسٌ وسرور، ومُتعةٌ ولذة.

﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِلَّا قِيلٗا﴾ أي إلاّ أن يقولوا ﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾أي أنهم يفشون السلام بينهم.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾؟! استفهام للتعظيم لحالهم، وكرامتهم في الجنة.

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ أي هم في سدر غير ذي شوك، لا كسدر الدنيا وهو شجر النبق، كأنه خُضد شوكُه أي قطع.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ الطلحُ: شجر الموز، وله أزهار كثيرة، طيبة الرائحة فإن قيل: ما الحكمةُ، وأية نعمة تكون في كونهم في سدر، وهو من

أشجار البوادي وله شوك[1]؟ أجيب: بأن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزاً، وله نفع لهم، أو لأنعامهم، والإشارة إلى جميع ما بينهما كما يقال: فلان مَلَك الشرق والغرب، أي وما بينهما، والأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، وورق السِّدر في غاية الصغر، وورق الطلح في غاية الكِبر، ففي الآية وقعت الإشارة إلى جميع الأشجار، نظراً إلى الأوراق، كما ذُكر النخيل والأعناب لشهرتهما عند العرب.

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ ممتد منبسط لا يتقلص، ولا يتفاوت الظلُّ، ولا ينقبضُ، لأنه ليس ظل الأشجار، بل ظلٌّ دائم يخلقه الله تعالى.

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ يسكب لهم أينما شاؤوا، وكيفما أرادوا بلا تعب، أو مصبوب سائل، يجري على الأرض، كأنه شبَّه ومثَّل حال السابقين في التنعم بأكمل ما يتصور لأهل المدن، ومثَّل حال أهل اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي، إيذاناً بالتفاوت بين الحالين.

﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ بحسب الأنواع والأجناس.

---

(١) روى البيهقي والحاكم أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرةً تؤذي صاحبها؟! فقال: وما هي؟ قال: السِّدرُ، فإن له شوكاً!! فقال رسول الله ﷺ: أليس الله يقول ﴿وسدرٍ مخضود﴾؟ خَضَد الله شوكه ـ أي نزعه وقطعه ـ فجعل مكان كل شوكةٍ ثمرةً، وإنَّ الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيها لون يشبه الآخر»!!.

﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ ﴾ في وقتٍ من الأوقات، كفواكه الدنيا، بل دائمة مستمرة دون انقطاع ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عن متناوليها بوجه من الوجوه، لقربها منهم.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفيعة القدر، أو مرفوعة على الأسرة، وقيل: الفرشُ: النساء، حيث يكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعها كونهنَّ على الأرائك، قال الله تعالى: ﴿هُمْ وأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُون﴾[(١)] ويدل عليه قوله تعالى بعده.

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي خلقناهنَّ خلقاً جديداً.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي كلما أتاهن أزواجهن، وجدوهن أبكاراً.

﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب، وهي المحبَّبة إلى زوجها، الحسنةُ التبعُّل ﴿ أَتْرَابًا﴾ مستويات في السنِّ، بنات ثلاث وثلاثين سنة، وكذا أزواجهن، لأنه لا هَرَمَ، ولا شيخوخة في الجنة.

---

(١) سورة يسٓ، آية: ٥٦.

﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ أي جعلناهن نساءً لأصحاب اليمين.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ أي هم أمة من الأولين، وأمة من الآخرين، هذا في أصحاب اليمين.

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ ؟! الشمال والمشأمة واحد، وهم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، والاستفهام للتهويل والتفظيع، أي وأصحاب الجحيم هل تدري ما هو حالهم.

﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ أي حرِّ نارٍ ينفذ في المسامِّ، والسموم ريح حارة تهب بالنهار فتمرض، أو تقتل.

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحۡمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحۡمُومٍ ﴾ أي من دخان أسود، وأصله من الحم، وهو الفحم هواؤهم الذي يهب عليهم سموم، وماؤهم الذي يشربونه حميم.

﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ لَّا بَارِدٍ ﴾ كسائر الظلال ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ فيه خير ما، نفيٌ لصفتي الظل عنه، يعني أنه ظل حار، وضار، لا نافع، ثم بيَّن تعالى بِمَ استحقوا ذلك العذاب، فقال:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ أي منعَّمين ومنهمكين في الشهوات، فلا جَرَم عُذّبوا بنقائضها.

﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي الذنب العظيم، وهو الشرك بالله، لأنه نقض عهد الميثاق.

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ ﴾ لغاية عتوهم ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾؟ أي هل سنُخلق مرة أخرى؟ وهو المرجع للإنكار، وتقييده بالوصف المذكور، وهو تحول أجسادهم إلى التراب والعظام النخرة، لتقوية الإنكار للبعث، بتوجيهه إليه في حالةٍ منافية له بالكلية، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت، وإن كان البدن على حاله.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾؟ يعنون أن بعث آبائهم الذين بَلُوا، أبعدُ من الوقوع.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ رداً لإنكارهم، وتحقيقاً للحق ﴿ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم.

﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿لَمَجۡمُوعُونَ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ هو ما وقّت الله به الدنيا، وهو يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ٥١﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ﴾ الخطاب للكفرة ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ أي الضالون عن الهدى، المكذِّبون بالبعث والجزاء.

﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ٥٢﴾.

﴿لَأٓكِلُونَ﴾ بعد دخول جهنم ﴿مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ مِنْ الأولى للابتداء، والثانية للبيان، أي مبتدئون الأكل من شجر هو الزقوم.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣﴾.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ أي بطونكم من شدة الجوع.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤﴾.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾ عقيب ذلك ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي الماء الحار الذي اشتدت حرارته.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ٥٥﴾.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ أي لا يكون شربكم شرباً معتاداً، بل يكون مثل شرب الهيم، وهي الإبل التي بها الهُيَام، وهو داءٌ يصيبها فتشرب ولا تَرْوىٰ، جمع أهيم، والمعنى: أنه يُسلَّط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم، فإذا ملؤوا منه بطونهم، سُلِّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم، فيشربون شرب الهيم.

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي هذا الذي ذُكِرَ من العذاب هو ضيافتُهم، فإذا كان نزلهم ذلك، فما ظنك بما لهم، بعدما استقرَّ لهم القرار في النار؟ وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى، فإن النزل معناه الضيافة، وهل الحميم والزقوم ضيافة فيها تكريم؟ فإن النزل للكرامة، وهذا العذاب للإهانة.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي نحن الذين خلقناكم أيها الناس، وأوجدناكم من العدم، فهلاَّ تصدّقون بالبعث والنشور؟.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾؟ أي ما تقذفون في الأرحام من النُّطف؟.

﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾؟ أي هل أنتم الذين تخلقونه وتصورونه بشراً سويّاً؟. ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾؟ له من غير دخل شيء فيه، فَلِمَ لا تصدقون على أنه يعيدكم؟.

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي قسمناه عليكم ووقّتنا موت كل أحد بوقت معين، حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنيّةُ على الحِكَم البالغة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت، أو يغيّر وقته، وإنَّا قادرون.

﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ أي أن نُذهبكم، ونأتي مكانكم بغيركم، في أسرع حين من الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من الخلق والأطوار، يعني إنا نقدر على الأمرين على الخلق ممَّا يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ هي خلقهم من نطفة ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتذكرون أنَّ من قَدَر عليها، قدر على النشأة الأخرى؟ فإنه أقل صنعاً لحصول المراد!! وفيه دليل على صحة القياس.

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ ذكر تعالى بعد دليل الخلق، دليل الرزق ﴿مَّا تَحۡرُثُونَ﴾ أي تبذرون حبَّه.

﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ﴾ أي تنبتونه ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون.

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ هشيماً، منكسراً، متفتتاً، بعد ما أنبتناه ﴿فَظَلۡتُمۡ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من سوء حاله، وتندمون على تعبكم فيه، والتفكُّهُ: التنعم بصنوف الفاكهة، وقد استعير للتفكه بالحديث، فإن قال معاند: نحن نحرث وهو بنفسه يصير زرعاً، لا بفعلنا، ولا بفعل غيرنا، نقول: لو سُلّم هذا الباطل، فما تقول في سلامته عن الآفات التي تصيبه قبل ظهور الحبِّ؟ أَوَ تدفعونها عنه، أو هذا الزرع يدفع عن نفسه لو أراد الله تَلَفَه وهلاكه؟

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ ٦٦ .

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي قائلين إنَّا لملزمون غرامة ما أنفقنا.

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ٦٧ .

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حُرمنا رزقنا، غرمنا ثمن الحب، وحُرمنا من الرزق، فلا حظَّ ولا نصيب لنا فيه.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ ٦٨ .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾؟ عذباً فراتاً، وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه، لأن الشرب أهم المقاصد المنوط بها.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ ٦٩ .

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾؟ من السحاب، جمع مُزنة وهي السحابة الممطرة ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾؟ له بقدرتنا.

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ ٧٠ .

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أي ملحاً زعافاً لا يمكن شربه ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي فهلَّا تشكرون ربكم على فضله وإنعامه؟.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ ٧١ .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر فتخرج منه النار.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ ٧٢ .

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ لها بقدرتنا؟ والتعبير عن خلقها بالإنشاء، المنبىء عن بديع الصنع، المعرب عن كمال القدرة والحكمة، لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر، التي لا تخلو من النار، حتى قيل: في كل شجر نارٌ، واستمجد المرخُ والعُفار.

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي تذكيراً لنار جهنم، حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا ما أوعدوا به من نار جهنم، وفي الحديث الشريف «ناركم هذه التي توقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم»[1] وقيل: المعنى: جعلناها تبصرةً لأمر البعث، فإنه ليس بأبدع من إخراج النار من الشيء الرطب ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي ومنفعة للذين ينزلون القواء، وهو القفر، وتخصيص المسافرين بذلك، لأنهم أحوج إليها، فإن المقيمين ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح.

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ الفاء في ﴿فَسَبِّحْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما عدّد من بدائع صنعه تعالى، الموجبة لتسبيحه، عما يقول الجاحدون بوحدانيته، الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها، وتعجيباً من أمرهم في غمط تلك النعم الباهرة، مع جلالة قدرها، أي فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى العظيم، قل: سبحان الله العظيم، سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخَّرها لنا بحكمته!!.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/٢٣٨ باب صفة النار، ومسلم رقم ٢٨٤٣ باب في شدة حر نار جهنم.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ ﴾.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾ أي فأقسم و «لا» مزيدة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ وهو قول أكثر المفسرين، وأما ما قيل: إن المعنى: فلا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، فيأباه تعيين المقسم به، وتفخيمُ شأن القسم به ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ أي بمساقطها وهي مغاربها، وتخصيصها بالقَسَم، لما في غروبها من الدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، أو بمنازلها ومجاريها، فإن له في ذلك من الدليل على عظيم قدرته، وكمال حكمته، ما لا يحيط به البيان.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ اعتراضٌ قُصد به المبالغة، في تحقيق مضمون الجملة القسميّة وتأكيده.

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ أي كثير النفع، لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، وكريم عند الله تعالى.

﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ ﴾.

﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ مصون من غير المقربين من الملائكة، لا يطلع عليه من سواهم، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: مصون من التبديل والتحريف، ويراد به المصحف الشريف.

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ ﴾.

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ أي القرآن. المراد بالمطهرين الملائكة،

فالمراد بهم المطهرون من الأحداث، فيكون نفياً بمعنى النهي، أي لا ينبغي أن يمسَّه إلاَّ من كان على طهارة.

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ صفة للقرآن، أي منزل من عند الرحمن.

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ الذي ذكر نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه، وهو القرآن الكريم ﴿أَنتُم﴾ يا أهل مكة ﴿ مُّدْهِنُونَ﴾ أي متهاونون به، كمن يدهن في الأمر، أي يلين جانبه ولا يتصلب؛ تهاوناً به.

قال ابن عباس: أي مكذّبون، والمدهن والمداهن الكذّاب والمنافق، والإدهانُ: الجريُ في الباطل، ثم قيل للمكذب: مدهن.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي حظكم ونصيبكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾أي تضعون التكذيب موضع الشكر.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ لولا للتحضيض، أي فهلاَّ إذا بلغت الروح الحلقوم، وتداعت إلى الخروج، عند معالجة سَكَرات الموت.

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أيها الحاضرون تنظرون إلى ما هو فيه من الغَمَرات، وهو يودِّع الحياة.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ علماً وقدرة وتصرفاً ﴿ مِنكُمْ ﴾ حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها، وأسبابها، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بملائكة الموت ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أي لا تدركون بذلك لجهلكم بشؤوننا.

﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي غير مربوبين ومملوكين، من دان السلطانُ رعيته: إذا ساسَهم، والدينُ الجزاء، أي غير مجزيِّين يوم القيامة، وأصل التركيب للذل والانقياد.

﴿ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أي إن كنتم غير مربوبين ومجزيّين، فهلَّا ترجعون الروح إلى مقرِّها، عند بلوغها الحلقوم؟ ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في اعتقادكم أن لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء[1]!! وقال الطبيعي: البقاء بالغذاء، وزوالُ الأمراض بالدواء، فما بال الطبيعي لا يقدر على أن يرجع النفس من الحلقوم؟.

---

(١) الغرض من الآية: بيانُ عجز البشر عن ردِّ الموت، أو دفعه عنهم، وكأن الآية تقول للمكذبين الكفار: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا إله يجازي العباد، فهلَّا تردّون روح من يعزُّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟! وإذا لم يمكنكم ذلك وهو أمر مستحيل، فاعلموا أن الأمر بيد ربِّ الأرباب.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ ﴾.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي فأما إن كان المتوفَّى من السابقين في الخيرات والدرجات، عبر عنهم بأجلّ وأشرف أوصافهم.

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ ﴾.

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي فله استراحة، وفسر بالرحمة، أي بالحياة الدائمة ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ أي رزق طيب ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أي ذات تنعم.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ ﴾.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ عبّر عنهم بالعنوان السابق، إذ لم يذكر لهم في ما سبق وصف سواه، كما ذكر للفريقين الآخرين.

﴿ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ ﴾.

﴿ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، والالتفات للتشريف، ويحتمل أن يكون المعنى: فسلام لك يا رسول الله منهم، فإنهم في سلامةٍ، لا يهمُّك أمرهم.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ ﴾.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم أصحاب الشمال، وصفوا به، ذمّاً لهم، وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب.

﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ ﴾.

﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أي فله ضيافة كائنة ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ يشرب منها بعد أكل الزقوم.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي إدخالٌ في النار المستعرة، وقيل: ذلك ما يجده في القبر من سموم النار، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الكفر كله ملة واحدة، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين، لأنهم غير مكذبين.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الذي ذكر في هذه السورة الكريمة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي حق الخبر اليقين، وذلك نوع تأكيد، يقال: هذا من حق الحقّ، وصواب الصواب، أي غايته ونهايته.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي فنزّه ربك عن الظلم والعجز، فهو الذي يجازي العباد بالحق والعدل. روي عن عقبة بن عامر الجهني قال: لمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّح بِٱسمِ رَبِّكَ ٱلعَظِيمِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعِكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»(١) وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة، لم تصبْه فاقةٌ أبداً»(٢)

---

(١) أخرجه أبو داود ١/ ٢٠٠ وأحمد في المسند ٤/ ١٥٥.

(٢) أخرجه ابن عساكر وله قصة لطيفة ذكرها الحافظ ابن كثير ٤/ ٣٠٢ وهي: أن عبد الله ابن مسعود لمَّا مرض مَرَضه الذي تُوفّي فيه، عاده الخليفة عثمان بن عفان، فسأله: ما تشتكي؟ ـ يريد ما هو الداء الذي نزل بك ـ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمةَ ربي، قال: ألاَ آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضني، قال: ألاَ آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك!! ـ وكان عنده خمس بنات ـ فقال له ابن مسعود: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرتُ بناتي يقرأن كل ليلةٍ =

والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة».

* * *

= سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة، كلَّ ليلة، لم تصبه فاقة أبداً» اهـ.

سُورَةُ الحَدِيدِ

مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التسبيح أسند ههنا إلى غير العقلاء، وأريد به معنىً عاماً، شاملاً لما نطقَ به لسانُ المقال، كتسبيح الملائكة، والمؤمنين، ولسانُ الحال كتسبيح غيرهم، فإن كل فردٍ من أفراد الموجودات، يدلُّ بحدوثه على الصانع القديم، الواجب الوجود، المتصف بالكمال، المنزّه عن النقصان، وهو يسبِّح بطريقةٍ لا نعلمها، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب الحكم في صنعه وتدبيره.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي التصرف الكلي فيهما من الموجودات

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي القادر على الإحياء والإماتة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء، أي مبالغ في القدرة، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾ أي السابق على سائر الموجودات، لما أنه مبدئها ومبدعها ﴿ وَٱلْآخِرُ ﴾ أي الباقي بعد فنائها ﴿ وَٱلظَّـٰهِرُ ﴾ وجوداً لكثرة دلائله الواضحة ﴿ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ حقيقة فلا تحوم حوله العقول، لكونه غير مدرك بالحواس ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي عالم بكل ذرة في الكون، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ استواءً يليق بجلاله ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي يعلم سبحانه كل صغيرة وكبيرة، ما يدخل في باطن الأرض من بذور وأمطار، وما يخرج منها من زروع وثمار، وما ينزل من السماء من أرزاق وأقوات، وما يصعد إليها من ملائكة وأعمال ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ بالعلم والقدرة[1]، وبالفضل والرحمة، وهو تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم، أينما داروا، وحيثما ساروا ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لإحاطة علمه تعالى بأعمالهم.

---

(١) المراد بالمعيَّة هنا معيَّةُ العلم، لا معيَّةُ الذات، كما نبَّه عليه الحافظ ابن كثير ٤/ ٣٤٥ حيث حكى الإجماع على ذلك.

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ تكرار للتمهيد لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي إليه وحده لا إلى غيره مرجع حساب الخلائق.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ أي يدخل كلاً من الليل والنهار في الآخر، فيطول هذا مرة ويقصر مرة، وهو المدبِّر للأكوان ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بمكنوناتها، وبما يضمرونه، العالم بالسرائر والضمائر.

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الخطاب لكفار قريش، أي وحِّدوا الله وأطيعوه، وصدِّقوا بالله ورسوله ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ ﴾ أي جعلكم خلفاء في التصرف فيه، عبَّر عما في أيديهم بذلك، تحقيقاً للحقّ وترغيباً لهم في الإنفاق، فالمنفق في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل، يسهل عليه الإنفاق منه ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي ثواب عظيم هو الجنة.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ ﴾ أي أيُّ شيء حصل لكم، وأيُّ عذر لكم في ترك الأمان؟ ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ حال من ضمير ﴿لا تؤمنون﴾ لتوبيخهم على الكفر، أي وأيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم،

بالإيمان من قبل، وذلك بنصب الأدلة على وحدانيته ووجوده!! ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقاً مصدِّقين بربكم، فهذا أحرى الأوقات لإيمانكم!!.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ حسبما يعرض لكم من المصالح، نزَّل عليه آيات واضحات ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي ليخرجكم الله من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين، بإرسال الرسل، وتنزيل الآيات.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به، بعد توبيخهم على ترك الإيمان، بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضاً عذر، أيْ وأيُّ شيءٍ لكم أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى؟ ما هو له في الحقيقة، وإنما أنتم خلفاؤه، في صرفه إلى مستحقيه؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأكيد للتوبيخ، فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر، ومع تحقق ما يوجب الإنفاق، أشد في القبح، وأدخل في الإنكار، كأنه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله، والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء، بل تبقى كلها لله تعالى؟ وإظهار الاسم الجليل، لزيادة التقرير، وتربية المهابة ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾[1] بيان لتفاوت

(١) في الآية حذف تقديره: لا يستوي من أنفق وقاتل قبل الفتح، ومن أنفق وقاتل بعد الفتح، وإنما حذفه لدلالة ما بعده عليه.

درجات المنفقين، حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق، أي لا يتساوى عند الله من أنفق ماله في سبيل الله، وقاتل أعداء الله نصرة لدينه، قبل فتح مكة، ومن أنفق وقاتل بعد فتح مكة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من أنفق قبل الفتح وقاتل ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي أرفع منزلة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا، قبل عزة الإسلام، وقوة أهله، عند تمام الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال، وهم السابقون الأولون، من المهاجرين والأنصار، الذين قال ﷺ فيهم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[1] ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ أي وكل واحد من الفريقين، وعده الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة، لا الأولين فقط ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بظواهره، فيجازيكم بحسبه.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى، رجاء أن يعوِّضه، فإنه كمن يقرضه؟ وحسنُ الإنفاق بالإخلاص فيه، وتحري أكرم المال، وأفضل الجهات والإعطاء بطيب نفسه ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي فيعطيه أجره أضعافاً ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجر كريم في نفسه، حقيقٌ بأن يتنافس فيه المتنافسون، وإن لم يضاعف، فكيف وقد ضوعف أضعافاً كثيرة؟.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢)﴾.

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري ٧/ ٢٨ ولفظه: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه» أي نصف المُدِّ.. وانظر جامع الأصول ٨/ ٥٥٣.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أي تكون أنوارهم ساطعة، ووجوههم مضيئة كإضاءة القمر، حين يمرون على الصراط، وأنوارهم تتلألأ ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم بأيمانهم ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يقال لهم: بشراكم، أي ما تبشَّرون به اليوم ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أي انتظرونا، يقولون ذلك، لما أن المؤمنين يُسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب تُزف بهم، وهؤلاء مشاة ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي نستضيء منه ﴿قِيلَ﴾ من جهة المؤمنين تهكماً بهم وسخرية ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي إلى الدنيا ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فالتمسوا النور، بتحصيل مباديه من الإيمان والعمل الصالح، وإنما قالوه تخييباً لهم، وتهكماً بهم ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الفريقين ﴿بِسُورٍ﴾ أي حائط ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ﴾ أي باطن السور، وهو الجانب الذي يلي الجنة ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ﴾ من جهته ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ أي النار.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين من وراء هذا السور ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؟ في الدنيا، يريدون موافقتهم لهم في العبادات والغزوات ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ محنتموها

بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ في أمر الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ الفارغة، من جملتها الطمع في انتكاس أمر الإسلام ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ﴾ الكريم ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي غركم الشيطان، بأن الله عفو كريم لا يعذبكم.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أي فداء ما يفتدى به ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ولا من الكفار ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ لا تبرحونها أبداً ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي أولى بكم، لما أسلفتم في الدنيا، وعن ابن عباس: هي مصيركم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي النار، قرناؤهم الشياطين، وجيرانهم الكفار، وطعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ روي أن المؤمنين كانوا مجدبين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق وفتروا عما كانوا عليه فنزلت، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى إلا أربع سنين. والمعنى: ألم يَجِىءْ وقت للمؤمنين، أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى، وتطمئن به، ويسارعوا إلى طاعته بالامتثال لأوامره، والانتهاء عما نهوا عنه، من غير توان ولا فتور، من أَنَى الأمرُ إذا جاء وقتُه ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن، ومعنى الخشوع له: الانقيادُ التام لأوامره ونواهيه، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾ نهي عن مماثلة أهل الكتاب، في قسوة القلوب، فيما

حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا التوراة والإنجيل، خشعوا لله، ورقَّت قلوبهم، فطال عليهم الزمان، وزالت عنهم الرقَّةُ وقست قلوبهم باتباع الشهوات ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن حدود دينهم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)﴾.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة، بإحياء الأرض الميتة بالغيث، للترغيب في الخشوع والتحذير من القساوة، والمعنى: اعلموا أن الله يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، فكما يحيي الأرض بالمطر، كذلك يحيي القلوب القاسية بالحكمة ونور الإيمان ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي وضحنا وفصَّلنا هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨)﴾.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي المتصدقين والمتصدقات ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي تصدَّقوا لوجه الله وابتغاء ثوابه، هم الذين يضاعف الله لهم الأجر والثواب، ولهم الجنة دار النعيم جزاء إحسانهم وإخلاصهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ ﴾ كافة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ قال مجاهد: كلُّ من آمن فهو صدِّيق، وقرأ هذه الآية، أي أولئك بمنزلة الصدّيقين ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ أي والذين استشهدوا في سبيل الله ﴿ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ ﴾ أي لهم مثل أجرهم ونورهم، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ لا يفارقونها أبداً.

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ ﴾ بعدما بيّن حال الفريقين في الآخرة شرح حال الدنيا، التي اطمأن بها الكفار، من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء، فضلاً عن الاطمئنان بها، وأنها مع ذلك سريعة الزوال ﴿ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ ﴾ أي الحُرَّاث، أو الكافرين بالله لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا ﴿ نَبَاتُهُۥ ﴾ أي النبات الحاصل ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي يجفُّ بعد خضرته ونضرته ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ﴾ بعد ما رأيته ناضراً مونقاً وإنما لم يقل فيصفرُّ، إيذاناً بأن اصفراره مقارن لجفافه ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ ﴾ هشيماً متكسراً.

وبعدما بيّن حقارة أمر الدنيا، تزهيداً فيها، وتنفيراً عن العكوف عليها، أشار إلى فخامة شأن الآخرة، وعظم ما فيها من اللّذات والآلام، ترغيباً في تحصيل نعيمها، وتحذيراً من عذابها فقال: ﴿ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ للكفار، لأنه من نتائج الانهماك في شهوات الحياة الدنيا ﴿ وَمَغۡفِرَةٞ ﴾ عظيمة للمؤمنين ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ ﴾ لا يُقادر قدره ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ

﴿ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي لمن اطمأن بها، ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة. الحياة نعمة بل هي أصل لجميع النعم، وهي غير مذمومة، لأنه تعالى عظَّم المنَّة بخلق الحياة فقال: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾؟ فدلَّ هذا أن الحياة الدنيا غير مذمومة، بل المراد أن من صرفها إلى طاعة الشيطان فذلك المذموم.

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿سَابِقُوٓا۟﴾ أي سارعوا مسارعة المتسابقين في الميدان ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي إلى موجباتها من الأعمال الصالحة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كعرضهما، وإذا كان عرضها كذلك، فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيه دليل أن الجنة مخلوقة بالفعل، وأن الإيمان شرط لدخولها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وُعد من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من غير إيجاب ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كجدب، وزلزالٍ وعاهة في الزروع والثمار ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرضٍ، وآفة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ إلا مكتوبة، مثبتة في علم الله وفي اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي نخلق المصيبة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي إثباتها في كتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة.

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي أخبرناكم بذلك، لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا ﴾ فرح المختال الفخور[1] ﴿ بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي أعطاكم الله منها، فإن من علم أن الكل مقدَّرٌ، يفوت ما قُدِّر فواتُه، ويأتي ما قُدِّر إتيانه لا محالة، لا يعظم جزَعه على ما فات، ولا فرحُه بما هو آت، والمراد به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى، والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي لا يحب كل متكبر، يفخر على الناس بما أعطاه الله من مالٍ أو جاه.

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بدل من كل مختال، فإن المختال بالمال يضنُّ به غالباً ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي يُعرض عن أوامر الله، ولم ينته عما نهى عنه، ويبخل عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي فإن الله غنيٌّ عنه، وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره، بالتقرب إليه بشيء من نعمه، وفيه تهديد، وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق.

(١) ليس المراد بالنهي عن الحزن والفرح، اللذين لا ينفك عنهما الإنسان، فإنه ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً، وإنما المراد الحزن المخرج لصاحبه عن الصبر، والتسليم لقضاء الله، والفرح الملهي عن الشكر، فهذا هو الذي نبّه إليه القرآن.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الأنبياء إلى الأمم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والمعجزات الساطعات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، والمراد بإنزال الميزان: إنزال أسبابه، والأمر بإعداده، وكذا قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ وذلك أن أوامره تعالى وقضاياه، تنزل من السماء بوحيه وأمره، وبتعليمه وإرشاده، وبذلك تعلَّم الإنسان إخراج الحديد وصنعته ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوة شديدة، لأن آلات الحروب تتخذ منه ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد أو ما يُعمل بالحديد آلاتها، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علماً يتعلق به الجزاء ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال السيوف والرماح والدبابات، والمدافع، في مجاهدة أعدائه، وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي غائباً عنهم وغائبين عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ جيء به تحقيقا للحق وتنبيهاً على أن تكليفهم بالجهاد ليس لحاجته في إعلاء كلمته، بل إنما هو لينتفعوا به، ويصلوا إلى الثواب، وإلا فهو غني بقدرته وعزته، في كل ما يريده.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦)﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ تكرار القسم للاعتناء بالأمر، أي وبالله لقد أرسلناهما، خُصّا بالذكر، لأنهما أبوان للأنبياء عليهم السلام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأناهم، وأوحينا إليهم الكتاب

﴿فَمِنْهُم﴾ أي من الذرية ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحق، ومؤمن بالكتاب والرسل ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ أي أرسلنا رسولاً بعد رسول، حتى انتهى إلى عيسى بن مريم، وأنزلنا عليه الإنجيل ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعلنا في قلوب أتباعه الرِّقَّة والرحمة، للتراحم والتعاطف بينهم، يعني أنهم كانوا متوادين متراحمين بعضهم مع بعض، كأصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي ورهبانية مبتدعة من عندهم، وهي المبالغة في العبادة بالرياضة، والانقطاع عن الناس، ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، والراهب هو الخائف، فعلان من رهب، كخشيان من خشي، وسبب ابتداعهم إياها، أن الجبابرة ظهروا عليهم بعد رفع عيسى عليه السلام، فخافوا أن يفتنوا في دينهم، فاختاروا الرهبانية في قلل الجبال ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي لم نفرضها عليهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ من حيث إن النذر عهدٌ مع الله لا يحلُّ نكثه، لا سيما إذا قصد به رضاء الله تعالى، وأنهم لم يراعوها بل ضيَّعوها وضموا إليها التثليث والاتحاد ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾ إيماناً صحيحاً، وهو الإيمان برسول الله ﷺ، بعد رعاية رهبانيتهم لا مجرد رعايتها، فإنها بعد البعثة لغوٌ محض، وضلال بحت، وأنى لها استتباع الأمر؟ ﴿أَجْرَهُمْ﴾ أي ما يخص بهم من الأجر ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن حد الاتباع والطاعة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي بالرسل المتقدمة ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ أي بمحمد رسول الله ﷺ، وفي إطلاقه إيذان بأنه عَلَمٌ فرد في الرسالة، لا يذهب الفهم إلى غيره ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ ﴾ أي نصيبين ﴿ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ لإيمانكم بالرسول ﷺ، وبمن قبله من الرسل، لكنْ لا على معنى أن شريعتهم باقية بعد البعثة، بل على أنها كانت حقة قبل النسخ ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي مبالغ في الرحمة والمغفرة لكل من تاب وأناب.

﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ متعلق بمضمون الجملة الطلبية، التقدير: إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله، يؤتكم كذا، لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب أي ليعلموا، و «لا» مزيدة كما ينبيء عنه قراءة ليعلم ﴿ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ أي ليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضله، أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة، فيخصّونها بمن أرادوا، فالنبوة فضل من الله يعطيه من يشاء من خلقه ﴿ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ في ملكه وتصرفه ﴿ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ من عباده ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله، وقد جوز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب، فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم، برسول الله ﷺ، يؤتكم ما وعد، من آمن من أهل الكتاب من الكفلين، والله أعلم بأسرار

كتابه[1]، وصلوات الله وسلامه على خير خلقه محمد، و على آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»

* * *

(١) الآية ردٌّ على اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: الوحي والرسالة في بني إسرائيل، ولهذا لم يؤمنوا برسالة محمدﷺ، فردَّ الله عليهم ذلك الافتراء الكاذب، والزعم الباطل، وبيَّن أن فضله ليس محصوراً في طائفة، وليس بيد أحد، حتى يحجبه عن خلقه، وإنما أمر النبوة والرسالة بيد الرحمن وحده، يجعلها فيمن يشاء من عباده ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وكفى بهذا خزياً للمفترين من اليهود والنصارى!!.

سُورَةُ المُجَادِلَةِ

مدنية وآيها اثنتان وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي تراجعك يا محمد الكلام في شأنه، وفيما صدر عنه في حقها من الظهار ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي تتضرع إلى الله تعالى، وهي «خولة بنت ثعلبة» امرأة أوس بن الصامت؛ راودها فأبت، فغضب فظاهر منها، وكان به إلمام بالنساء وشدة الحرص والتوقان، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة غنية، ذات أهل ومال، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وكبر سني، ونثرت بطني ـ أي كثر ولدي ـ وتفرق أهلي، ظاهر مني، ولنا أولاد صغار، إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا!! فقال لها ﷺ: «ما أراكِ إلا قد حَرُمتِ عليه»؟ فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً وإنما هو أبو ولدي وأحبُّ الناس إليَّ، فاغتمت وشكت إلى الله تعالى، فنزلت هذه الآيات الأربع، وفي كلمة «قد» إشعار بأن الرسول ﷺ والمجادِلة كانا يتوقعان أن ينزل الله تعالى حكم الحادثة، ومعنى «سمع» إجابةُ دعائها، لا مجرد علمه تعالى به

﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ أي يعلم تراجعكما الكلام، والجملة جارية مجرى التعليل لما قبله، فإن إلحاحها في المسألة ومبالغتها في التضرع إلى الله تعالى، وعلمه تعالى بحالها من دواعي الإجابة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات، ومن قضيته أن يسمع تحاوركما، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة «خولة» إلى رسول الله ﷺ وكلَّمته في جانب البيت، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قد سمع الله﴾[1] الآية. وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية، وكان ذلك أول ظهار في الإسلام، وهذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق، ولم يبق له في مهمِّه أحد سوى الخالق، كفاه الله تعالى وفرَّج كربته.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ شروع في بيان شأن الظهار، وحكمه شرعاً، والظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، أي أنت حرام عليَّ كما تحرم أمي، وألحق به الفقهاء تشبيهها بجزء محرم منه، وفي «منكم» مزيد توبيخ لعادة أهل الجاهلية، فقد اشتهر هذا عند العرب ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ أي ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحت ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أي ما هن ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ فلا تُشَبَّه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الشرع بهن كالمرضعات، وأزواج النبي ﷺ، وأما الزوجات فأبعد شيء عن الأمومة ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً ١٣/ ٣٧٢ والنسائي ٦/ ١٨٦ وصححه الحاكم في المستدرك.

على أن مناط التأكيد، ليس صدور القول عنهم، فإنه أمر محقّق، بل كونه منكراً، أي عند الشرع، والعقل، والطبع، كما يشعر به تنكيره ﴿وَزُورًا﴾ كذباً وباطلاً مجانباً للحق ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة، فيغفر لماسلف بالمتاب عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي والذين يقولون ذلك القول المنكر ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي إلى ما قالوا، بالتدارك والتلافي، لا بالتقرير والتكرار، فإن اللام و «إلى» تتعاقبان كقوله تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ وقوله: ﴿وأوحي إلى نوح﴾ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فتداركُه، أو فعليه إعتاق رقبة، أيَّ رقبةٍ كانت، وعند الشافعي يشترط فيها الإيمان والفاء للسببية، ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير، بتكرر الظهار ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي من قبل أن يستمتع كل من المظَاهِرِ والمظَاهَرِ منها بالآخر جماعاً، ولمساً، ونظراً إلى الفرج بشهوة، وإن وقع شيء من ذلك قبل التكفير، يجب عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفّر، وفيه دليل على حرمة ذلك قبل التكفير ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الحكم المذكور ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ أي تُزجرون به عن ارتكاب المنكر المذكور، فإن الغرامات زواجر عن تعاطي الجنايات، والمراد بذكره ليس تعريضكم للثواب، بمباشرتكم لتحرير الرقبة، بل هو لزجركم عن مباشرة مايوجبه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال التي من جملتها التكفير وما يوجبه ﴿خَبِيرٌ﴾ أي عالم بظواهرها وبواطنها.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ أي الرقبة ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ ﴾ أي فعليه صيام شهرين ﴿ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ ليلاً أو نهاراً، أي من قبل الوطء والاستمتاع بها ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ أي الصيام لسبب من الأسباب ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ لكل مسكين نصف صاع من بُرٍّ، أو صاع من شعير، ويجب تقديمه على الوطء، لكن لا يستأنف إن مس في خلال الإطعام ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من البيان والتعليم للأحكام، والتنبيه عليها، أي فعلنا ذلك ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وتعملوا بشرائعه، وترفضوا ماكنتم عليه في جاهليتكم ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ لا يجوز تعدِّيها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ أي الذين لا يعملون بها ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عبر عنه بالكفر للتغليظ، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾[1].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي يعادونهما ويشاقونهما بمخالفة أوامرهما، وورود المحادَّة في أثناء ذكر ﴿حُدودِ الله﴾ من حسن الموقع، ما لا غاية وراءه ﴿ كُبِتُوا ﴾ أي أُخذوا وقُهروا وخذلوا ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي كما خُذل وأخزي من قبلهم، من كفار الأمم المعادين للرسل عليهم السلام ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي والحال قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حادَّ الله ورسوله، دالة على صدق الرسل، وصحة ما جاؤوا به ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ أي بتلك الآيات أو بكل ما يجب الإيمان به ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يذهب بعزهم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٧.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي يحشرهم كلهم للحساب والجزاء ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ من القبائح على رؤوس الأشهاد، تخجيلاً لهم، وتشديداً لعذابهم ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ أي ضبطه الله عدّاً لم يفته منه شيء ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ أي وقد نسوه لكثرته وتهاونهم به، وإنما تحفظ معظمات الأمور ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور قط.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ أي ألم تعلم علماً يقيناً متاخماً للمشاهدة أنه تعالى يعلم ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من الموجودات ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ ﴾ أي ما يقع من نجوى ثلاثة، أي من مسارَّتهم ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ من حيث إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ مطلعٌ على نجواهم ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ ﴾ أي ولا نجوى خمسة ﴿ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ وتخصيص العددين بالذكر لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين، وقد عمَّ الحكم بعد ذلك فقيل ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ ﴾ أي مما ذكر كالاثنين ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ كالستة وما فوقها ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ والمراد من كونه تعالى معهم، كونه تعالى عالماً بكلامهم، وضميرهم وسرهم، يعلم ما جرى بينهم ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ من الأماكن، فإن علمه تعالى بالأشياء، ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة، قرباً وبُعداً ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ تفضيحاً لهم، وإظهاراً لما يوجب عذابهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لأن نسبة ذاته تعالى إلى الكل سواء، فأين المفرُّ إذا كان الله مع كل إنسان بعلمه، في السرِّ والجهر؟.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، فنهاهم رسول الله ﷺ، ثم عادوا لمثل فعلهم القبيح، والخطاب للرسول ﷺ، والهمزة للتعجيب من حالهم، وصيغة المضارع ﴿يعودون﴾ للدلالة على تكرار عودهم ﴿ بِٱلْإِثْمِ ﴾ أي بما فيه إثم في نفسه ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ للمؤمنين ﴿ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ﷺ وذكره بعنوان الرسالة لزيادة التشنيع عليهم، واستعظام معصيتهم له ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فيقولون: السام عليك، وهو دعاء عليه بالموت ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي فيما بينهم ﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أي هلا يعذبنا الله بذلك، لو كان محمد نبياً؟ قال تعالى: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ عذاباً ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي بئست نار جهنم مسكناً ومأوى لهؤلاء الفجار.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ ﴾ في أنديتكم وخلواتكم ﴿ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ ﴾ كما يفعله المنافقون واليهود ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي بما يتضمن خير المؤمنين، وبأداء الفرائض والطاعات ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وحده لا إلى غيره، فيجازيكم على أعمالكم.

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ فإنه المزين لها، والحامل عليها ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي ليحزن المؤمنين، ويسوءهم، ويوهمهم أنها في نكبة أصابتهم ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ ﴾ أي وليس التناجي بضار المؤمنين ﴿ شَيْـًٔا ﴾ أيْ أيَّ شيء من الضرر ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي بمشيئته ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يبالون بنجواهم، فإنه تعالى يعصمهم من شره وضرره.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ ﴾ أي توسعوا في المجالس ولْيفسح بعضكم لبعض ﴿ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ والمراد مجلس الرسول ﷺ، كانوا يتضامون تنافساً في القرب منه ﷺ، وحرصاً على استماع كلامه فأُمروا بأن يوسِّعوا لإخوانهم، لأن الرجل الرفيع القدر قد يكون متأخراً عن الصف الأول، والحاجة داعية إلى تقدمه، ثم يُقاس على ذلك سائر المجالس ﴿ فَٱفْسَحُوا۟ ﴾ أي توسَّعوا ولا تتضايقوا ﴿ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ في كل ما تريدون التفسح فيه، من المكان، والرزق، والصَّدر، والقبر ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ ﴾ أي انهضوا للتوسعة، أو ارتفعوا عن المجلس ﴿ فَٱنشُزُوا۟ ﴾ أي فانهضوا أو لا تتثبطوا ولا تفرطوا ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ بالنصر، وحسن الذكر في الدنيا، والإيواء إلى غرف الجنان في الآخرة ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ منهم خصوصاً درجات عالية، بما جمعوا بين فضيلتي العلم والعمل، وفي الحديث الشريف: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[1] ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من الخير والشر، وفيه تهديد لمن خالف أمر الرسول.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٦٨٢ باب فضل الفقه على العبادة، وهو حديث =

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي إذا أردتم مناجاته في بعض شؤونكم المهمة، ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ﴾ أي فتصدقوا قبلها، وفي هذا الأمر تعظيم لمقام الرسول ﷺ، ونفع الفقراء، والزجر عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المخلص والمنافق، واختلف في أنه للندب أو للوجوب، لكنه نسخ بقوله تعالى: ﴿ءأشفقتم﴾ الآية، وهو وإن كان متصلاً به تلاوة، لكنه متراخ عنه نزولاً ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي التصدق ﴿ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ ﴾ أي لأنفسكم من الريبة، وحب المال، وهذا يشعر بالندب، لكنَّ قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ ينبيء عن الوجوب، لأنه ترخيص لمن لم يجد، وقد كان ذلك عشر ليالٍ ثم نُسخ.

﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣ ﴾.

﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ ﴾ أي أخفتم من تقديم الصدقات ﴿ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ ﴾ جمع الصدقات لجمع المخاطبين ﴿ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ ﴾ ما أُمرتم به، وشقَّ عليكم ذلك ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوه، فإن قيل: ظاهر الآية يدل على تقصير المؤمنين في ذلك التكليف؟ قلنا: ليس الأمر كذلك، لأن القوم كُلِّفوا به، فمن ترك المناجاة لا يكون مقصراً، أما قوله تعالى: ﴿ءأشفقتم﴾ فلا يمتنع أنه تعالى علم ضيق صدر كثير منهم لو دام الوجوب ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي فإذا فرّطتم فيما أُمرتم به من تقديم الصدقات، فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة

= مشهور وطويل، أوّله «من سَلَكَ طريقاً يبتغي فيه علماً، سلك الله له طريقاً إلى الجنة..» الحديث.

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها، كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ظاهراً وباطناً، وهذا وعد ووعيد.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعجيب من حال المنافقين، الذين يتخذون اليهود أولياء وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، أي ألم تنظر ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي والوا ﴿ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ هم اليهود، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ ﴾ أي يقولون: والله إنا لمسلمون، وقد كانوا يشتمون الرسول، ويكيدون للمسلمين، فإذا قيل لهم إنكم فعلتم ذلك، خافوا على أنفسهم، فيحلفون: والله إنا ما قلنا وما فعلنا ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حال من فاعل يحلفون، مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا، فإن الحلف على ما يُعلم أنه كذب، في غاية القبح، كمن يحلف اليمين الغموس.

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فيما مضى من الزمان، فتمرنوا على سوء العمل، وأصرُّوا عليه.

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ ﴾ الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة ﴿ جُنَّةً ﴾ أي وقاية وسترة، دون دمائهم وأموالهم ﴿ فَصَدُّوا۟ ﴾ أي الناس ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بالتثبيط لمن لقوا لمنعهم من الدخول في الإسلام، وتضعيف أمر المسلمين عندهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم، وهو الإذلال

والإهانة، وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[1].

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي من عذابه تعالى ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي ملازموها ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي دائمون لا يخرجون منها أبداً.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ ﴾ أي يحلفون لله تعالى يومئذ أنهم مسلمون ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بتلك الأيمان الفاجرة ﴿ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ من جلب منفعة، أو دفع مضرة، كما كانوا عليه في الدنيا، حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم وأموالهم، ويستجرون فوائد دنيوية ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ البالغون الغاية في الكذب.

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي استولى عليهم ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ بحيث لم يذكروه بقلوبهم، ولا بألسنتهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي جنوده وأتباعه ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

---

(١) سورة النحل، آية: ٨٨.

حيث فوَّتوا على أنفسهم النعيم المقيم، وأخذوا العذاب الأليم، وعلامة استحواذ الشيطان على الإنسان أن يشغله بأشياء ظاهرة، من الملابس والمآكل، ويشغل قلبه عن ذكر الله، بتدبير الدنيا وجمعها، ولسانه عن الذكر والقراءة، بالكذب وقبيح الأقوال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أي يخالفون أمر الله وأمر رسوله، ويعادون دين الله بالإعراض عنه، والاستهزاء به وبأحكامه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بما فعلوا من التولي، والموادة لأعداء الله ﴿فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أي في جملة من هو أذل خلق الله.

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ أي قضى وحكم وأثبت في اللوح المحفوظ ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي بالحجة، أو بالسيف، وما يجري مجراه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُونَ وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ قويٌّ على نصر أنبيائه وأوليائه، عزيز: أي قاهر لا يُغلب في مراده.

﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٧١.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد، أي لا تصادف قوماً جامعين بين الإيمان بالله، واليوم الآخر، وبين موادة أعداء الله ورسوله، على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟﴾ أي من حادَّ الله ورسوله ﴿ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي آباء الموادين، فإن قضية الإيمان أن يُهجر الجميع بالمرة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الذين لا يوادونهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي أثبته، ورسَّخه فيها، فهم المؤمنون الصادقون في إيمانهم ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي من عند الله وهو نور القلب، وتأييد الرحمن. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ رضي الله عنهم جارٍ مجرى التعليل، لما أفاض عليهم من آثار رحمته ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أوتوه عاجلاً وآجلاً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ تشريف لهم ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة الدارين، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في «أبي عبيدة بن الجراح» قتل أباه يوم أحد و «عمر بن الخطاب» قتل خاله يوم بدر، و «مصعب بن عمير» قتل أخاه يوم بدر»(١) قال سهل: من صحَّح إيمانه، وأخلص توحيده، لا يأنس بمبتدع ولا يجالسه، ويظهر من نفسه العداوة، ومن داهن مبتدعاً لطلب عزِّ الدنيا، أذلَّه الله، والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المجادلة»

* * *

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٥٢.

سُورَةُ الحَشْرِ

مدنية آيها أربع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي نزّه الله كل ما في الكون من بشر، ونبات، وجماد، وهو الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢)﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ بيان لبعض آثار عزته تعالى، والضمير راجعٌ إليه تعالى، وفيه إشعار بأن في الإخراج حكمة باهرة، روي أنه ﷺ لمَّا قدم المدينة صالح بني النضير، وهم رهط من اليهود، وعاهدهم أن لا يكونوا له ولا عليه، فلما كان يوم أحد نكثوا فخرج «كعب بن الأشرف» في أربعين راكباً إلى مكة، فحالفوا قريشاً عند

الكعبة، على قتاله ﷺ، فأمر ﷺ «محمد بن مسلمة» الأنصاري فقتل كعباً غِيلة، ثم صبَّحهم بالكتائب فقال لهم اخرجوا من المدينة، فاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج، فدسَّ عبد الله بن أُبيّ وأصحابه إليهم: ألاَّ تخرجوا من الحصون، فإن قاتلوكم فنحن معكم، فحاصرهم النبي ﷺ إحدى وعشرين ليلة، فلما قذف الله في قلوبهم الرعب، وأيسوا من نصر المنافقين، طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام، فأنزل الله هذه السورة إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ الحشر هو إخراج الجمع من مكان إلى مكان، وهم أول من أُخرج من جزيرة العرب إلى الشام، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه إياهم من خيبر ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ من ديارهم بهذه الذلة، لشدة بأسهم، وقوة منعتهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، لاعتقادهم أنهم في مَنَعة، لا يُبالي معها بأحد ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أمرُ الله وقَدَرُه المقدور لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ ولم يخطر ببالهم، وهو قتل رئيسهم، فإنه مما أضعف قوتهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي أثبت فيها الخوف الذي يرعبها أي يملؤها فزعاً ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليسدوا بها أفواه الأزقة، ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث كانوا يخربونها إزالة لمتحصنهم، وتوسيعاً لمجال القتال ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة، واتقوا مباشرة ما أدَّاهم إليه من الكفر والطغيان، وفي الآية دليل على جواز القياس.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي الخروج عن أوطانهم مع الأهل ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ بالقتل والسبي، كما فعل ببني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ

عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ وهو لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا بالجلاء، لا نجاة لهم من عذاب الآخرة بنار الجحيم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما حاق بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ أي خالفوه وفعلوا ما فعلوا مما حكى عنهم والاقتصار على ذكر مشاقته تعالى لتضمنها مشاقته ﷺ وليوافق قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ اللِّينةُ: النخلةُ الكريمة، أيْ أيَّ شيء قطعتم من نخلة كريمة ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما كانت من غير أن تتعرضوا لها بشيء ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمر الله تعالى وإرادته ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي وليذل اليهود ويغيظهم، واستدل به على جواز هدم ديار الكفرة، وقطع أشجارهم، روي أن اليهود قالوا: يا محمد قد كنتَ تنهى عن الفساد، فما بال قطع النخل، وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء، فنزلت هذه الآية.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي ما أعاده إليه من مالهم، وفيه إشعار بأنه كان حقيقاً بأن يكون له ﷺ، وإنما وقع في أيديهم بغير حق، فأعاده الله تعالى إلى مستحقه، لأنه تعالى خلق الناس، وخلق ما خلق ليتوسلوا به

إلى طاعته، فهو جدير بأن يكون للمطيعين ﴿مِنۡهُمۡ﴾ من أهل النضير ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي لم تسرعوا الخيل ولم تتعبوا في تحصيله، من الوجيف وهو سرعة السير ﴿مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ هي ما يركب من الإبل خاصة، كما أن الراكب عندهم راكبها لا غير، وأما راكب الفرس فإنما يسمونه فارساً، ولا واحد لها من لفظها، وإنما الواحدة منها راحلة، والمعنى: ما قطعتم لها شقة بعيدة، ولا لقيتم مشقة شديدة، ولا قتالاً شديداً، وذلك لأنه كانت قراهم على ميلين من المدينة، فمشوا إليها وما كان فيهم راكب إلا النبي ﷺ، فافتتحها صلحاً، من غير أن يجري بينهم مسايفة، كأنه يقول: وما أفاء الله على رسوله منهم، فما حصلتموه بكدِّ اليمين، وعرق الجبين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي سننه تعالى جارية على أن يسلّط رسله على من يشاء من أعدائهم، تسليطاً خاصاً، وقد سلَّط النبيَّ ﷺ على هؤلاء تسليطاً غير معتاد، من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب، فلا حقَّ لكم في أموالهم، فالأمر فيه مفوَّض إليه ﷺ يضعه حيث يشاء، قيل: إن الصحابة طلبوا من الرسول ﷺ أن يقسم الفيء كما قسم الغنيمة، فذكر الله تعالى الفرق بين الأمرين، فقسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار إلاَّ ثلاثة منهم لفقرهم، وعن بعض المفسرين أن هذه الآية ما نزلت في فيء بني النضير، لأنهم أوجفوا عليهم وحاصروهم، بل هو في «فَدَك» لأن أهل فَدَك انجلوا عنها، فصارت تلك القرى والأموال في يد رسول الله ﷺ من غير حرب، فكان ﷺ يأخذ من غلة فدك نفقته، ونفقة من يعوله، ويجعل الباقي في السلاح والخيل ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء.

> ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أعاد عين العبارة الأولى، لزيادة

التقرير والبيان، أي ما جعله الله غنيمة للمسلمين بغير قتال، وهو ما يسمى بالفيء ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ اختلف في قسمة الفيء، فقيل يصرف حقُّ الله إلى عمارة الكعبة المشرفة، وسائر المساجد، وقيل: يُخمَّس لأن ذكر الله للتعظيم، ويصرف سهم الرسول إلى العساكر والثغور وإلى مصالح المسلمين ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ ﴾ بضم الدال، وهي ما يدول للإنسان أي يدور من المال والغنى والغلبة، أي كيلا يكون محبوساً ﴿ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ أي كيلا يكون الفيءُ شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم، فلا يصيب الفقراء منه شيءٌ، كما كان الأمر في الجاهلية، حيث كانوا يقولون: من عزَّ بزَّ، أي من غلب سلب المال والدُّولة: اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي وما أعطاكم الرسول من الأمر ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أي فتمسكوا به فإنه واجب عليكم ﴿ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ أي نهاكم عن فعله ﴿ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ أي فكفُّوا عنه، وعن تعاطيه واجتنبوه ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في مخالفته ﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فيعاقب من يخالف أمره أو نهيه، والآية عامة في كل ما أمر رسول الله ﷺ ونهى عنه، والفيء داخل فيها.

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ﴾ أي إنما كان الفيء خاصاً بهؤلاء الفقراء المهاجرين لحاجتهم واضطرارهم ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ حيث اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من الوطن، فخرجوا منه ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا، ومرضاةً في الآخرة، وصفوا أولاً بما يدل على استحقاقهم للفيء، من الإخراج من الديار والأموال، وثانياً بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده، وهو أن خروجهم لم يكن للدنيا، وإنما كان نصرة للدين وطلباً لمرضاة الله ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما فُصِّل من الصفات الحميدة ﴿ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ أي الراسخون في الصدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهوراً بيناً.

إنه تعالى وصفهم بأمور: ١ ـ أنهم فقراء ٢ ـ مهاجرون ٣ ـ أخرجو من ديارهم ٤ ـ يبتغون من فضله تعالى ٥ ـ ينصرون الله ٦ ـ أولئك هم الصادقون.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ كلام مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة، من جملتها محبتهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسن رضا، ومعنى تبوئهم الدار أنهم اتخذوا المدينة ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ مباءة، وتمكنوا فيها أشد تمكن، على تنزيل الحال منزلة المكان، وقيل المعنى: تبوؤوا دار الهجرة، ودار الإيمان، سمى المدينة بالإيمان لكونها منشأه ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل هجرة المهاجرين، فإنهم أسلموا في ديارهم، وآثروا الإيمان، وابتنوا المساجد، قبل قدوم النبي ﷺ بسنتين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتى شاركوهم أموالهم، وأنزلوهم منازلهم، ونزل من كانت له امرأتان عن إحداهما، حتى يتزوج بها رجل من المهاجرين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ أي في نفوسهم ﴿حَاجَةً﴾ أي شيئاً محتاجاً إليه، بمعنى الضيق والنقمة على إخوانهم المهاجرين ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي مما أولي المهاجرون من الفيء وغيره ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي يقدِّمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي ولو كان بهم فقر وحاجة، وكان النبي ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئاً إلاَّ ثلاثة نفر لفقرهم، قال لهم رسول الله ﷺ: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة، فقالت الأنصار: بل نقسم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة، ولا

نشارككم فيها، فنزلت الآية تثني عليهم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ ومن يوق بتوفيق الله تعالى بخل نفسه حتى يخالفها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى «مَنْ» باعتبار معناها العام ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بكل مطلوب والناجون عن كل مكروه، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُحَّ فإن الشُحَّ أهلك من قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هم التابعون بإحسان، وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، ولذلك قيل إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين ﴿يَقُولُونَ﴾ إلخ مسوق لمدحهم لمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين، ومراعاتهم لحقوق الأخوَّةِ في الدين؛ أي يدعون لهم ويقولون ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي لإخواننا في الدين، الذي هو أعزُّ وأشرف عندهم من النسب، وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي حقداً وحسداً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على الإطلاق ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة، فحقيق بأن تجيب دعاءنا، بيَّن الله تعالى أنَّ من جاء بعد المهاجرين والأنصار، يذكرون السابقين بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك، بل ذكرهم بسوء كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين، بحسب نص هذه الآية، عن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «يا ابنَ أختي!! أُمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٨ باب تحريم الظلم.

الله ﷺ، فسبُّوهم، فأولئك شرار الخلق عند الله»[1] وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[2].

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة، وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين وأقوالهم، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد ﴿ يَقُولُونَ ﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ﴿ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ والمراد بإخوَّتهم توافقهم في الكفر، وموالاتهم لهم في الضلال ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم قسراً ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ جواب القسم، أي والله لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم أينما ذهبتم ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ أي في شأنكم ﴿ أَحَدًا ﴾ يمنعنا من الخروج معكم ﴿ أَبَدًا ﴾ وإن طال الزمان ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ أي لنعاوننكم على عدوكم ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في مواعيدهم المؤكدة بالأيمان الفاجرة، وفيه إخبار بالغيب.

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في التفسير رقم ٣٠٢٢ وفي رواية للترمذي «إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابي، فقولوا: لعنةُ الله على شركم».

(٢) الحديث أخرجه البخاري ٧/٢٨ ومسلم رقم ٢٥٤١ في فضائل الصحابة.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ تكذيب لهم في كل واحد من أقوالهم على التفصيل، بعد تكذيبهم على الإجمال ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك فإن ابن سلول وأصحابه أرسلوا إلى «بني النضير» ذلك سراً، ثم أخلفوهم، وفيه حجة بينة لصحة النبوة، وإعجاز القرآن ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي المنافقون بعد ذلك، أي يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، ثم قال تعالى للمؤمنين:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي أشد خشية وخوفاً ﴿فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي رهبتهم في السر أشد ممَّا يظهرونه لكم من رهبة الله، فإنهم كانوا يدَّعون عندكم رهبة عظيمة من الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي شيئاً حتى يعلموا عظمة الله تعالى وجلاله، فيخشوه حق خشيته.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي اليهود والمنافقون، لا يقدرون على قتالكم مجتمعين، في موطن من المواطن ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق لفرط جبنهم وهلعهم ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي من وراء الأسوار والحيطان، دون أن يظهروا أمامكم ويبارزوكم، لفرط رهبتهم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي ما ذكر من رهبتهم منكم، ليس لضعفهم وجبنهم في

أنفسهم، فإن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما جبنهم بالنسبة إليكم بما قذف الله تعالى في قلوبهم من الرعب ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين ومتفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة، لا ألفة بينهم، لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من تشتت قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً حتى يعرفوا الحق، ويتبعوه، وتطمئن به قلوبهم، وتتحد كلمتهم، وهذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل اليهود كمثل كفار مكة الذين خرجوا لقتال رسول الله ﷺ في بدر ﴿قَرِيبًا﴾ أي في زمان قريب ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فحال اليهود هكذا، وأما حال المنافقين، فهو ما نطق به قوله تعالى.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي مثل المنافقين الذين غرُّوا الكفَّارَ كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ إغراءً على الكفر ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ فهذا التبري يكون يوم القيامة، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه، إن كفرتُ به، وهو كاذب في هذا القول، لأنه لو خاف الله لما عصاه.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي عاقبة الكافر والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ

﴿فِيهَاۚ﴾ أي دائمين في النار المؤبدة ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي الخلود في النار ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عقوبة كل ظالم فاجر، منتهك لمحارم الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ أيْ أيَّ شيء قدمت من الأعمال، ليوم القيامة، عبر عنه بالغد لدنوّه وقرب مجيئه، أو لأن الدنيا كيوم، والآخرةُ غدُه، وتنكيره للتفخيم والتهويل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ تكرار للتأكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من المعاصي، وفيه تحريض على المراقبة.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ أي نسوا حقوقه وما قدروه حق قدره، ولم يراعوا أمره ونواهيه ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ﴾ بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي جعلهم ناسين لها، فعاشوا كالبهائم والأنعام، حتى لم يسمعوا ما ينفعها، ولم يفعلوا ما يخلّصها من عذاب الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي الكاملون في الفسوق والعصيان.

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾.

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود في نار السعير ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ أي لا يتساوى هؤلاء وهؤلاء ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ

﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي هم السعداء، الفائزون بكل مطلوب، فالجملة مبيِّنة لكيفية عدم الاستواء.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أيَّ جبلٍ من الجبال، مع كونه عَلَماً في القسوة، وعدم التأثر مما يصادمه، أي لرأيته متشققاً من خشية الله تعالى، وهذا تمثيلٌ وتخييل، لعلو شأن القرآن الكريم، وقوة تأثير ما فيه من المواعظ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وعدم تخشعه عند تلاوته، وقلة تدبره فيه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ أي ما غاب عن الحسّ وما حضر له، وتقديم الغيب لتقدمه في الوجود ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه، كرره لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ البليغ في النزاهة، النزاهة في الذات، والصفات والأفعال، والأحكام، والأسماء ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة

من كل نقص ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي واهب الأمن ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي الرقيب الحافظ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراد ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الزوجة والولد، والشريك والنظير.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئا من التفاوت ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفيتها كما أراد ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لدلالتها على المعاني الحسنة ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي ينزّهه تبارك وتعالى جميع ما في الكون، ناطقُه وجامدُه، بلسان الحال أو المقال، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه. عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وَكَلَ اللهُ به سبعين ألف ملك، يصلُّون عليه حتى يمسي، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان كذلك»(١) والله أعلم بالصواب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر»

* * *

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٩٢٣ وقال: هذا حديث غريب، ورواه الدارمي ٤٥٨/٢ وانظر جامع الأصول ٨/ ٤٨٢.

سُورَةُ المُمْتَحنَة

مدنية وآيها ثلاث عشرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيه دليل على أن الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان عن صاحبها ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ نزلت في «حاطب بن أبي بلتعة» وذلك أنه لمَّا جهز رسول الله ﷺ لغزوة الفتح، كتب حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذركم، وأرسله مع سارة مولاة بني المطلب، فنزل جبريل عليه السلام بالخبر على رسول الله ﷺ، روى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب قال: بعثني ﷺ أنا والزبير، والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة[1] معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا تتعادىٰ بنا خيلنا، حتى أتينا الروضة فإذا نحن

---

(١) ظعينة أي امرأة مسافرة.

بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب!! فقلنا: لتُخرجِنَّ الكتاب أو لتلقينَّ الثياب، فأخرجته من عِقاصها ـ ضفائر شعرها ـ فأتينا به النبيَّ ﷺ، فإذا فيه «من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ فقال: يا رسول الله لا تعجلْ عليَّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين، لهم قرابات، يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتَّخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلته كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا أرضى بالكفر بعد الإسلام!! فقال ﷺ: إنه قد صَدَقكم، فقال عمر: دعْني يا رسول الله أضربْ عنقَ هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟! ففاضت عينُ عمر رضي الله عنه، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[1] الآية ﴿تُلْقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ والتقديرُ: لا تتخذوهم أولياء ملقين ﴿إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي تطلعونهم وتلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، بسبب المودة التي بينكم وبينهم ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي وقد كفروا بدينكم وقرآنكم ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليل للنهي عن الموالاة، أي يخرجون رسول الله من وطنه، ويخرجونكم من مكة لإيمانكم ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ أي لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ كلام وارد على نهج العتاب والتوبيخ، أي تفشون إليهم الأخبار بسبب المودة ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي والحال أني أعلم منكم بما أخفيتم، ولم يقل «بما أسررتم» لأن الإخفاء أبلغ من الإسرار، دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أيْ أخفى من السرّ ﴿وَمَا أَعلَنتُم﴾ أي وما أظهرتموه، فأنا عالم بسريرتكم

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣/ ٢٠٠، والترمذي رقم ٣٣٠٥.

وعلانيتكم، ومطلعٌ رسولي على ما تسرون، فأيُّ طائلٍ لكم في الإسرار؟! ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي إلقاء المودة إليهم، فقد أخطأ طريق الصواب.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي يظفروا بكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي يظهرون لكم ما في نفوسهم من خالص العداوة، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقتل، والشتم، والأسر ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تمنّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، فإن موادة أمثالهم خطأ عظيم منكم، وصيغة الماضي لتحقق ودادتهم الكفر قبل ذلك.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين توالون الكفار من أجلهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بجلب نفع، أو دفع ضر ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ من أخِيهِ﴾ الآية، فما لكم ترفضون حق الله، مراعاةً لحق من يفر منكم غداً ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة في التبرؤ من الأهل أي خصلة حميدة، حقيقة بأن يُؤتَسىٰ ويُقتدى بها ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي من أصحابه المؤمنين به ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ﴾ المشركين ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من الأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي بدينكم وبمعبودكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ﴾ بالأفعال ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ بالقلوب ﴿أَبَدًا﴾ هذا دأبنا لا نتركه ما دمتم على الكفر ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فتنقلب العداوة حينئذ ولاية، والبغضاء محبة ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء من قوله تعالى: ﴿أسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فإن استغفاره لأبيه الكافر، وإن كان جائزاً عقلاً وشرعاً، لوقوعه قبل أن يتبيَّن له أنه من أصحاب الجحيم، كما نطق به النص: ﴿فلما تبيَّن له أنه عَدُوٌّ لله تَبرَّأ منه﴾ فهذا ممَّا لا ينبغي أن يُؤتى به أصلاً ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من تمام المستثنى أي أستغفر لك، وليس في طاقتي إلا الاستغفار ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ من تمام ما نقل عن إبراهيم عليه السلام، أي وقولوا في دعائكم كما قال إبراهيم: ربنا عليك اعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي أقبلنا ورجعنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع في جميع أمورنا.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنوننا بعذاب لا نحتمله ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يذل من التجأ إليه، ولا يخيب رجاء من توكَّل عليه، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي قدوة حسنة في معاداة الكفار، في إبراهيم ومن معه من المؤمنين، كرره للمبالغة في الحث على التأسي به عليه السلام، ولذلك صدر بالقسم ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي لمن كان صادق الإيمان، يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، وفائدته الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، لا يترك الاقتداء بهم، وأنَّ تركه من مخايل عدم الإيمان بهما، كما ينبيء قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فإنه مما يوعد بأمثاله الكفرة، ولمَّا نزلت هذه الآية، وتشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين، أطمعهم تعالى في تحول الحال إلى خلافه، فقال سبحانه:

﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي من أهل مكة من أقربائكم ﴿مَّوَدَّةً﴾ بأن يوفقهم الله للإيمان، فلما يسَّر الله فتح مكة، أسلم قومهم، وتم بينهم التحابُّ، تحقيقاً لوعد الله الكريم، و «عسى» وعدٌ من الله تعالى على عادات الملوك ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تحويل الحال، وتقليب القلوب، وتسهيل أسباب المودة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يغفر لكم ما فرط منكم، في موالاتهم من قبل.

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي

تكرموهم، وتحسنوا إليهم، قولاً وفعلاً ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ ولا تظلموهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادلين، وإذا نهى الله تعالى عن الظلم في المشرك، فكيف في المسلم؟.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي إنما يحذركم الله من موالاة من حاربكم، وقاتلكم، وآذاكم بسبب الدين، وأخرجكم من وطنكم ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي وأعانوا أعداءكم الكفار عليكم أن تتخذوهم أولياء وأنصاراً وأحباباً ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من بين أظهر الكفار ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهنَّ، بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن في الإيمان، سمَّاهن مؤمنات لنطقهنَّ بكلمة الشهادة، يروى أن رسول الله ﷺ كان يقول للتي يمتحنها: «قولي بالله الذي لا إله إلا هو، ما خرجتُ من بغض زوج، وما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجتُ إلا حبّاً لله ورسوله» نزلت الآية بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يردَّ على أهل مكة من جاء مؤمناً منهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، بياناً أن

ذلك في الرجال لا في النساء، لأن المسلمة لا تحل للكافر ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ منكم لأنه المطلع على ما في قلوبهن ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ﴾ بعد الامتحان ﴿مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ علماً يمكنكم تحصيله، وتبلغه طاقتكم، بعد الاستدلال بالعلائم والدلائل، وهو الظن الغالب، وتسميته علماً للإيذان بأنه جار مجرى العلم، في وجوب العمل به، وما يفضي إليه الاجتهاد كذلك جارٍ مجرى العلم ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾ إلى أزواجهن الكفرة، لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾ أي لا حلَّ بين المؤمنة والمشرك، لوقوع الفرقة بينهما، بخروجها مسلمة ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ التكرير لتأكيد الحرمة، أو لأن الأول لبيان زوال النكاح، والثاني لبيان امتناع النكاح الجديد ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ أي وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك لأن الصلح جرى على أنَّ من جاءنا منكم رددناه، فلما تعذَّر ردُّهن عليهم لورود النهي عنه، لزم ردُّ مهورهن، روي أنه ﷺ بعد صلح الحديبية جاءته «سُبيعة بنت الحارث» مسلمة، فأقبل زوجها المخزومي طالباً لها، فنزلت الآية، فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق، وتزوجها عمر رضي الله عنه ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإن إسلامهن حال بينهن وبين أزواجهن الكفرة ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ أي مهورهنَّ، لأن المهر أجر البضع، وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله على أن لا عدة على المهاجرة ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ جمع عصمة، أي لا يكن بينكم وبين المشركات عصمة، ولا علاقة زوجية، والكوافر جمع كافرة، وهي التي بقيت في دار الحرب، أو لحقت بها، نهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، قال الزهري: لمَّا نزلت هذه الآية، طلَّق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا بمكة مشركتين ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ من مهور أزواجهم المهاجرات ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الذي ذُكر ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ﴾ أي شرعه العادل بينكم وبين أعدائكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة.

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون، أي وإن انفلت ﴿شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي أحد من أزواجكم إلى الكفار فلحقن بهم مرتدّات، وإيقاع ﴿شيء﴾ موقعه للتحقير، ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي فجاءت عُقْبتكم أي نوبتكم، من أداء المهر، والعُقْبةُ بالضم: النَّوبةُ، جمعه عُقَب، مثل غُرفة وغُرَف، شبَّه ما حكم به على المسلمين والكافرين، من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة، وأداء هؤلاء أخرى، بأمرٍ يتعاقبون فيه، كما يتعاقب الناس في الركوب ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ من مهر المهاجرة التي تزوجتموها، ولا تؤتوا زوجها الكافر، وقيل معناه: إن فاتكم شيءٌ فأصبتم من الكفار عقبى هي الغنيمة، فأتوا بدل الفائت من الغنيمة، روي أنه لما نزلت الآية السالفة أدى المؤمنون ما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين، وأبى المشركون أن يؤدُّوا شيئاً من مهور الكوافر، إلى أزواجهن المسلمين، فنزلت هذه الآية ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فإن الإيمان به تعالى، يقتضي التقوى منه والخوف والحذر، قال ابن عباس: لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ستُّ نسوةٍ، فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهور نسائهن من الغنيمة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ أي قاصدات للمبايعة، نزلت يوم الفتح، فإنه ﷺ لمَّا فرغ من بيعة الرجال، شرع في بيعة النساء، وهو على

الصفا فجاءته النساء فقال ﷺ: أبايعهن ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الإشراك ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي لا يفعلن جريمة السرقة والزنى ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أريد به وأدُ البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كنِّيَ عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها، لأنَّ بطنها الذي تحمله بين يديها، ومخرجه بين رجليها ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ أي فيما تأمرهن بمعروف، والتقييدُ بالمعروف، للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق، وقال ابن المسيب: ممَّا تأمرهنَّ به، وتنهاهن عنه، كالنوح، وتمزيق الثياب، وجزّ الشعر، ولا تحدث الرجال إلا إذا كان ذا رحم محرم، ولا تخلو برجل غير محرم، وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر، لكثرة وقوعها فيما بين النساء ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي على ما ذُكر وعلى سائر أركان الدين ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ زيادة على ما في ضمن المبايعة، فإنها عبارة عن طلب الثواب، بمقابلة الوفاء بالأمور المذكورة من قبلهن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة، فيغفر لهن ويرحمهن، إذا وفين بما بايعن عليه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية، وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط»(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم عامة الكفرة،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/٦٣٦ وفيه قول عائشة رضي الله عنها: «ما يبايعهنَّ إلاّ بقوله: قد بايعتُكِ على ذلك، ولا واللهِ ما مست يدُه يد امرأة قطُّ في المبايعة».

وقيل: اليهود، لما روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين، كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ من ثوابها، لكفرهم بها أو لعلمهم بأنهم لا خلاق لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي كما يئس منها الذين ماتوا منهم، لأنهم وقفوا على حقيقة الحال، وشاهدوا حرمانهم من نعيمها وقيل: المعنى كما يئسوا من موتاهم أن يبعثوا أو يرجعوا إلى الدنيا أحياء. والله أعلم بالصواب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الممتحنة»

* * *

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية وآيها أربع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مجّد اللهَ ونزّهَهُ كل ما في الكون من مَلَك، وإنسان، ونبات، وجماد، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ②﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ روي أنهم قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه، فلمّا نزلت آية الجهاد، تباطأ بعضهم، فنزلت هذه الآية[1] ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أيْ لأيِّ شيء تقولون نفعل، ما لا تفعلون من الخير والمعروف؟ والتوبيخ في الحقيقة

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٣٠٩ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ، ورواه أحمد في المسند، وانظر تفصيل الروايات في تفسير ابن كثير ٣٨١/٤.

على عدم فعلهم، وإنما وجهها إلى قولهم، تنبيهاً على تضاعف معصيتهم، ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط، بل الوعد به أيضاً، ولو قيل لم لا تفعلون ما تقولون، لفُهم منه أن المنكر هو ترك الموعود.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ اختير لفظ المقت، لأنه أشد البغض، ومن استوجب مقت الله لزمه العذاب، أي عَظُم فعلكم هذا بغضاً عنده سبحانه، أن تتحدثوا بما لا تعملون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي يصفُّون أنفسهم للقتال صفاً، وهذا صريح في أن ما قالوه، عبارة عن الوعد بالقتال، لا عما يقوله الممتدح أو غيره ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي لاصقٌ بعضهم ببعض كقطعة واحدة (١).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ كلام مقرِّرٌ لما قبله، من شناعة ترك القتال، أي اذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال، وقت قول موسى لبني

---

(١) شبَّهم تعالى في ثباتهم وصمودهم أمام الأعداء، بالبناء المحكم الرصين، الذي رُصِفت حجارته، فرُصَّ بعضها إلى بعض، حتى صار متماسكاً، كالسدِّ المنيع، الذي لا يتفكّك ولا يتزعزع، ولا تؤثر فيه الأعاصير، وهو تشبيه رائع بديع ولهذا قال: ﴿كأنهم بُنيانٌ مرصوص﴾!!.

إسرائيل، حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ التي كَتَبَ اللهُ لَكُم﴾ فلم يمتثلوا أمره، وعصوه حيث قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾ فآذوه كلَّ الأذية ﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به؟! هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم، ويرتضيه الذوق السليم، وأما ما قيل إنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من طلبهم رؤية الله، وغير ذلك، فممَّا لا تعلُّق له بالمقام ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بما جئتكم به من المعجزات الواضحة، أي والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً مستمداً بمشاهدة ما ظهر على يدي من المعجزات، أني رسول الله إليكم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي أصرُّوا على الزيغ عن الحق ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي صرفها عن قبول الحقِّ، لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال، وفيه تنبيه على عظم إيذاء الرسول فإنه يؤدي إلى الكفر، وزيغ القلوب عن الهدى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ﴾ هداية موصلة إلى معرفة الحق ﴿ ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ الخارجين عن الطاعة، ومنهاج الحق.

> ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي أرسلت إليكم حال كوني مصدِّقاً لرسالة موسى، ولما جاء في التوراة ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ أي ومبشراً بمن يأتي من بعدي من رسول اسمه أحمد، ويسمى أيضاً محمد[1] ، وجاء في الإنجيل تسميته بالفَارْقليط

---

(١) ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» أخرجه الشيخان، ومعنى العاقب الذي لا نبي بعده.

ومعناه الرسول الهادي، ففي إنجيل «يوحنَّا»: «هكذا وأنا أطلب لكم إلى أبي، حتى يمنحكم ويعطيكم «الفارقَليط» وهو روح الحق اليقين» هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربية. وفي مكان آخر: «أمَّا الفارْقَلِيط روح القدس، يرسله أبي باسمي، ويعلّمكم، ويمنحكم جميع الأشياء» ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مشيرين إليه ﷺ وتسميتهم سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة ﴿هذا ساحر﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؟ أيْ أيُّ الناس أشدُّ ظلماً ممن يدعى إلى الإسلام، فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله، بقوله: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾؟ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم لظلمهم.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي يريدون أن يطفئوا دينه، ويبطلوا شريعة الإسلام ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بطعنهم فيه، شبهت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي مبلغه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلك، فالإسلام منتصر رغم أنوف الكافرين.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالقرآن أو المعجزة ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي الملة الحنيفية ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على جميع الأديان

له، ولعمري لقد فعل ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك، فقد حقَّق الله وعده، فانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلا فوق جميع الأديان، ولله الحمد والمنَّة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ عرضٌ في معنى الأمر، كأنه يقول: آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله بالأموال والأنفس ﴿عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ هي التجارة بين أهل الإيمان، وبين الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نزلت هذه الآية، حين قالوا: لو نعلم أيُّ الأعمال أحب إلى الله لعملناه؟.

ثم بيَّن تعالى تلك التجارة. فقال:

﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ والمراد به الأمر، جيء بلفظ الخبر، إيذاناً بأن ذلك لا يُترك ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم لما تأخرتم عن البذل والجهاد.

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ جواب للأمر، المدلول عليه بلفظ الخبر ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي قصوراً عالية مريحة في

جنات إقامة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من المغفرة، وإدخال الجنة ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾.

﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ أي تجارة أخرى ﴿تُحِبُّونَهَاۖ﴾ وفي تحبونها تعريضٌ بأنهم يؤثرون العاجلَ على الآجل ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو ربح التجارة ﴿وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ هو فتح مكة، وفتح فارس والروم ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يا رسول الله بشِّرهم، بما وعدتهم على ذلك عاجلاً وآجلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دينه، أمر بإدامة النصرة، والثبات عليه، أي ودوموا على ما أنتم عليه من النصرة ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ أي من جندي متوجهاً إلى نصرة دين الله والتشبيه باعتبار المعنى، أي انصروا دين الله، كما نصر الحواريون دين الله ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ أي نحن أنصار دينه ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بعيسى عليه السلام ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ به عليه السلام ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ بالحجة القاطعة، أو بالحرب، وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فصاروا غالبين، والله ولي المؤمنين، والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف»

* * *

سُورَةُ الجُمُعَةِ

مدنية آيُها إحدى عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾.

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ أي هو جلَّ وعلا برحمته وحكمته، بعث في العرب رسولاً من جملتهم، أمياً مثلهم، لا يقرأ ولا يكتب، وسموا أمّيين لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون، والحكمة في اقتصاره على ذكر الأميين، مع أنه رسول إلى كافة الخلق، تشريف العرب بأن خاتم النبيّين ﷺ بُعث منهم، وليس من بني إسرائيل ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن المبين، من حفظه لا من الكتاب

المنزل ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهّرهم من الشرك، وخبائث الجاهلية ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم، والسنة النبوية المطهرة، الركنان الأصليان للشريعة الإسلامية الغراء، ولو لم يكن سوى القرآن العظيم معجزة معه لكفاه ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي وقد كانوا قبل بعثة النبي في ضلال واضح، وكفر وجهالة، وهو بيان لشدة الحاجة إلى نبيّ يرشدهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي وبعث خاتم النبيّين إلى قوم آخرين، لم يكونوا في زمانهم، وسيجيئون بعدهم، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة، والمعنى: لم يلحقوا بهم وسيلحقون بهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو سبحانه القوي الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه، حيث اختاره من بين كافة البشر.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي ذلك الشرف والفضل، الذي خصّ الله به العرب، من نزول القرآن بلغتهم، وإرسال خاتم الرسل إليهم، هو فضل الله يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو جلّ وعلا ذو الفضل الواسع، على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.

ثم شرع تعالى في ذمّ اليهود، الذين أكرمهم الله بالتوراة، فلم ينتفعوا بها ولم يطبّقوها، وشبههم بالحمار الذي يحمل الأسفار، فقال سبحانه:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أي مثل اليهود الذين أُعطوا التوراة، وكُلِّفوا بالعمل بها، ثم لم يطبّقوها ولم يعملوا بما فيها ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أي مثلهم كمثل الحمار، الذي يحمل الكتب الضخمة النافعة، ولا يناله منها إلاّ التعب والعناء، شبّههم تعالى والتوراة في أيديهم، وهم لا يعملون بها، بالحمار يحمل الكتب، وليس له إلاّ ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بئس هذا المثل، الذي ضُرب لليهود، مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله، الدالة على نبوته ﷺ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي لا يوفّق للخير، ولا يرشد للإيمان، من كان فاسقاً ظالماً، عاصياً لأمر الله، يضع التكذيب في موضع التصديق.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود، الزاعمين أنهم أولياء الله وأحبابه، إن كنتم حقاً أحبابه كما تدَّعون ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي فتمنوا من الله أن يميتكم، لِتُنْقَلوا من دار البلاء إلى دار الكرامة، والآية ردٌّ على قولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وتكذيب لهم في هذه الدعوى ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أي إن كنتم صادقين في محبتكم وولايتكم لله، فإن من أيقن أنه من أهل الجنة، أحبَّ لقاء الله، لينال الفوز والسعادة، بجوار مِلك الملوك، ربِّ العزَّة والجلال.

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ ﴾ أي ولا يتمنون الموت بحالٍ من الأحوال، بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي، وتكذيب الرسول عليه السلام، وهذه من معجزات القرآن، حيث أخبر عنهم خبراً جازماً قاطعاً

بعدم تمني الموت، وقد وقع ما أخبر عنه، وفي الحديث الشريف: «لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات». ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي عالم بهم، وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد، إن هذا الموت الذي تهربون منه، ولا تجسرون أن تتمنوه، فإنه آتيكم لا محالة، ولا ينفعكم الفرار منه، لأنه قدر محتوم، ولا يغني حذر عن قدر ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي ثم ترجعون إلى رب العزة والجلال، الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم القبيحة.

ثم شرع تعالى في بيان أحكام فريضة الجمعة فقال تقدست أسماؤه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي إذا سمعتم الأذان ينادىٰ به لصلاة الجمعة ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي فامضوا وامشوا إلى الخطبة والصلاة، واتركوا البيع والشراء، وسائر الأعمال الدنيوية، لتنالوا رضوان الله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك السعي للصلاة، وترك البيع والشراء، والتجارة والعطاء، خير لكم وأنفع من تجارة الدنيا، فإن نفع الآخرة خير وأبقى، قال الحسن البصري: والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكنه سعيٌ بالقلوب، والعزائم، والخشوع.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي أديتم الصلاة وفرغتم منها ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أمر إباحة لإقامة مصالحكم ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي اطلبوا الرزق أو زيارة أخ في الله، وعن بعض السلف أنه كان يقول: «اللهم أجبتُ دعوتك، وصلَّيتُ فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني وأنت خير الرازقين» ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي اشكروه على ما وفقكم لأداء فريضته، واذكروه في مجامع أحوالكم، ذكراً كثيراً وزماناً كثيراً ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كي تفوزوا بخير الدارين، وتسعدوا بنيل رضوان الله.

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي تفرَّقوا عنك إليها وتقديره: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «بينما نحن نصلي مع الرسول ﷺ، إذْ أقبلت عير ـ أي جمال ـ تحمل طعاماً، فانفلتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية»[1].

وقال الحسن: أصاب أهلَ المدينة جوعٌ وغلاءُ سِعْرٍ، فقدم دحيةُ الكلبي قبل أن يُسلم، وكان معه أنواع التجارة من الشام، والنبي ﷺ يخطب، فلمّا رأوه قاموا إليه، وكانوا إذا أقبلت العير، استقبلوها بالطبل، والتصفيق، وهو المراد باللهو هنا ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ أي على المنبر[2] ﴿قُلْ مَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٦٤٢ باب «وإذا رأوا تجارة».

(٢) هذا إنما حدث منهم، لأن الصلاة كانت قبل الخطبة، كما نبّه عليه الحافظ ابن كثير =

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فإن ذلك نفع محقّق مخلَّد، بخلاف ما فيهما من النفع المتوهَّم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ اطلبوا منه تعالى الرزق، فهو الرزَّاق ذو القوة المتين، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة»

* * *

= رحمه الله، وإلاَّ فمحالٌ على أصحاب رسول الله، أن يتركوا الصلاة، ويخرجوا من أجل التجارة، ثم أصبحت الخطبة قبل الصلاة، كما هو عليه الحال الآن، بأمر الله جلَّ وعلا.

سُورَةُ المنَافِقُون

مدنية آياتها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ أي حضروا مجلسك، وهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿قَالُوا نَشْهَدُ﴾ أرادوا شهادة واطأت فيها قلوبُهم ألسنتهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ مؤكدين كلامهم بإن واللام، للإيذان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم القلب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ اعتراض مقرر لمنطوق كلامهم، أي والله يعلم أن الأمر كذلك أنك رسول الله ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في ادعاء الصدق، لأنهم لم يعتقدوا ذلك، وأضمروا خلاف ما أظهروا، وهذا يدل على أن حقيقة الإيمان بالقلب، وكل من أخبر عن شيء واعتقد خلافه فهو كاذب، والإظهار في موضع الإضمار، لذمِّهم، وبيان كذبهم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ ﴾ أي وقاية من السبي، والقتل، واتخاذها جُنَّة عبارة عن تهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها، ويتخلصوا عن المؤاخذة ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي منعوا الناس عن الإسلام، بالتنفير، وإلقاء الشُّبَه، ومنع الناس عن الجهاد ﴿ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ من نفاقهم، وصدِّهم، وفي «ساء» معنى التعجب، الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما وصف من حالهم في النفاق، والكذب، والصد عن سبيل الله ﴿ بِأَنَّهُمۡ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ أي نطقوا بكلمة الشهادة، فآمنوا بألسنتهم، وكفروا بقلوبهم، ثم ظهر كفرهم، بما شوهد منهم من شواهد الكفر ودلائله ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ فختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان ولا يتدبرون ﴿ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ حقيقة الإيمان، لأنهم تمرنوا على الكفر والضلال.

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٤ ﴾.

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يسمع، أي إذا نظرت إليهم أعجبتك أجسامهم، لضخامتها ومناظرها فقد كان عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رجلاً جسيماً، صبيحاً، فصيحاً، وطائفةٌ من المنافقين في مثل صفاته، فكانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ، ويعجب الناس بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ ﴾ لفصاحتهم، وحلاوة كلامهم ﴿ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ ﴾ شُبِّهوا في جلوسهم، بخُشُب

منصوبة، مستندة إلى الحائط، في كونهم أشباحاً خالية من العلم والخير، والخُشُب لا تعقل ولا تفهم، فكذلك أهل النفاق في حسن صورهم، وقلة جدواهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي واقعة عليهم، وضارة لهم، لفزعهم ورعبهم، فقد كانوا على وَجَل من أن يُنزل الله فيهم ما يهتك أسرارهم، ويبيح دماءهم وأموالهم ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي هم الكاملون في العداوة، لأن أعدى الأعداء العدوُّ المداجي، الذي يكاشرك، وتحت ضلوعه الداء الدفين ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا تغترز بظاهرهم، فإنهم وإن كانوا معك، عيون لأعدائك ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي أهلكهم الله ولعنهم، كيف يعدلون عن الحق، إلى الضلال والباطل؟.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عند ظهور جنايتهم بطريق النصيحة ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي تعالوا إلى رسول الله ﷺ، فاعتذروا لديه ليطلب لكم المغفرة من الله، وذلك حين نزل القرآن بصفة المنافقين، مشى إليهم عشائرهم من المؤمنين، فقالوا لهم: ويلكم افتضحتم بالنفاق، فأتوا رسول الله واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي أداروها وعطفوها استكباراً عن ذلك ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون عن الناصح، وعن طلب الاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار، لغاية ضلالهم ونفاقهم.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ يستوي لديهم إذا جاؤوا معتذرين من جناياتهم ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إذا أصروا أو لم يأتوا وأصرُّوا على قبائحهم، واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ما داموا

على النفاق، وإصرارهم على الفسق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة، لانهماكهم في الكفر والفسق، والمراد إما هم بأعيانهم، وإما الجنس وهم داخلون فيه.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعنون الفقراء المهاجرين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ أي يتفرقوا عنه ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وله سبحانه الأرزاق، وبيده تعالى مفاتيح الرزق، فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلا بإذنه، ولا يمنعه إلا بمشيئته، وفيه ردٌّ وإبطال لما زعموا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم فيهذون بما يزين لهم الشيطان، رُوي أن «جَهْجَاه» أجير عمر رضي الله عنه و «سنان» أجير عبد الله بن أُبيّ، اقتتلا من أجل الماء، فلطم جهجاه سناناً، فغضب له ابن سلول فقال عبد الله: أفعلوها؟ والله ما مَثَلُنا ومثلُهم إلا كما قال القائل: «سمِّنْ كلبَك يأكُلْك» أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضر من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، والله لو أمسكتم عنهم فضل طعامكم، لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم، حتى ينفضوا عن محمد، ويعتزلوا عن متابعته، فنزلت الآية الكريمة[1].

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿لَيُخۡرِجَنَّ

---

(١) أخرجه الترمذي بنحوه في كتاب التفسير رقم ٣٣١٥.

﴿ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ عنى بالأعز نفسه، وبالأذل جانب المؤمنين، وإسناد القول المذكور إلى المنافقين، لرضاهم به، فرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولله الغلبة والقوة، ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين، لا لغيرهم، كما أن المذلة والهوان، للشيطان وذويه، من الكافرين والمنافقين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم، ولو علموا ما قالوا هذا الهذيان، قال أصحاب السير: فلما نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي، لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى مات على نفاقه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ﴾ أي لا تشغلكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها، والاعتناء بمصالحها، والتمتع بها ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عن الصلاة، أو عن القرآن وسائر العبادات المذكرة بالمعبود، والمراد نهيهم عن التلهي بها، وتوجيه النهي إليها للمبالغة ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي التلهي بها، والتغافل عنها ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران، حيث باعوا الباقي بالفاني.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي بعض أموالكم، ادخاراً للآخرة، والمراد الإنفاق الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي من قبل أن يرى دلائل الموت، ويعاين ما ييئس، ويتعذر الإنفاق ﴿فَيَقُولَ﴾ عند تيقنه بحلوله ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ أي هلاَّ أمهلتني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي إلى زمان قليل

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أي فأتصدق، وهو جواب «لولا» أي فأزكي مالي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المؤمنين المحسنين.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١١﴾.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ أي لن يمهلها عن الموت ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ آخر عمرها ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازٍ عليها، والله أعلم.

والصلاة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون»

* * *

سُورَةُ التَّغَابُنِ

مكية وآيها ثمان عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ لا لغيره، إذ هو المبدىء لكل شيء، وهو القائم به، والمهيمن عليه، وهو المولي لأصول النعم وفروعها، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل سواء.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ خلقاً بديعاً، حاوياً لجميع مبادىء الكمالات العلمية والعملية، ومع ذلك ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ أي فبعضكم مختار للكفر، كاسب له، على خلاف ما تستدعيه خلقته ﴿ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ مختار للإيمان كاسب له، حسبما تقتضيه خلقته، وكان الواجب عليكم جميعاً، أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين لنعمة الخلق، وتقديم الكفر لأنه الأغلب ﴿ وَٱللَّهُ

﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عالم وبصير بكفركم، وإيمانكم، فيجازيكم بذلك، وفيه رد لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ أي جعلكم أحسن المخلوقات وأبهاها، حيث زيَّنكم بصفوة أوصاف الكائنات، فإن قيل: وقد كان من أفراد هذا النوع مشوَّه الصورة، سمج الخلقة؟ نقول: لا سماجة ثمة، لكن الحسن كغيره من المعاني، على مراتب، فانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها، أمرٌ نسبي، لا يخرجه عن الجمال، فهو داخل في حيِّز الحسن، وإذا ما قارنَّا صورة أي إنسان بصورة القرد والحمار، كان بلا شك أجمل جميع المخلوقات. ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ في النشأة الأخرى.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي هو محيط بجميع المضمرات في صدور الناس.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥﴾.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ألم يأتكم أيها الكفار نبأ الذين كفروا ﴿مِن قَبۡلُ﴾ كقوم نوح، وهود، ولوط ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ أي جزاء أعمالهم الخبيثة، وهو ما لحقهم من العذاب في الدنيا ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرة، لا يُقادر قدرُه.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦ ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا، وما سيذوقونه في الآخرة ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسبب أنه ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ أنكروا وتعجبوا أن يكون الرسول بشراً، أي قال كل قوم في حقِّ رسولهم: أبعث الله بشراً؟ كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ وقد أجمل فأسند القول إلى جميع الأقوام وأريد بالبشر الجنس، أنكروا أن يكون الرسول بشراً، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً؟ ﴿فَكَفَرُواْ﴾ بالرسل ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن الإيمان، وعن التدبر في البيِّنات ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ أي أظهر الله استغناءه عن إيمانهم، حيث أهلكهم ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن العالمين ﴿حَمِيدٞ﴾ أي مستحق للحمد، وإن لم يحمده حامد.

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ ﴾.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ المراد بالموصول كفار مكة ﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ أي أنهم لم يبعثوا ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أكد الإخبار باليمين، لأن التهديد به أعظم في القلب، فكأنه قيل لهم: ما تنكرونه كائن لا محالة، أُقسِمُ لكم بربي ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أي لتحاسبنَّ ولتجزونَّ بأعمالكم من خير أو شر ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعث والجزاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لتحقق القدرة.

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فآمنوا لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ يعني القرآن الكريم، فإنه

بإعجازه بيِّنٌ بنفسه، مبيِّنٌ لغيره، كما أن النور كذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الامتثال بالأمر، أو عدمه ﴿خَبِيرٞ﴾ أي مجازٍ لكم عليه.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ أي ليومٍ عظيم، يجمع فيه الأولون والآخرون، من الإنس والجن، والسابقين واللاحقين، لأجل ما فيه من الحساب والجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ أي يوم غَبْنِ الناس بعضهم بعضاً، والغبنُ هو فوت الحظ من السعادة، وضياع ما كان يؤمله الإنسان، وتخصيص التغابن بذلك اليوم، للإيذان بأن الخسارة الحقيقية إنما تكون في الآخرة، فيظهر حينئذٍ غبن كل كافر، اشترى الضلالة بالهدى، وكل مؤمن بتقصيره في الإحسان ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ أي عملاً صالحاً إلى أن يموت على ذلك ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، لانطوائه على النجاة من أعظم المهلكات، والظفر بأجلِّ الطلبات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة على البعث ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي بئس المرجع والمسكن نار جهنم، والآيتان بيانٌ لكيفية التغابن، وتفصيلٌ له.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ ﴾ أي بعلمه وتقديره ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ ويرى المصيبة من الله ﴿ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ للثبات، والرضا، والصبر ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ فيعلم إيمان المؤمن، ويهدي قلبه إلى ما ذُكر.

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ ﴾ كرر الأمر للتأكيد ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ ﴾ أي عن إجابة الرسول ﷺ فيما دعاكم إليه ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي وقد بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وهو تعليل للجواب المحذوف، أي فلا بأس عليه، لأن مهمته التبليغ، وقد أدّاها امتثالاً لأمر ربه.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ أي هو المستحق للعبادة، لا غيره ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ خاصة دون غيره ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي فليعتمد المؤمنون عليه في جميع أمورهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم، وقالوا: لمن تتركوننا؟ فلمّا أتوا رسول الله ﷺ، رأوا الناس قد فقُهُوا في الدين، فهمُّوا أن يعاقبوهم،

فأنزل الله هذه الآية»[1] ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أي أن تطيعوهم وتتركوا الهجرة ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عن ذنوبهم بترك المعاقبة، القابلة للعفو، بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا، ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ أي تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ وتستروا ذنوبهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي يعاملكم بمثل ما عملتم من الصفح والمغفرة.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ أي بلاء ومحنة، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة، وقد يقع الإنسان بسببهم في العظائم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن آثر محبة الله، على محبة الأولاد والأموال، عن بريدة قال: كان ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين يمشيان ويعثران، فنزل ﷺ عن المنبر، فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال صدق الله: «﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرتُ إلى هذين الصبيين، يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[2].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي مواعظه ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ مما رزقكم ربكم، في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها، خالصاً لوجهه الكريم ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي افعلوا ما هو خير لها وأنفع، وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، وبيان لكون

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٣١٧ وقال: حديث حسنٌ صحيح.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٧٧٤ وقال: حديث حسن غريب.

الأمور المذكورة خيراً لأنفسهم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بكل مطلوب ومحبوب.

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾.

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بصرف المال فيما أمر به، مقروناً بالإخلاص، وطيب القلب، وذكَرَ القرضَ تلطفاً في الاستدعاء ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ بالواحد عشرة، إلى سبعمئه وأكثر، إلى ما شاء الله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي يعطي الجزيل بمقابلة النزر القليل ﴿حَلِيمٌ﴾ أي لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي يعلم ما استتر ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما انتشر وظهر، يعني لا تخفى عليه خافية ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغ في القدرة والحكمة، والله أعلم.

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن»

* * *

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مدنية وهي اثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ تخصيص النداء به ﷺ مع عموم الخطاب لأمته، لتشريفه، وإظهار جلالة منصبه، أو المعنى: يا أيها النبي قل لهم، فأضمر القول، والمعنى: إذا أردتم تطليقهن كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي مستقبلات لها، فإن المرأة إذا طلقت في طُهر، يعقبه القُرْءُ الأول من أقرائها، فقد طُلِّقت مستقبلةً لعدتها، والمراد أن يطلقن في طُهر، لم يقع فيه جماع، ثم يُخلَّين حتى تنقضي عدتهنَّ، وهذا أحسن الطلاق، عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ منه ﷺ، ثم قال: «مُرْهُ فلْيراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم

تطهر، فإن بدا له أن يطلّقها، فليطلقها قبل أن يمسَّها»[1] ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي اضبطوها، وأكملوها ثلاثة أقراء كوامل، وخوطب الأزواج لغفلة النساء، وقيل للعلم ببقاء زمان الرجعة، ومراعاة أمر النفقة والسكنى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن، وفي وصفه تعالى بربوبيته لهم، تأكيد الأمر، ومبالغة في إيجاب الاتقاء ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي من مساكِنهنَّ عند الفراق إلى أن تنقضي عدتهن، وإضافتها إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النهي، ببيان كمال استحقاقهن لسكناها، كأنها أملاكهنَّ، وفيه دليل على أن السكنى واجبة لهنَّ، وحكمتها لئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث، وللاحتياط مخافة أن تنكر المرأة المراجعة، فتنكح زوجاً غيره ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ بأنفسهن إنْ أردن ذلك، فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قيل: هي الزنا، فيخرجن لإقامة الحدِّ عليهن، وقيل: إلا أن يفحشن على الأزواج، فيحل حينئذ إخراجهنَّ لسوء خلقهن، فإخراجهن وخروجهن في عدتهن معصية ﴿وَتِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي عيّنها لعباده ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بأن أخلَّ بشيء منها، على أن الإظهار في موضع الإضمار لتهويل أمر التعدي، والإشعار بعلة الحكم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي أضرَّ بها ﴿لَا تَدْرِى﴾ أيها المخاطب ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ بأن يُقلِّب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، فالظلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقها، بسبب تعديه، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأخروي، وقوله: ﴿لا تدري﴾ خطاب للمتعدّي بطريق الالتفات، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي، لا للنبي ﷺ كما توهم. عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أبغضُ الحلالِ

إلى الله الطلاقُ»[1] وعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألتْ زوجهَا الطَّلاقَ من غير ما بأسٍ، فحرام عليها رائحة الجنة»[2].

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي شارفن آخر عدتهن ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ فراجعوهن ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بحسن معاشرة وإنفاق وحسن سيرة ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بإيفاء الحقِّ، واتقاء الضرار، مثل أن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً لعدتها، أي فأنتم بالخيار، إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف، وإن شئتم المفارقة واتقاء الضرار ﴿وَأَشْهِدُوا ﴾ عند الرجعة والفرقة جميعاً، قطعاً للتنازع، وهذا أمر ندب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وروي عن الشافعي أنه للوجوب في الرجعة ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ من المسلمين ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أيها الشهود خالصاً لوجهه سبحانه، لا لغرض من الأغراض، سوى إقامة الحق، ودفع الضرر ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى الحق على الإشهاد ﴿ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إذ هو المنتفع به، والمقصود تذكيره ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ فطلَّق للسُّنَّة، ولم يضار المعتدَّة، ولم يخرجها من مسكنها، واتقى ربه في الأمور التي أمر بها الشرع ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ مما عسى يقع فيه من الغموم، والوقوع في المضايق، ويفرِّج عنه ما يعتريه من الكروب.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٢١٧٨ في الطلاق، مرسلاً، وموصولاً.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٢٢٢٦ والترمذي رقم ١١٨٧ في الطلاق.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أي من وجهٍ لا يخطر بباله، ويجوز أن يكون المعنى على العموم، أي ومن يتق الله في كل ما يأتي وما يذر، يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة، رُوي أنها نزلت في «عوف بن مالك» أسر الأعداء ابناً له، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أسر العدوُّ ابني، وشكا إليه الفاقة، فقال له ﷺ: «اتَّقِ الله واصبرْ، وأكثرْ من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله» ففعل فبينا هو في بيته، إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غنمها من المشركين»(1) ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ يكل أمره إليه ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي كافيه في جميع أموره ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ أي يبلغ ما يريده، لا يفوته مراد، ولا يعجز من مطلوب ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ تقديراً وتوقيتاً، وهذا بيانٌ لوجوب التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه، لأن الإنسان إذا علم أن كل شيء، من الرزق ونحوه، لا يكون إلاَّ بتقديره، لم يبق أمامه إلا التسليم إليه تعالى.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ لكبرهنَّ وانقطاع دم الحيض عنهن، وقدَّروه بخمس وخمسين سنة، قيل: لمَّا نزلت: ﴿وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ﴾ سألوا رسول الله ﷺ عن عدّة اللائي لم يحضن، فنزلت

(1) ذكر هذه القصة ابن جرير الطبري، ورواها الحافظ ابن كثير في تفسيره من رواية السدي ٤/٤٠٦.

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم وجهلتم كيف عدتهن، وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أم استحاضة ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي فهذا حكمهن ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ لصغرهن فعدتهن أيضاً كذلك، فحذف ثقة بدلالة ما قبله عليه ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي منتهى عدتهن ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ سواء كن مطلقات، أو متوفى عنها أزواجهن، عن سُبيعة الأسلمية أنها ولدت بعد وفاة زوجها بليالٍ قالت سبيعة: «فأتيت رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعتُ حملي، وأمرني بالتزوج إنْ بَدَا لي»[1] وعند علي وابن عباس عدَّتُها أبعد الأجلين ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في شأن أحكامها ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة، ويوفقه للخير.

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من الأحكام ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي أنزله إليكم لتعملوا به ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ مسكناً ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي بعض مكان سكناكم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي ممَّا تطيقونه، والوُجْدُ: الوُسْعُ والطاقة ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ أي في

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٦٥٣.

السكنى ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ وتلجئوهن إلى الخروج، ببعض الأسباب، من إنزال من لا يوافقهن أو يشغل مكانهن ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي المطلقات ﴿أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن من العدة، وأما المتوفى عنهن أزواجهن، فلا نفقة لهن ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني هؤلاء المطلقات بعد انقطاع الزوجية ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، وهو دليل على أن اللبن وإن خُلق لمكان الولد، فهو ملك لها، والأم يجوز لها أن تأخذ الأجر، وفيه دليل أن حق الرضاع على الأزواج في حق الأولاد ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي ليأمر بعضكم بعضاً بجميل، في الإرضاع، والأجر، ولا يكن من الأب مماكسة، ولا من الأم معاسرة، لأنه ولدهما ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي تضايقتم فلم ترض الأم بما ترضع الأجنبية، ولم يزد الأب على ذلك ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي فستوجد له امرأة أخرى، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة، أي سيجد الأب امرأةً ترضع له ولده، إن عاسرته أمه.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه على المطلقات والمرضعات ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أعطاها من الرزق، جلَّ أو قلَّ، فإنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وفيه تطييب لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكد ذلك بالوعد حيث قال: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي كثير من أهل قرية ﴿عَتَتْ﴾ أي عصت وأعرضت

﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ واستمرت على العتوّ والعناد ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ باستقصاء الذنوب، وشدة العقاب ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ أي منكراً عظيماً، والمراد به عذاب الآخرة.

﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ٩﴾.

﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ أي عقوبة كفرها ومعاصيها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ أي خساراً وهلاكاً، لا خسران مثله.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ تكرار للوعيد، وبيان لكونه مترقباً يخوّف الله كفار مكة، أن ينزل بهم ما نزل بالأمم الخالية ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يا ذوي العقول السليمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ عطف بيان ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾ أن أنزل إليكم القرآن الكريم.

﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾.

﴿رَّسُولٗا﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً هو النبي ﷺ ﴿يَتۡلُواْ﴾ إي الرسول ﴿عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾ أي حال كونها مبينات لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿يتلو﴾، أي ليخرج الله الذين عَلِمَ منهم أنهم يؤمنون ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ من ظلمات الضلالة إلى الهدى، ويمكن أن يكون المعنى: ليخرجهم من الظلمات التي تحدث لهم بعد الإيمان ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ أي يصدّق بوجود الله

ووحدانيته، ويعمل عملاً صالحاً ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين في دار النعيم أبداً ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجيب والتعظيم، أي ما أكرمه، وأعظمه من رزق!!.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي مثلهن في العدد أو في الإبداع والإتقان واختلف في كيفية طبقات الأرض، قال الجمهور: إنها سبع أرضين طباقاً، بعضها فوق بعض، وقال الضحاك: مطبقة من غير فتوق، بخلاف السماوات، ولا يوجد في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع، إلا هذه الآية ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمر الله وحكمه بينهن، فينزل المطر، ويخرج النبات، ويخلق الخلق على اختلاف هيئاته ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذُكر، قادر على كل شيء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ لاستحالة صدور ذلك عن غير الخالق المبدع، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق»

* * *

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مدنية وآيُها اثنتا عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ اختلفوا في الذي حرَّم النبي ﷺ على نفسه، قيل: حرَّم «مارية» وهو قول الحسن، ومجاهد، وقتادة، والشعبي، ومسروق، وقيل: حرَّم العسل!! لما رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب فيشرب عندها عسلاً، فتواطأتُ أنا وحفصة، أن أيَّتنا دخل عليها النبي ﷺ، فلتقل له: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: بل شربتُ عسلاً عند زينب، ولن أعود له، فنزلت ﴿يا أيها النبي لمَ تحرِّم﴾ إلى قوله تعالى ﴿إنْ تَتوبا إلى الله﴾[1] قولها فتواطأت أي اتفقت، مغافير وهو صمغ حلو، وله رائحة كريهة، قال النسائي: هذا الحديث صحيح جيِّدٌ غاية الجودة، وقال الأصيلي: هذا أصح وأولى بظاهر كتاب الله

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/٦٥٦ في كتاب التفسير، ومسلم رقم ١٤٧٤ في الطلاق.

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير لتحرم، وهذا التحريم تحريم امتناع عن الانتفاع بذلك، مع اعتقاده أن ذلك حلال، أي تطلب رضاء أزواجك بترك ما أحلَّ الله لك؟ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ قد غفر لك هذه الزلّة ﴿رَحِيمٌ﴾ قد رحمك ولم يؤاخذك بها، قال بعض العلماء: الصحيح في نزول الآية أنها في قصة العسل لا في قصة «مارية» المروية في غير الصحيحين، من أنه ﷺ أسرَّ إلى حفصة تحريمها على نفسه فأفشت السرَّ.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد قدَّر الله لكم ما تحلّلون به أيمانكم، وشرع لكم تحليلها بالكفارة، ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ وهي حفصة رضي الله عنها ﴿حَدِيثًا﴾ أي حديث تحريم العسل، أو مارية القبطية وأمر الخلافة ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي أخبرت حفصة عائشة بالحديث، وأفشته إليها ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أطلع الله النبي ﷺ على إفشاء حفصة للسرِّ على لسان جبريل عليه السلام ﴿عَرَّفَ﴾ أي النبي ﷺ حفصة ﴿بَعْضَهُ﴾ بعض الحديث الذي أفشته، قيل هو حديث الإمامة ﴿وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾ عن تعريف بعض، قيل هو حديث مارية، والمعنى: أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمَة، وأعرض عن ذكر الخلافة، لأنه ﷺ كره أن ينشر في الناس ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ أي نبأ النبي ﷺ حفصة بما أفشت من السر إلى

﴿قَالَتْ﴾ حفصة للنبي ﷺ ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي أخبرني بذلك الله عزَّ وجلَّ، العليم بالسرائر، الخبير بالضمائر.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، على الالتفات للمبالغة في العتاب، وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المرأتين اللتين قال الله تعالى فيهما ﴿إن تَتُوبَآ إلى ٱللهِ﴾ حتى حجَّ عمر، وحججتُ معه، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا﴾ قال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس ـ قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ـ قال: هما عائشة وحفصة، قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم..» الحديث(١) ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت ووُجد منكما ما يوجب التوبة، من ميل قلوبكما عما يجب عليكما من تكريم رسول الله ﷺ، وحبِّ ما يحبُّه، وكراهة ما يكرهه ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ بإسقاط إحدى التائين، أي تتعاونا عليه بما يسوءه، من الإفراط في الغيرة، وإفشاء سره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ﴾ وإنما أفرد جبريل تعظيماً له ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أتباعه وأعوانه، وعن ابن مسعود وأبي بن كعب أراد بصالح المؤمنين أبا بكر، وعمر رضي الله عنهما، وبه قال عكرمة ومقاتل، وهو اللائق بتوسيطه بين جبريل والملائكة، فإنه جمع بين الظهير المعنوي، والظهير الصوري، كيف لا وإن جبريل ظهيرٌ له يؤيده بالتأييدات الإلٓهية،

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٦٥٨ ومسلم رقم ١٤٧٩ في الطلاق، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول لابن الأثير الجزري ٢/ ٤٠٠.

وهما وزيراه وظهيراه في تدبير أمور الرسالة، وتمشية أحكامها الظاهرة، ولأن بيان مظاهرتهما له أشد تأثيراً في قلوب بنتيهما، بخلاف ما إذا أريد به جنس الصالحين من المؤمنين ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مع تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد نصرة الله وناموسه الأعظم وصالح المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ أي فوج معينٌ له، كأنهم يد واحدة على من يعاديه، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه؟.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ أي يعطيه ﷺ بدلكن ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التغليب، أو تعميم الخطاب ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ خاضعات لله تعالى منقادات له ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدِّقات ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مصليات بالليل، ومواظبات على الطاعة، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ من الذنوب ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبدات أو متذللات لأمر الرسول ﷺ ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات، سُمي الصائمُ سائحاً، لأنه يسيح في النهار بلا زاد ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وفيه إشارة إلى أن تزوج النبي ليس على حسب الشهوة، بل على حسب ابتغاء مرضاة الله تعالى[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بالانتهاء عما نهاكم الله عنه، والعمل بطاعته ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتأديب ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي حطبها

(١) إنما دخلت الواو في قوله: ﴿وأبكاراً﴾ دون سائر الصفات، لامتناع اجتماعهما في ذات واحدة، فإن المرأة لا تكون بكراً وثيباً في آن واحد، بخلاف بقية الصفات ولهذا عطفت هنا بالواو ﴿وأبكاراً﴾ فتدبر أسرار القرآن!!.

الحجارة والناس ﴿عَلَيْهَا﴾ يلي أمرها وتعذيب أهلها ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ وهم الزبانية ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ غلاظ الأقوال، شداد الأفعال، أقوياء على البطش ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ أي لا يخالفون أمر الله جلَّ وعلا ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي ويؤدون ما يؤمرون به، ولا يتثاقلون عنه.

أمر تعالى المؤمنين، باتقاء هذه النار المعدّة للكافرين، كما نصَّ في سورة البقرة، للمبالغة في التحذير

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يقال لهم ذلك، عند إدخال الملائكة إياهم النار، والنهي عند الاعتذار، لبيان أن العذر لا ينفعهم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء أعمالكم القبيحة في الدنيا، من الكفر والمعاصي.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي بالغة في النصح، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم، فيأتوا بها على طريقتها، وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقبحها، نادمين عليها، مغتمِّين لارتكابها، عازمين على أنهم لا يعودون، ويردُّوا المظالم، ويستحلوا الخصوم، ويداوموا على طاعة الله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وورود صيغة الإطماع ﴿عسى﴾ للجري على سنن الكبرياء، والإشعار بأنه تفضل منه سبحانه، والتوبة غير موجبة له، وأن العبد ينبغي

أن يكون بين خوفٍ ورجاء، وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ظرف ليدخلكم، أي يوم لا يذلهم ولا يهينهم، بل يكرمهم ويرفع مقامهم، عمن أخزاهم الله من الكفار، والفساق، واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي على الصراط ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ﴾ إذا طفىء نور المنافقين ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يدعون به تقرباً إلى الله تعالى، مع تمام نورهم، وقيل تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامه تفضلاً ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي استر ذنوبنا وامحها عنا، فإنك القادر على كل شيء، وأنت يا رب أهل الفضل والغفران.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالحجة، والوعظ البليغ ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي استعمل الخشونة معهم فيما تجاهدهم به من الكلام ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مسكنهم جهنم، وبئس المرجع والمصير نار جهنم، أن تكون مسكنهم ومأواهم.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضربُ المثل في أمثال هذه المواقع، عبارة عن إيراد حالة غريبة، ليعرف بها حالة أخرى، مشاكلة لها في الغرابة، مثّل الله عزَّ وجلَّ حال الكفار، في أنهم يعاقبون على كفرهم، ولا ينفعهم ما كان بينهم وبين المؤمنين، من النسب والمصاهرة، وإن كان نبياً، بمثل امرأتي نوح ولوط ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

﴿عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ أي كانتا في عصمتَيْ نبيين، متمكنين من تحصيل خيري الدنيا والآخرة ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنفاق ولم تؤمنا بالله، قال ابن عباس: «ما بغت امرأة نبيٍّ قطُّ، وخيانتهما في الدين، أنهما أسرَّتا النفاق، وأظهرتا الإيمان». ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا﴾ أي فلم يغن أزواجُهما النبيَّان ﴿عَنۡهُمَا﴾ بحقِّ الزواج ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿شَيۡـٔٗا﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿وَقِيلَ﴾ أي ويُقال لهما يوم القيامة: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي ادخلا نار جهنم مع سائر الكفرة المجرمين، فقطع الله بهذه الآية طمع من يرتكب المعصية، ويتكل على صلاح غيره[1].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين، في أن صلة الكفر لا تضر المؤمن، إذا كان صادق الإيمان، وذلك في مثل حالة امرأة فرعون، التي كانت تحت أعدى أعداء الله تعالى، وهي في أعلى غرف الجنة ﴿ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها لما ظهر موسى عليه السلام، وغلب السحرة، آمنت به، فلما تبين لفرعون إسلامها، أوتد يديها ورجليها بالأوتاد، وألقاها في الشمس ﴿إِذۡ قَالَتۡ﴾ وهي تعذب ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا﴾ أي ابن لي قصراً في الجنة، أسكنه بعد مفارقتي الدنيا، وأرادت به الدرجة العالية في جنان الخلد ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ روي أنها لما قالت ذلك، أُريت بيتها في الجنة، وانتزع روحها ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي من نفسه الخبيثة، وعمله السيِّء ﴿وَنَجِّنِي

---

(١) وفي ذلك مبالغة في المعنى المقصود، وهو أن الإنسان لا ينفعه عادة صلاح غيره، وإن كان ذلك الغير في أعلى مراتب الإيمان والصلاح.

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من القبط التابعين له في الظلم والطغيان، وفيه دليل أن الالتجاء إلى الله تعالى عند المِحَن، من سِيَر الصالحين.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عطف على امرأة فرعون أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا، مريم بنت عمران، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة، مع كون قومها كفاراً ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي عفت عن اقتراف الفاحشة مع الرجال ﴿فَنَفَخْنَا﴾ أي فنفخ جبريل بأمرنا ﴿فِيهِ﴾ في الفرج ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ الإضافة إضافة تمليك وتشريف، كبيت الله، وناقة الله، أي من روح خلقناه بلا توسط، فحملت بعيسى عليه السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بالصحف المنزلة على إدريس وغيره ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ يعني الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي المطيعين لله عز وجل، وهم رهطها وعشيرتها، لأنهم كانوا أهل بيت صلاح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبُك من نساء العالمين: مريمُ ابنة عمران، وخديجة بنت خُويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[١] والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم»

* * *

(١) أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٨٧٨ وقال: حديث حسن صحيح.

سُورَةُ المُلْك

مكية وهي ثلاثون آية

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من القرآن سورة، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي تبارك الذي بيده الملك» [١] وعن ابن عباس مرفوعاً: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ اليدُ هنا: كناية عن القدرة التامة، والاستيلاء الكامل، فهو سبحانه مالك الملك، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء[٢] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة عليه، يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكَم البالغة.

---

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٩٣ وأبو داود في الصلاة رقم ١٤٠٠.

(٢) الآية الكريمة: ﴿بيده الملك﴾ تمثيلٌ لعزته تعالى وجلاله، وتصرفه الكامل في جميع الأمور، كما نقول: الدولة بيد السلطان، أي هو المتصرف في شؤونها، قال ابن عباس في تفسير الآية: ﴿بيده الملك﴾ قال: يعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع. اهـ وهو الصحيح في معنى الآية الكريمة.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ شروع في تفصيل بعض أحكام الملك، وآثار القدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم والمصالح، والمراد بالموت: الموتُ الطارىء، وبالحياة الحياة التي تكون قبل الموت، وقدَّم الموت لكونه السابق، لقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ ولأنه أدعى إلى حسن العمل، ولأن الأشياء في الابتداء، في حكم الموتى، كالتراب، والنطفة، والعلقة، ونحو ذلك، ثم طرأت عليها الحياة، وقيل: أراد موت الإنسان، وحياته بعد البعث من القبور، والموتُ نعمة كالحياة، لأنه الفاصل بين حال التكليف، وحال المجازاة، وهو القنطرة للعبور إلى دار الخلود، فإن الدنيا جسرٌ ومعبرٌ للآخرة ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر بالتكليف بالأوامر والنواهي ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أخلصه وأصوبه، فالخالص أن يكون لوجه الله، والصواب أن يكون على السُنَّة، والمقصد الأصلي من الابتلاء، هو ظهور إحسان المحسنين، مع تحقُّق أصل الإيمان، وفيه من الترغيب في الترقي إلى معارج العلوم، ومدارج الطاعات، والزجر عن نواقضها ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يفوته من أساء العمل ﴿ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب وأناب.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ أي الذي أبدع خلق السموات، فجعلها سبع سموات ﴿ طِبَاقًا ﴾ أي متطابقة بعضها فوق بعض، سماء فوق سماء ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل مخاطب ﴿ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ أي من اختلاف، ومن عيب، وحقيقة التفاوت عدم التناسب من

الفوت، وقيل: التفاوتُ: الفطور، بدليل قوله تعالى: ﴿هل ترى من فطور﴾؟ فالمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي كرِّر النظر إلى السماء، فانظر إليها، مرة بعد مرة، متأملاً فيها، حتى يتضح لك ذلك ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ؟ أي صدوع وشقوق، جمع فِطْر، وهو الشِقُّ، والمراد به الخَلَل.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعتين أخريين في ارتياد الخلل، والمراد بالتثنية التكرار والتكثير، كما في لبيك وسعدَيْك، أي رجعةً بعد رجعة، وإن كثرت ﴿يَنقَلِبْ﴾ أي ينصرف ويرجع ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي بعيداً ومحروماً من إصابته ما التمسه من العيب والخلل، كأنه طُرد عنه طرداً بالصَّغار ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل من طول المعاودة، وكثرة المراجعة، ولم ير فيها خللاً، لأن الله أتقنها وأحكمها.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ بيانٌ لكون خلق السماوات، في غاية الحسن، إثْر بيان خلوِّها عن شائبة القصور، وتصدير الجملة بالقَسَم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها، أي وبالله لقد زينا أقرب السماوات إلى الأرض، وهي التي يراها الناس ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي بالكواكب المضيئة بالليل، إضاءة السراج، من النجوم السيارات والثوابت، تتراءى كأنها مركوزة فيها، مع أنها في هذا الفضاء الواسع، الذي لا يعرف مقدار سعته إلا الله رب العزة والجلال ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدةً أخرى، هي رجم أعدائكم الشياطين، بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي للشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة، وهي النار الموقدة، فإن

قيل: إن الشهب كانت موجودة قبل بعثة النبي ﷺ، فكيف أصبحت رجوماً للشياطين؟ فالجواب عن ذلك: أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي ﷺ إلا أن ذلك لا ينافي أنها بعد مبعث النبي ﷺ قد توجد بسبب آخر، وهو دفع الجن عن استراق السمع، قيل للزهري: أكان يُرمَىٰ في الجاهلية بالشهب؟ قال: نعم، قيل: أفرأيت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ قال: غَلُظَتْ واشتد أمرها حين بُعِث النبي ﷺ.

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ من الشياطين وغيرهم ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمقرُّ.

﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا ﴾ أيُ طرحوا في جهنم ﴿ سَمِعُوا۟ لَهَا ﴾ أي لجهنم ﴿ شَهِيقًا ﴾ صوتاً منكراً كصوت الحمار ﴿ وَهِىَ تَفُورُ ﴾ أي تغلي بهم غليان المرجل بما فيه، هذا من فور الغضب، يقال: تركتُ فلاناً يفور غضباً، ويتأكد هذا بقوله تعالى:

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ ﴾ أي تتميز وتتفرق ﴿ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أي من شدة الغضب عليهم، يقال: فلان يتميز غيظاً إذا وصفوه بالإفراط فيه، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ وهو تمثيل لشدة اشتعالها ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ جماعة من الكفرة ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع، ليزدادوا عذاباً فوق عذاب ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾؟ أي ألم يأتكم رسول يخوّفكم من هذا العذاب؟.

﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ أي قال كل فوج من الأفواج قد جاءنا نذير فأنذرنا، وتلا علينا ما نزّل الله عليه ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ ذلك النذير، في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿ وَقُلْنَا ﴾ في حق ما تلاه من الآيات إفراطاً في التكذيب ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾ على أحد ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ مما تقولون من وعد ووعيد وغير ذلك ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم في ادعاء أنه تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها ﴿ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ أي بعيد عن الحق والصواب.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ الإنذار من الرسل، فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم من المعجزات ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ عقل متأمل، ونفهم ونتفكر في حكمه تفكر المستبصرين ﴿ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ في جملة أهل النار، وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة الشرع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان.

﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ بكفرهم، في تكذيبهم الرسل، حين لا ينفعهم الاعتراف ﴿ فَسُحْقًا ﴾ مصدر وقع موقع الدعاء، أي فبعداً لهم وهلاكاً، سحقهم الله سحقاً، وأبعدهم الله من رحمته، ومن دار كرامته ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ هم الشياطين، والداخلون في عدادهم من الكفار والفجار.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه، وكفّوا عن المعاصي، قبل معاينة العذاب ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ لا يُقادر قدرُه.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ بيان لتساوي السر والجهر، بالنسبة إلى علمه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾[1] قال ابن عباس: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم، كي لا يسمع إله محمد، فيخبره بما تقولون، فقيل لهم: أسروا ذلك القول، أو اجهروا به، فإن الله يعلمه، ولا تخفى عليه سبحانه خافية. واللفظ عام لجميع الخلق، أي فاحترزوا من المعاصي سراً، كما تحترزون جهراً، وتقديم السر على الجهر، لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر، إذ ما من شيء يُجهر به، إلا وهو مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً، فيتعلق علمه تعالى به ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بضمائرها، قبل أن تترجم الألسنة عنها، كأنه قيل: إنه تعالى مبالغ بمضمرات جميع الناس، وأسرارهم المستكنّة في صدورهم.

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾.

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾؟ إنكار ونفي لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر، أي ألا يعلم السر والجهر، من أوجد جميع الأشياء التي هما من جملتها؟ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ حال من فاعل يعلم مؤكده للإنكار، اللطيفُ أي العالم بدقائق الأشياء، الخبير بحقائق الأمور.

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٠.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ أي ليِّنة سهلة، يسهل عليكم السلوك فيها ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أي في جوانبها وفي جبالها وطرقها ﴿ وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ والتمسوا من نعم الله تعالى فيها ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ أي المرجع، فيسألكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني الملائكة الموكّلين بتدبير هذا العالم، أو الله على تأويل من في السماء أمره وقضاؤه، وقال ابن عباس: «عقاب من في السماء، وهو متعال عن الخلق»[1] ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ أن يغوِّر بكم الأرض بعدما جعلها لكم ذلولاً، تمشون في مناكبها، وتأكلون من رزقه، لكفرانكم تلك النعمة ﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ أي تضطرب وتتحرك، على خلاف ما كانت ثابتة عليه.

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ حجارة من السماء، كما

---

(١) قال ابن تيمية في الفتاوى ٣/١٤٣: ويُصان جلَّ وعلا عن الظنون الكاذبة، مثل أن يُظن أن ظاهر قوله تعالى: ﴿ءأمنتم من في السماء﴾ أن السماء تقلُّه ـ أي هو محصور فيها ـ أو تظلُّه، فهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيُّه السموات والأرض!!.

فعل بقوم لوط، وأصحاب الفيل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب عند الموت، وفي الآخرة ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ كيف إنذاري وعقابي للمكذبين؟.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل كفار مكة، كقوم نوح، وعاد، وأضرابهم، والالتفات لإبراز الإعراض عنهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ إذْ أهلكتهم بإنزال العذاب، وفيه من المبالغة في تسلية الرسول ﷺ وتشديد التأكيد لقومه ما لا يخفى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أغفلوا ولم ينظروا؟ ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَافَّاتٍ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهنَّ، وهو السر في إيثار «يقبضن» الدال على التجدد على قابضات، والطيران في الهواء، كالسباحة في الماء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو عن الوقوع ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ الشامل برحمته لكل شيء، وإلاّ فالثقيل يتسفَّل طبعاً ولا يعلو ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف إبداع المبدعات، وتدبير المصنوعات.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ تبكيت لهم، بنفي أن يكون لهم ناصر من عذابه تعالى، أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله، إن أراد الله تعالى إهلاككم؟ هل آلهتكم المزعومة تستطيع نصرتكم وحمايتكم؟

و«أم» منقطعة مقدَّرة ببل، المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل، فيما يشاهدونه من أحوال الطير، إلى تبكيتٍ آخر ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ينصركم متجاوزاً نصر الرحمٰن؟ فهو كقوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُوننا﴾؟ ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي ما هم إلا في غرور، في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب، بحفظ آلهتهم لهم، وزعمهم هذا ضلال واضح بيّن.

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر، وإنبات الزرع، فمن يستطيع أن يمنحكم أسباب الرزق، إن منعها الله عنكم؟ هل هناك إله غير الله يقدر عليه؟ وأسباب الرزق متعددة: الماء، والهواء، والشمس، والريح، والشجر، والثمر، وكلُّها بيد الخلاَّق جلَّ وعلا، ولهذا ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي تمادَوْا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي في عنادٍ واستكبار عن الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا، والنفور بسبب جهلهم بالدين، والمعنى: بل تمادى الكفار في الطغيان، وأصروا على الكفر والعصيان.

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للمشرك والموحِّد، توضيحاً لحالهما، والفاء لترتيب سوء حالهم، وخرورهم في مهاوي الغرور، وعدم اهتدائهم إلى جهة يتوهم فيها رشد في الجملة، والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثر كل ساعة، ويخر على وجهه في كل خطوة، لتوعر طريقه، واختلال قواه، أهدى إلى المقصد الذي يؤمُّه، وهو الكافر الذي أكبَّ على الكفر والمعاصي ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي يمشي قائماً معتدلاً، يبصر الطريق سالماً من العثور والخرور ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على

طريق مستو لا عوج فيه، ولا انحراف؟ وهو المؤمن المستمسك بدين الإسلام(١).

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي خلقكم خلقاً بديعاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا آيات الله، وتتعظوا بمواعظها ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا بها آثار قدرته، وتروا الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله تعالى ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتفكروا بها وتعتبروا، خصَّها بالذكر، لأنها آيات العلم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي باستعمالها فيما خلقت لأجله، فشكرِ نعم الله، صرفها في مرضاته.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقكم وبثكم وكثَّركم فيها لا غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة للجزاء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكافرون للمؤمنين استهزاء ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ أي متى

---

(١) هذا تمثيل رائع، وتصوير بديع، جمع بين جمال التمثيل، وروعة التعبير، وكأنه يقول: هل من يمشي كالدابة، منكّس الرأس، أعمى القلب والعين، لا يبصر يميناً ولا شمالاً، ولا يرى ما أمامه، فهو يخبط خبط عشواء، ويتعثر بين حين وحين في مشيه، لأنه لا يبصر الطريق، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة، يبصر طريقه، ويرى ما أمامه فهو آمن من العثار، لأنه يمشي في وضح النهار، يسير على طريق مستقيم، لا اعوجاج له ولا التواء؟ أيهما أهدى سبيلاً، وأحسن دليلاً؟ قال ابن عباس: هذا مَثَلٌ لمن سلك طريق الضلالة، ولمن سلك طريق الهدى!!.

يكون الحشر والجزاء الذي تعدوننا به؟ كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿وإليه تحشرون﴾ أو ما وُعدوا به من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطبون به النبي ﷺ والمؤمنين، والجواب محذوف، أي إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به، فبيِّنوا لنا وقته؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي العلم بوقته عند الله عزَّ وجلَّ، لا يطَّلع عليه غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ أي مخوِّف أُنذركم عذاب الله، ووقوع الموعود لا محالة ﴿مُّبِينٌ﴾ أي أبيِّن لكم الشرائع.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الفاء فصيحة معربة عن تقدير جملة، كأنه قيل: وقد أتاهم الموعود فرأوه، فلما رأوه ﴿زُلْفَةً﴾ أي قريباً منهم ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ أي ساءت رؤية الموعود ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ واسودت بأن علتها الكآبة، وغشيتها القَتَرةُ، وظهرت عليها آثار الاستياء من الذل والهوان ﴿وَقِيلَ﴾ تشديداً لعذابهم، والقائلون هم الزبانية ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي تسألون تعجيله، إنكاراً واستهزاءً.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ أي إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، والتعبير عنه بالإهلاك، لما أنهم كانوا يدعون عليه وعلى المؤمنين بالهلاك ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، فنحن في جوار رحمته،

متربصون لإحدى الحسنيين ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ ينجي ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم، أي من يحميكم من عذاب الله المؤلم الوجيع؟ ومن الذي يجيركم وينجيكم من غضبه وانتقامه؟ هل تظنون أن الأصنام تخلّصكم من عذاب الله؟.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أدعوكم إليه، مولي النعم كلها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي صدقنا به وحده، ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره كما فعلتم أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي فسوف تعلمون من هم أهل الشقاء والضلالة، منا ومنكم؟ وهذا تهديد شديد.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أي ذاهباً في أعماقها ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ أي جارٍ متدفق، فائض سهل المأخذ، فلا بد أن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون الأصنام شريكاً له؟ تليت هذه الآية عند ملحد، فقال: نأتي به بالمعول، فنام تلك الليلة ثم استيقظ وقد ذهب ماء عينه!! والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك»

* * *

سُورَةُ القَلَمِ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾.

﴿نٓ﴾ بالسكون على الوقف، من أسماء الحروف الهجائية المقطَّعة، مثل: ألف، ولام، وميم، ذُكر للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، والبشر مع ذلك عاجزون عن الإتيان بمثله، وأما قول الحسن: إنه الدواة، وقول ابن عباس: إنه الحوت، فمشكلٌ ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ الواو للقسم، وأُريد بالقلم الجنسُ، لكثرة منافعه، ولو لم يكن له مزية، سوى كونه آلة لتحرير كُتب الله عزَّ وجلَّ، لكفى به فضلاً، وموجباً لتعظيمه(١) ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضمير لأصحاب القلم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم.

---

(١) في القسم بالقلم والكتابة، إشادة بفضل العلم والعلماء، وتنبيه على قيمة الكتابة والدراسة، فإن القلم أخو اللسان، وهو نعمة من الرحمن على عباده، فالإنسان من بين سائر المخلوقات، هو الذي خصَّه الله وشرَّفه بمعرفة القراءة والكتابة، ليفصح عمَّا في ضميره، ولا يمكن لسائر الحيوانات أن تتفاهم عن طريق المراسلة والكتابة، إنما تتفاهم بالأصوات، وحسبك دليلاً على شرف القلم، أن الله عزَّ وجل أقسم به هنا، كما أن أول آيات الوحي المنزَّل فيها إشادة بالقراءة والكتابة: ﴿الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ ﴾.

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي بإنعامه عليك بالنبوَّة، أنت يا محمد بريء من الجنون، وهو جواب لقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إنه تعالى وصفه ﷺ بثلاثة أنواع من الصفات:

الأولى: نفي الجنون عنه، بنعمه الظاهرة، من الفصاحة التامة، والعقل الكامل، والسيرة المرضيَّة وللاتصاف بكل مكرمة، فوجود هذه النعم ينافي حصول الجنون.

والثانية: الأجر الكبير الدائم.

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي إن لك في دعاء الخلق إلى الله تعالى، المنزلة الرفيعة العالية، والثواب الكبير غير المقطوع، وإحراز هذا المقام ينافي الجنون.

والثالثة: الخُلُق العظيم الذي خصَّ به الرسول ﷺ.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أي أنت يا محمد على جانب عظيم، من الأدب الرفيع، والخلق الكريم، ولقد نسبوه إلى الجنون ـ وحاشاه ـ حسداً وعداوة، ومكابرة، مع جزمهم بأنه ﷺ في غاية الغايات القاصية، من حصانة العقل، ورزانة الرأي، ولمّا كانت أخلاقه الحميدة كاملة، وصفها الله تعالى بأنها عظيمة، وفيها دقيقة أخرى، وهي كلمة «على» للاستعلاء، فدلَّ اللفظ أنه ﷺ مستعلٍ على خُلُق عظيم، كما رُوي عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خُلُقاً..» الحديث. وحقاً! لقد تمثلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم

فالصدق، والبرُّ، والحلمُ، والحياء، والصبرُ، والشجاعة، والعزة، والتواضع، والعفة، والوفاء، كلٌّ أولئك كانت من صفاته البارزة، التي قرّبته إلى القلوب، فتعلّق الناس به، وتركوا في حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي عن قريب ترى ويرون من هو المجنون؟ هل أنت أم هم؟ وهذا وعدٌ له، ووعيد له، والمراد به يوم القيامة، سيظهر بجلاء أمرك وأمرهم، وقيل: في الدنيا بظهور الإسلام، واستيلائك عليهم، وصيرورتك مهيباً ومعظّماً في قلوب العالمين.

﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾؟ أي المجنون، والباء مزيدة، أو بأي الفريقين بفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين، في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم، كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكذَّابُ الأَشِرُ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعليل لما قبله من ظهور جنونهم، بحيث لا يخفى على أحد، أي هو أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى سعادة الدارين، وهام في تيه الضلال، متوجهاً إلى الشقاوة الأبدية، وهذا هو المجنون الذي لا يفرِّق بين النفع والضرر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو أعلم بالعقلاء المهتدين إلى سبيله، الفائزين بكل مطلوب، والناجين من كل محذور، فيجزي كلاً من الفريقين، حسبما يستحقه من العقاب والثواب، وإعادة ﴿هو أعلم﴾ لزيادة التقرير.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي كفار مكة، وهذا تهييج له للتصميم على معاداتهم، فقد أرادوا منه أن يعبد الله مدة، وآلهتهم مدة، ويكفوا عنه غوائلهم!! والمعنى: دم يا محمد على ما أنت عليه، من عدم طاعتهم، وإنما عبَّر بالطاعة للمبالغة في الزجر، والنهي عن مداهنتهم ومداراتهم، استجلاباً لقلوبهم، كما ينبىء عنه قوله تعالى:

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ أي تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه، وتسامحهم في بعض الأمور، فهم يدهنون حينئذ طمعاً في إدهانك.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل، وتقديمُ هذا الوصف على سائر الأوصاف، لكونه أدخل في الزجر ﴿ مَّهِينٍ ﴾ أي حقير الرأي والتدبير، من المهانة وهي الحقارة، نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هَمَّازٍ ﴾ أي عيَّاب، طعان، مغتاب ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ نقَّال للحديث على وجه السعاية والإفساد.

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ بخيل ممسكٍ عن الإنفاق، ويمنع الناس عن الخير والإنفاق ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز في الظلم حدَّه ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام.

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ عُتُلٍّ ﴾ غليظ، جاف، لئيم النفس ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعدما عُدَّ من الصفات المذمومة ﴿ زَنِيمٍ ﴾ هو ولد الزنا، روي أنه دخل على أمه، وقال لها: «إن محمداً وصفني بعشر صفات، وجدتُ تسعاً فيَّ، فأما الزنيم فلا علم لي به، فإن أخبرتني بحقيقته، وإلاَّ ضربت عنقك!! فقالت: إنَّ أباك عنِّين، وخفتُ أن يموت ويذهب ماله إلى غيره، فدعوت راعياً إلى نفسي، فأنت من ذلك الراعي!! ولا غرابة فالنطفةُ إذا خبثت خبث الناشىء منها.

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي لا تطعه مع هذه المثالب والمعايب، لأن كان ذا مال وبنين، أي ليساره وحظه من الدنيا.

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي يقول عن القرآن العظيم: إنه خرافات وأباطيل الأولين!!.

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ كنَّى عن الأنف بالخرطوم، إذلالاً له وإهانة، لأن الخرطوم للخنزير، أي سنكويه على أنفه، مهانة له، وعَلَماً يُعرف به، وتخصيصُ الأنف بالذكر، لأن الوسم عليه أبشع وأشنع.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي أهل مكة بالقحط، بدعوة رسول ﷺ ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ

﴿الْجَنَّةِ﴾ وهم قوم من أهل الصلاة، كانت لأبيهم هذه الجنة، قرب صنعاء باليمن، فكان يأخذ منها قوت سنة، ويتصدق بالباقي، وكان ينادي الفقراء وقت الصِّرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل، وما أخطأه القِطاف من العنب، فكان يجتمع لهم شيء كثير، فلما مات أبوهم قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا، ضاق علينا الأمر، فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعنها داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي لا يقولون إن شاء الله، أو لا يستثنون حصة المساكين، كما كان يفعله أبوهم.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي على الجنة ﴿طَائِفٌ﴾ أي فجاءها بلاء من السماء ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ من جهته تعالى ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ غافلون عما جرت به المقادير، والطائف لا يكون إلا ليلاً، أي طرقها طارقٌ من عذاب الله.

قال الكلبي: أرسل الله تعالى عليهم ناراً، فأحرقت الشجر والثمر.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صرمت ثماره، بحيث لم يبق منها شيء، فعيل بمعنى المفعول.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَتَنَادَوْا﴾ أي نادى بعضهم بعضاً ﴿مُصْبِحِينَ﴾ عند الصبح الباكر.

﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿أَنِ ٱغْدُواْ﴾ أي اخرجوا في الصباح الباكر، قبل أن ينتبه الفقراء، ومعنى الغدوّ: الذهاب في الصباح المبكّر ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ يعني الثمار، والزرع، والأعناب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ قاطعين له.

﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ أي ذهبوا ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي يتسارون فيما بينهم، لئلا يسمع المساكين.

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ أي الجنة ﴿ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي لا تمكنوه من الدخول.

﴿ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي على قصد وعزم، وقيل: على نَكَدٍ من حاردت السَّنَةُ إذا لم يكن فيها مطر، وحاردت الإبلُ إذا منعتْ درَّها ﴿قَٰدِرِينَ﴾ عند أنفسهم على صرامها.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي أول ما رأوها محترقة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي ضللنا طريق جنتنا وما هي بها، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا:

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أي حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا.

﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ ﴾ أي أعقلهم وأعدلهم رأياً ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خبث نيتكم؟.

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي بمنعنا المساكين، فتكلموا بعد خراب البصرة ـ أي البستان ـ، وأقرُّوا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف.

﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً، فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت، ومنهم من أنكره، فأصبح كل واحدٍ يحيل باللائمة على الآخر!! ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحدَّ.

﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ ﴾ دعوا على أنفسهم بالويل ﴿ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ أي متجاوزين حدود الله، في حق الفقراء والمساكين، ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا:

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا ﴾ أي يعطينا بدلاً منها، ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿ خَيۡرٗا مِّنۡهَآ ﴾ أي من هذه الجنة ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ أي طالبون الخير، وراجون العفو منه تعالى.

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ ﴾ أي مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي ذكرناه، نعذب من سلك سبيلهم ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ ﴾ أي أعظم وأشدُّ ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه أكبر، لاحترزوا عما يؤديهم إليه.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ في الآخرة ﴿ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي جنات ليس فيها إلاَّ التنعُّم، الخالص عن شائبة الزوال، وما ينغّصه من الكدِّ والتعب.

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ تقرير لما قبله، وردٌّ لما يقوله الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صحَّ أنا نُبعث، لم يكن حالنا وحالهم، إلاَّ مثل ما هو في الدنيا، يعطينا الله ويكرمنا، كما أكرمنا في الدنيا.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟! تعجيب من حكمهم، واستبعاد له، وإشعارٌ بأنه صادرٌ من اختلال فكر وعقل، وهو التسوية بين المطيع والعاصي.

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ ﴾ نازل من السماء ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أي تقرؤون.

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي ما تتخيرونه وتشتهونه.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ أي عهود مؤكدة بالأيمان ﴿بَالِغَةٌ﴾ متناهية في التوكيد ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ إن لكم لما تحكمون أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدتها، حتى نعطيكم ما تحكمون، أم هو مجرَّدُ الافتراء على الله؟!.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أي سلهم مثبتاً لهم ﴿أيُّهم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم الخارج عن العقول ﴿زَعِيمٌ﴾ أي كفيل وضامن؟.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم، إذ لا أقل من التقليد، وقد نبه تعالى في هذه الآية على أن ليس لهم شيء، يتوهم أن يتشبثوا به حتى التقليد.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الجمهور على أن الكشف عن الساق، عبارة عن شدة الأمر وصعوبته، والمعنى يوم يشتد الأمر ويصعب، ولا كشف ولا ساق، ولكن كنى بها عن الشدة، ومثله قول العرب: كشفت الحرب عن ساقها، وحمي الوطيسُ ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أي يدعى الكفار إلى السجود لله رب العالمين، لا تكليفاً، ولكنْ توبيخاً وتعنيفاً، على تركهم إياه في الدنيا، وتحسيراً لهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لزوال القدرة عليه، لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً واحداً، فلا يقدرون على الانحناء أو السجود.

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ أي يغشاهم وتلحقهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ أي صَغَارٌ وهوان ﴿ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ ﴾ على ألسن الرسل ﴿ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ في الدنيا ﴿ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ أي وهم أصحاء متمكنون منه، فلا يجيبون إليه، وكذلك يدعون إلى الصلاة، بالأذان والإقامة في الجماعة، فلا يلبُّون إليها، وفي هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة.

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ أي دعني والمكذبين بالقرآن، وخلِّ بيني وبينهم، ولا تُشغل قلبك بهم، فسأنتقم لك منهم، وليس هناك مانع يمنع الله من عذابهم، ولكنه أسلوب العرب في الوعيد والتهديد، كما يقول الإنسان: دعني وهذا الظالم لأكفيك شرَّه. وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للمكذبين ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ أي نأخذهم بطريق الاستدراج خطوةً خطوة، يقال: استدرجه إليه استنزله درجةً درجة، حين يورِّطه فيه، واستدراجهم بالإمهال، وإدامة الصحة، وازدياد النعمة، فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إنه استدراج بل يزعمون أنه إيثار على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم.

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ أي أمهلهم فلا أعجلهم بالعقوبة، ليزدادوا إثماً ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ أي قوي شديد، لا يدفع بشيء، وتسميته كيداً لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك، ولا يجوز أن يسمى الله كائداً، ماكراً، مستدرجاً، لأن صفات النقص لا تنسب إليه تعالى، وأسماؤه توقيفية.

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾؟ أي هل تطلب منهم أجراً حتى يثقلهم ذلك ويمنعهم من الإيمان؟.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ أو المغيَّبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم، وإن أُمهلوا لم يهملوا ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي كيونس عليه السلام، في العجلة والغضب على القوم ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت: ﴿لا إله إلاَّ أنتَ سُبْحَانَكَ إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ﴾ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غيظاً وغماً، من كَظَم السقاء إذا ملأه، أي لا يكن حالك كحاله وقت ندائه، أي لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر، والمغاضبة، فتبتلىٰ ببلائه.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي رحمة، وهو التوفيق للتوبة، وقبولها ﴿لَنُبِذَ﴾ أي لطُرح من بطن الحوت ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالفضاء الواسع ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي وهو ملام على ما ارتكب، يعني لولا هذه النعمة، لنبذ بالعراء مع الذمِّ له، لكنَّ الله أنعم عليه بالتوبة والإنابة، فلم يلحقه شيء من الذم.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اصطفاه واختاره لنفسه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي جعله من الكاملين في الصلاح.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي إنهم من شدة عداوتهم لك، ينظرون إليك ويكادون أن يصرعوك بأعينهم، ويهلكونك بنظرات مسمومة قاتلة لشدة بغضهم، والإصابة بالعين حق، ومن الناس من أنكر ذلك، ولا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية في التأثير، فالاحتمال العقلي قائم، والدلائل السمعيّة ناطقة بذلك، روى مسلم والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيء سابق القَدَر سبقته العين»[1] وقيل: العين حقٌّ تدخل الرجل القبر، والجمل القِدْر، وقال الحسن: دواء من أصابته العين أن يقرأ عليه هذه الآية، وقولُه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أي وقت سماعهم القرآن تتلوه عليهم، لأنهم كانوا يكرهون سماعه أشد الكراهية، ويحدُّون النظر إليه ﷺ بالبغضاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حيرتهم في أمره ﷺ، وجهلهم بحاله ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ لتنفير الناس عنه، وحيث كان مدار حكمهم الباطل، ما سمعوه منه ﷺ، ردَّ الله ذلك ببيان علو شأنه، فقال تعالى:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وليس هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي موعظة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي للإنس والجن، فكيف يُنسب من نزل عليه القرآن للجنون؟ والآية مفيدة لبطلان قولهم، وتعجيب السامعين من جرأتهم على تفوّه ذلك، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»

* * *

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢١٨٨ في باب الطب، والترمذي رقم ٢٠٦٣.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

مكية وهي إحدى وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ ﴾.

﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴾ الساعة الواجبة الوقوع يعني القيامة، التي هي آتية لا ريب فيها، التي تتحقق فيها الأمور، من الحساب والجزاء.

﴿ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾ الأصل الحاقة ما هي؟ أي أيُ شيء هي؟ فوضع الظاهر موضع الضمير، لزيادة التهويل.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٣ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ أعلمك ﴿ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾ تأكيد لهولها، ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها وشدتها، بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد لأنها أعظم من ذلك.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ أي بالحاقة، فوضعت القارعة موضعها لأنها من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال،

فلمَّا ذكرها وفخَّمها، ذكر من كذَّب بها، وما حلّ بهم، تذكيراً لأهل مكة، وتخويفاً لهم، من انتقام الله عزَّ وجل منهم، لتكذيبهم سيد المرسلين.

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة، وهي الصيحة الشديدة، كما قال سبحانه: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ ﴾.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ أي ريح شديدة العصف، كأنها عتَتْ على خزنتها، فلم يستطيعوا ضبطها.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي سلَّطها عليهم بالقدرة القاهرة ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وهي أيام العجوز سميت بذلك لأن عجوزاً من عاد، توارت في سرب، فانتزعتها الريح فأهلكتها ﴿ حُسُومًا ﴾ أي متتابعة متوالية، لا تفتر ولا تنقطع، تستأصل الناس استئصالاً ﴿ فَتَرَى ﴾ أيها المخاطب ﴿ الْقَوْمَ ﴾ إذا كنت حاضراً حينئذ ﴿ فِيهَا ﴾ في تلك الليالي والأيام ﴿ صَرْعَى ﴾ موتى قد صرعهم الموت، فأصبحوا جثثاً هامدة، جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي يشبهون ﴿ أَعْجَازُ ﴾ أصول ﴿ نَخْلٍ ﴾ جمع نخلة ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ بالية وساقطة على الأرض.

﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟ أي فهل ترى أحداً من بقاياهم، أو من نفسٍ باقية؟.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ⁽٩⁾﴾.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي من تقدّمه من الأمم ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي قوم لوط، وهم الذين انقلبت بهم ديارهم، حيث جعل الله عاليها سافلها، ولذا سميت بالمؤتفكات ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالأفعال ذات الخطأ العظيم، وهي الشركُ، والتكذيب بالبعث.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ⁽١٠⁾﴾.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها، حين نهاهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله عز وجل ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي زائدة شديدة، كما زادت قبائحهم في القبح.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ⁽١١⁾﴾.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي ارتفع وزاد عن حدّه وقت الطوفان، بسبب إصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصي ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، والمراد بحملهم فيها، رفعهم فوق سطح الماء، وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا، وفيه تنبيه على أن مدار نجاتهم محض عصمته تعالى، إنما السفينة سببٌ صوري.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ⁽١٢⁾﴾.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أي الفعلة، وهي إنجاء المؤمنين ﴿تَذْكِرَةً﴾ أي عبرة

وتحفظها ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه، بتذكّره وإشاعته، والتفكير فيه، والوعيُ: أن تحفظ الشيءَ في نفسك، والإيعاءُ أن تحفظه، في غيرك، وَعَيْتُ العلم والحديث وعياً، أي حفظته.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى، وهو شروعٌ في بيان نفس الحاقة، وكيفية وقوعها، إثر بيان عِظم شأنها.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي قلعت ورفعت عن أماكنها، بمجرد قدرة الله تعالى، وارتطم بعضها ببعض ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دُقّتا وكُسرتا، أي فضربت الأرض والجبال إثر رفعهما، بعضُها ببعض، ضربة واحدة، فيصير الكل هباءً منبثاً، وذرات متناثرة، وإذا كان هذا حال الجبال، فكيف بحال الرجال في ذلك اليوم العصيب؟.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي نزلت النازلة، وقامت القيامة.

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي فُتحت أبوابها لنزول الملائكة ﴿فَهِيَ﴾ أي السماء ﴿يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة، ساقطة القوة.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي والملائكة على جوانبها، جمع رجا بالقصر:

الناحية، وجمعه أرجاء، مثل سبب وأسباب، قال الضحاك: تكون الملائكة على حافتها، حتى يأمرهم الرب تبارك وتعالى، فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ من الملائكة، روي أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين، فيكونون ثمانية وعن ابن عباس والضحاك ثمانيةُ صفوفٍ لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، قال بعضهم: وجود العرش لبيان عظمته تعالى، لا لاحتياجه إليه، لأن الله تعالى كان ولم يكن شيء معه، ثم خلق العرش، فالعرش والكرسي مظاهر عظمة الله وجلاله، فعلمنا أنه تعالى خاطبهم فيما يتعارفون، فخلق لنفسه بيتاً يزورونه هو الكعبة المشرَّفة، وجعل في ركن البيت حَجَراً، وهو يمينه في الأرض، كما جاء في الحديث الشريف، وليس أنه عز وجل مسكنه في البيت، ويمينه فيه، وهو تمثيل لعظمته تعالى، بما يشاهد من أحوال السلاطين، يوم خروجهم على الناس، للقضاء العام، وإلاَّ فشؤونه سبحانه أجلُّ من كل ما تحيط به تلك العبارة والإشارة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال، أي تسألون وتحاسبون، عبَّر عنه بذلك، تشبيهاً بعرض السلطان العسكر، لتعرُّف أحوالهم، وهذا ـ وإن كان بعد النفخة الثانية ـ لكنْ لمَّا كان اليوم، اسماً لزمانٍ متسع، تقع فيه النفختان، والصعقة، والنشورُ، والحساب، صحَّ جعلُه ظرفاً للكل ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي تعرضون على ملك الملوك جلَّ وعلا، غير خاف عليه تعالى سرٌّ من أسراركم، وإنما العرض لإفشاء الحال، والمبالغة في العدل، وفيه أعظم الزجر والوعيد، وهو خوف الفضيحة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ تفصيل للعرض ﴿فَيَقُولُ﴾ سروراً به

وابتهاجاً، لما يرى فيه من الخيرات، خطاباً لجماعته وأقربائه ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل أمر أي خذوا ﴿اقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ والهاءُ فيه وفي حسابيه، وماليه، وسلطانيه، للسكت، تثبت في الوقف، وتسقط في الوصل، واستحسن الوقفُ عليها.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي علمت، وإنما أجرى الظن مجرى العلم، لأن الظن الغالب، يقوم مقام العلم، في العبادات والأحكام، أي إني كنتُ أظن أني ألاقي حسابي، فيؤاخذني ربي بسيئاتي، فقد تفضَّل عليَّ بالعفو، ولم يؤاخذني بها، فخذوا اقرأوا كتابيه، قال تعالى:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا، يرضى بها صاحبها، لكونها صافية عن الشوائب، دائمة مقرونة بالتعظيم، فالشيء إنما يكون مرضياً به، إذا كان مشتملاً على هذه الصفات.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢﴾.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة لأنها في السماء، أو الأبنية.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾.

﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثمارها جمع قِطف، وهو ما يجتنى بسرعة ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة من مريدها، ينالها القائم، والقائد، والمتكىء، ويقال لهم:

﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ والجمع باعتبار المعنى ﴿هَنِيئًا﴾ أي أكلاً وشرباً لا مكروه فيهما ولا أذى ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة، وكلُّ عمل صالح قدمته، وكل من تقدمك فهو سلف ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي الماضية من أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من قبح العمل، وسوء العاقبة، ولما حصل من الخجل والافتضاح ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ وهذا ينبِّهك أن العذاب الروحاني، أشدُّ من العذاب الجسماني.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي يا ليتني لم أعلم ما حسابي.

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَا لَيْتَهَا﴾ يا ليت الموت منها ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة لأمري، ولم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقاه والضمير في ﴿يا ليتها﴾ يرجع للحياة الدنيا، أي يا ليت الحياة الدنيا، كانت الموتة النهائية، ولم أخلق حياً، تمنى الموت لأنه رأى تلك الحالة، أشنع وأمرّ مما ذاقه من الموت.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي لم ينفعني ما جمعتُه في الدنيا من المال والأتباع، على أن «ما» نافية، أو استفهامية للإنكار، أيْ أيَّ شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار؟.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ أي زال عني سلطاني، فلا المال أغنى ونفع، ولا السلطان بقي أو دفع، فيقول الله تعالى لخزنة جهنم:

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي شدُّوه بالأغلال، فاجمعوا يديه إلى عنقه.

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي أدخلوه النار المتأججة، نار الجحيم وهي النار العظمى، لأنه كان يتعظم على الناس، ليكون الجزاء على وفق المعصية.

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ وهي حلقات منتظمة، كلُّ حلقة منها في حلقة ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ أي طولها بذراع المَلَك، وليس الغرض التقدير بهذا المقدار، بل الوصف بالطول، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ يريد به مرات كثيرة، قال الحسن: الله أعلم بأيِّ ذراع ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ أي فأدخلوه فيها، بأن تلقوه على جسده، وهو مرهق لا يقدر على حركة.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ تعليل، وذكر العظيم للإشعار بأنه تعالى هو المستحق للعظمة، فمن تعظَّم على الله، استوجب أعظم العقوبات.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ولا يحث على إطعامه، فضلاً عن أن يبذل من ماله، وذكرُ الحضِّ للإشعار بأن تارك الحضِّ بهذه المنزلة، فكيف تارك الفعل وتخصيص الأمرين بالذكر، لأن أقبح الذنوب: الكفر بالله، وأشنع الرذائل: البخلُ وقسوة القلب، وفيه دلالة على عظم جرم حرمان المساكين، لأنه تعالى عطفه على الكفر.

﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي قريب يحميه ويرفع عنه ما يحترق له قلبه، لأن الأولياء يفرُّون منه، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1].

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غسالة أهل النار، من الغسل، والنونُ زائدة، وأريد به هنا ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم[2]، وقيل: هو شجر يأكله أهل النار.

﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أي الكافرون، الذين يتعدون حدود الله.

---

(١) سورة غافر، آية: ١٨.

(٢) إن قلت: كيف قال هنا ﴿ولا طعامٌ إلا من غسلين﴾ وقال في موضع آخر ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وفي آخر ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ فالجواب: إن العذاب أنواع، والمعذبون طبقات، فمنهم من يكون طعامه الغسلين، ومنهم من يكون طعامه الزقوم ومنهم طعامه الضريع، ويمكن أن يكون طعامهم جميع ذلك، فتارة يأكلون من هذا، وأخرى من ذلك، والله أعلم.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ ﴾.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ بالمشاهدات والمغيَّبات، وذلك يتناول الخالق والمخلوق، والدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ على الله، هو محمد ﷺ يبلِّغه عن الله، فالمراد بالرسول هنا النبي ﷺ، وقيل: جبريل عليه السلام، على معنى أن الذي نزل بالقرآن من عند الله هو جبريل، والقول الأول هو الأظهر، لأن الله تعالى ذكر بعده، أنه ليس بقول شاعر، ولا كاهن، والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر، والكهانة، بل كانوا يصفون به الرسول ﷺ، فهو كلام الله أظهره في اللوح المحفوظ، وكلام الرسول ﷺ بمعنى أنه أظهره، وقرأه على الخلق.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ ﴾.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ ﴾ كما تدَّعون تارة ﴿ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾ إيماناً قليلاً.

﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ ﴾.

﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ ﴾ كما تدعون تارة أخرى ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً، والقلة في معنى العدم، يقال: هذه الأرض قلما تنبت، أي لا تنبت أصلاً والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون أصلاً.

﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ ﴾.

﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي تنزيل من عند الرحمٰن، رب الخلق أجمعين.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ أي ادعى علينا شيئاً لم نقله، سمَّى الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف.

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ أي بيمينه. .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ أي نياط قلبه بضرب عنقه وهو تصويرٌ لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك، وهو أن يأخذ الجلَّاد بيمينه، ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه، وقال ابن عباس ﴿باليمين﴾ أي بالقوة والقدرة.

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَا مِنكُم ﴾ الخطاب للناس ﴿ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ من زائدة ﴿ عَنْهُ ﴾ أي عن المقتول ﴿ حَٰجِزِينَ ﴾ أي دافعين، أي ليس أحد منكم يحجزه ويمنعه منَّا.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون به.

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أي نعلم من يكذب بالقرآن من المجرمين، فيجازيهم على تكذيبهم.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ في الآخرة إذا رأوا ثواب المؤمنين وسعادتهم في الجنة.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ القرآن ﴿ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ لعين اليقين لا يحوم حوله ريب.

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فسبح بذكر اسمه العظيم، تنزيهاً له تعالى عن افتراءات أهل الضلال، وعما يقوله هؤلاء السفهاء، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»

* * *

سُورَةُ المَعَارِج

مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾.

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي استدعاه، والسائل هو «النضر بن الحارث» فإنه قال: ﴿اللهمَّ إن كانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مَنِ السَّمَاءِ﴾ أو أبو جهل فإنه قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ سأله استهزاء[1]، وصيغة الفاعل للدلالة على تحقق وقوعه.

﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢﴾.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أي دعا للكافرين واستعجل بعذاب واقع على الكفار ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ أي ليس لذلك العذاب رادٌّ إذا نزل.

---

(١) استعجل مشركو قريش نزول العذاب عليهم، وطلبوا من الرسول ﷺ حين خوَّفهم عذاب الله، أن يعجّل لهم العذاب، قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء كما قال سبحانه: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾ فنزل أول هذه السورة، رداً على أولئك السفهاء.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ③﴾.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي واقع من عند الله ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة، بالأوامر والنواهي، وتنزل بأمره سبحانه ووحيه.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④﴾.

﴿تَعْرُجُ﴾ أي تصعد ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام زعيم الملائكة ورئيسهم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه سبحانه، ومهبط أمره، وقيل هو من قبل قول إبراهيم عليه السلام ﴿إني ذاهبٌ إلى ربي﴾ أي إلى أمر ربي ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مما يعدُّه الناس، وهو بيان لغاية طوله، بحيث لو قدر قطعها في زمان، لكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنة، وقيل: ﴿في يوم﴾ متعلقٌ بواقع، فالمراد به يوم القيامة، واستطالتُه إمَّا لأنه كذلك في الحقيقة، لأن يوم القيامة له أولٌ، وليس له آخر، أو لشدته على الكفار، وأيًّا ما كان، فذلك في حق الكافر، أمَّا في حق المؤمن فلا، لما روي عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفَّف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها في الدنيا»[1].

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤﴾.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ متعلق بسأل سائل، لأن استعجال العذاب من الكافرين،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٧٥ والبيهقي، وابن حبان، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٢٦٤.

على وجه الاستهزاء والتكذيب، وكان ذلك يضجر رسول الله ﷺ، فأُمر بالصبر عليه ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ بلا جزع ولا شكوىٰ.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾ الكفار ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ مستحيلاً أو بعيداً عن الإمكان، فلذلك يسألون به.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي كائناً لا محالة، هيناً في قدرتنا، والجملة تعليلٌ للأمر بالصبر.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ أي ذلك العذاب الذي يستعجلونه، سيرونه يوم تصبح السماء سائلة كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، ويكون من الأحوال والأهوال ما لا يوصف.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي كالصوف المصبوغ ألواناً، لأن الجبال مختلفة الألوان، فيها الأحمر، والأبيض، والأسود، فإذا فُتِّت وطُيِّرت في الجو، أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل قريب قريباً عن أحواله، ولا

يكلّمه، لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وأمه وأبيه﴾ الآية.

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يبصر بعضهم بعضاً، فيرى الرجل أخاه وصديقه، فلا يخفون عليهم، وما يمنعهم من التساؤل، إلا تشاغلهم بحال أنفسهم ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي يتمنى المشرك وقيل كل مذنب، وهو مستأنف لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه، بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه، فضلاً أن يهتم بحاله، ويسأل عنها ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ أي العذاب الذي ابتلوا به يومئذ.

﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ أي أخيه الذي ولدته أمه.

﴿ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي عشيرته الأدنين ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي تضمه في النسب إليها.

﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ثم للاستبعاد، يعني لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك لفعله، وهيهات.

﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم وتأنيب له، ودلالة على أن الافتداء لا ينجيه ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار، دلَّ ذكر العذاب عليها ﴿لَظَىٰ﴾ وهي عَلَم للنار، منقول من اللَّظى بمعنى اللهب.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿نَزَّاعَةً﴾ قلّاعة ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ أي أطراف الإنسان كاليدين، والرجلين، أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾.

﴿تَدْعُواْ﴾ بأسمائهم يا كافرُ، يا منافقُ، إليَّ إليَّ[1] ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة، فكان عاصياً فاجراً.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ فجعله في وعاء ولم يؤدِّ حق الله فيه، وتشاغل به عن الدين، وعبادة ربِّ العالمين.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي شديد الحرص، قليل الصبر، ويفسّره الآتي، وهو قوله:

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم، بلسان صحيح فصيح، تقول: إليَّ يا كافر، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطيرُ الحبَّ ـ اهـ تفسير ابن كثير.

﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ أي الضُرُّ ﴿ جَزُوعًا ﴾ أي يكثر الجزع والضجر.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ ﴾ السعة ﴿ مَنُوعًا ﴾ أي كان مبالغاً في المنع والإمساك، ينسى فضل الله عليه، فيشح ويبخل.

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ استثناء من المطبوعين على القبائح الماضية.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ ﴾ أي الصلوات الخمس المفروضة ﴿ دَآئِمُونَ ﴾ أي لا يشغلهم عنها شاغل.

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ أي نصيب معيَّن، هي الزكاة لأنها مقدرة معلومة، أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه، يؤديها في أوقات معلومة.

﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ لِّلسَّآئِلِ ﴾ الذي يسأل لحاجته ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أي يوم الجزاء، يصدِّقون بأعمالهم بالطاعات البدنية والمالية، طمعاً في المثوبة الأخروية.

﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون على أنفسهم، مع ما لهم من الأعمال الفاضلة كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي خائفة ألاَّ يتقبل الله عملها الصالح.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي لا ينبغي لأحدٍ أن يأمن عذابه جلَّ وعلا، فالأمور بخواتيمها، والخشية من الله دليل الإيمان ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ يحفظونها عن الزنى والفواحش.

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أي غير مؤاخذين لأنها فيما أباحه الله لهم.

﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أي فمن طلب غير الزوجة وملك اليمين، فأولئك هم المعتدون، المجاوزون الحدَّ في الطغيان والإجرام.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ يقيمونها بالعدل، بلا ميل إلى قريب أو شريف، ولا يكتمونها، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات، لإبانة فضلها، لأن في إقامتها إحياء الحقوق.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يراعون شرائطها، ويكمِّلون فرائضها، وسننها، وآدابها، كرَّر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم العبادات، وتكرار الموصولات، لتنزيل اختلاف الصفات، منزلة اختلاف الذات، إيذاناً بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة، نعتٌ جليلٌ على حياله، له شأن خطير، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي أصحاب هذه الصفة ﴿ فِي جَنَّٰتٍ ﴾ أي مستقرون في قصور عالية في جنان النعيم ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ فيها بأنواع الإكرام.

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كتب مفصولاً اتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه، أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين ﴿ قِبَلَكَ ﴾ أي حولك ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه، ويستهزئون به ويكذبونه.

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ أي عن يمينه ﷺ وعن شماله ﴿عِزِينَ﴾ أي فرقاً شتَّى جمع عِزَة، وأصلها عزوة والعِزَةُ وزان عِدَة: الطائفةُ من الناس يأتون متفرقين، يقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنّها قبلهم، فنزل قوله تعالى:

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان؟ وهو إنكار لقولهم المذكور.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من نطفة قذرة، لا تناسب عالم القدس، فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة، ولم يتخلق بالأخلاق الملكية، لم يستعدَّ لدخولها، فمن أين لهم أن يطمعوا في دخول الجنة، وهم مكبون على الكفر والفسوق والفجور؟.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ مطالع الشمس ﴿وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ مغاربها، والمعنى: إذا كان الأمر كما ذُكر، فأقسم برب المشارق والمغارب.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي على أن نهلكهم، ونأتي بخلق أمثل منهم، وأطوع لله تعالى، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي دعهم في غيهم وضلالهم، يتلهون بالدنيا الفانية، حتى يُلاقُوا ذلك اليوم العصيب الرهيب الذي ينتظرهم، وهو أمر يحمل بين جنباته الوعيد والتهديد.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣)﴾.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من القبور ﴿سِرَاعًا﴾ أي مسرعين إلى الداعي ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ وهو كل ما نُصب وعُبد من دون الله تعالى[1]، أو إلى شيء منصوب كالعلم والراية ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون الخُطا.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)﴾.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي ذليلة أبصارهم، يغشاهم الذل والهوان من كل مكان ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي ذلك هو اليوم الذي وُعدوا به في الدنيا، وهم يكذبون به ويهزؤون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم. والله تعالى أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»

* * *

---

(١) في هذا التشبيه تهكمٌ وسخرية لاذعة، تتناسق مع وصفهم في الدنيا، فقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب والأصنام في الأعياد ليعبدوها، وها هم يسارعون اليوم إلى نار الجحيم ليقتحموها ﴿كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون﴾ أي يسرعون، فما أروعه من تصوير؟!.

سورة نوح

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ ﴾.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي بأن قلنا له: أنذر وخوِّفْ قومك الكافرين.

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو عذاب الآخرة، أو الدنيا.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي أنا لكم منذر، موضح لحقيقة الأمور، أضافهم إلى نفسه، إظهاراً للشفقة عليهم.

﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾.

﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي اعبدوا الله وحده، وذروا عبادة الأوثان، وخافوا عقابه، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه.

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما سبق، فإن الإسلام يمحو ما قبله ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ﴾ هو أقصى ما قُدِّر لهم بشرط الإيمان والطاعة، أي يمهلكم إلى انتهاء أعماركم، دون عقوبة ولا عذاب، وأما العمر فمحدود لا يزيد ولا ينقص، وإنما المراد تأخيرهم لاستكمال أعمارهم، دون عقاب ولا عذاب ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما قُدِّر لكم، على تقدير بقائكم على الكفر ﴿ إِذَا جَآءَ ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ أي لا يتأخر نزوله. فبادروا إلى الإيمان قبل فوات الأوان!! ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لو عرفتم ما يحلُّ بكم من الندامة، عند انقضاء الأجل، ما عبدتم هذه الأوثان.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ﴾ أي قال نوح مناجياً ربه، حاكياً ما جرى بينه وبين قومه، بعدما بذل في الدعوة غاية المجهود، قال يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان ﴿ لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي دائماً بلا فتور، في الصباح والمساء، والليل والنهار.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلاَّ نفاراً وإدباراً.

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ لكيلا يسمعوا كلامي ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي وتغطوا بثيابهم لئلا يبصروني، أولئلا يعرفهم فيدعوهم ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿ وَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ عن اتباعي ﴿ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ أي شديداً، وذكرُ المصدر دليل على فرط استكبارهم.

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي دعوتهم دعاء جهاراً.

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر، أي فدعوتهم تارة بعد تارة، على وجوه متخالفة من السر والعلن.

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ للتائبين، وكأنه لما أمرهم بالعبادة، قالوا: إن كنا على حقٍّ فلا نتركه، وإن كنا على باطل، فكيف يقبلنا الله؟ فأمرهم بما يمحو معاصيهم، ويجلب إليهم الخير، ولذلك وعدهم بما هو أوقع في قلوبهم، وأحب إليهم، من الفوائد العاجلة.

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ ﴾ أي المطر ﴿ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ كثير الدرّ، أي غزيراً متتابعاً.

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ ﴾ أي يزدكم ويكثركم بالرزق ﴿ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ ﴾ أي بساتين وحدائق غناء ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ ﴾ فيها ﴿ أَنۡهَٰرٗا ﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم وهذا كله مما يميل إليه طبعُ البشر، وقيل: لمَّا كذبوا بعد تكرار الدعوة، حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فوعدهم أنهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخصب، والعيش الرغيد، ويدفع عنهم ما كانوا فيه من الضيق.

﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴾؟ أي ما لكم أيها القوم لا ترهبون عظمة الله وجلاله؟ وهو إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله وقاراً.

﴿ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴾ الطَّوْرُ بالفتح: الحالةُ والهيئة، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين في أطوار متباينة، عناصر، ثم أغذية، ثم أخلاطاً، ثم نطفاً، ثم عَلَقاً، ثم مُضَغاً، ثم عظاماً ثم لحماً، ثم أنشأكم خلقا آخر، فإن التقصير في توقير من هذه شؤونه مما لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴾ أي بعضها فوق بعض، كتطابق بناية ذات أدوار.

﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا ﴾ أي في السماء الدنيا منوّراً لوجه الأرض، في ظلمة الليل، ونسبته إلى الكل مع أنه في السماء الدنيا، لما أنها محاطة

بسائر السماوات[1] ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يزيل ظلمة الليل، ويبصر أهل الدنيا في ضوئها وجه الأرض، ويشاهدون الآفاق، كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي أنشأكم منها، كما يخرج النبات من الأرض، فاستعير الإنبات للإنشاء، لكونه أدل على الحدوث، والتكون من الأرض، ولم يقل إنباتاً، لأن الإنبات صفة لله تعالى، غير محسوسة لنا.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت بالدفن ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث ﴿إِخْرَاجًا﴾ محققاً لا ريب فيه، أكَّده بالمصدر، دلالةً على أن الإعادة محقَّقة، لا شك فيها.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلبون عليها كما يتقلَّب الرجل على بساطه[2]، فهي فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالفراش والبساط.

---

(١) صحَّ كون القمر في السماوات مع أنه ليس داخلها، بل تحت السماء الأولى، بدليل قوله سبحانه ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وأقربُها إلينا القمر، ذلك لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، كما نقول: عليٌّ في المدينة، وهو في جزء منها، وليس في جميع أنحاء المدينة، فالقمر تحت السماء الأولى، وهو مع جميع الكواكب محاط بالسماوات السبع، فكأنه فيها، ولهذا نقول: إن وصول الإنسان للقمر ممكن، وقد حدث فعلاً، وليس فيه اختراق للسماوات، فتنبه إلى معاني الآيات رعاك الله.

(٢) ليس معنى الآية أن الأرض منبسطة غير كروية، بل المعنى أن الله سبحانه قد جعلها فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالبساط الذي يفترشه الناس، ليست كلها جبالاً =

﴿ لِتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ لِتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا ﴾ أي طُرُقاً ﴿ فِجَاجًا ﴾ أي واسعة أو مختلفة تنتقلون من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة.

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ نُوحٌ ﴾ مناجياً له تعالى ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ أي تمادوا على عصياني وتكذيبي، مع ما بالغتُ في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي استمرَّ فيهم السفلة والفقراء، على اتباع رؤسائهم، الذين أبطرتهم أموالهم، وغرتهم أولادهم، فصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي كبيراً في الغاية، متناهياً في المكر والدهاء، ومكرُهم احتيالُهم في الدين، وتحريش الناس على أذى نوح عليه السلام، وصدُّ الناس عن الإيمان به.

= ووديانا، بل فيها السهول الفسيحة، ليبني عليها الإنسان ويزرع، وكروية الأرض أمر مقطوع به، عرفه علماؤنا الأقدمون، وقد سئل ابن تيمية كما في الفتاوى ٦/ ٥٨٨ عن السماوات والأرض، هل هما جسمان كرويان؟ فأجاب لا أعلم في علماء المسلمين المعروفين، من أنكر ذلك، إلا من لا يؤبه له من الجهال، واستدل بآية ﴿كل في فلك يسبحون﴾ وبآية ﴿يكور الليل على النهار﴾ وقال: التكويرُ هو التدوير.. الخ وقال الألوسي ٢٩/ ٧٦: وكرويتها، كالأمر اليقيني، والكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً، أهـ.

﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي الرؤساء لسفلتهم ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أي عبادة آلهتكم على وجه العموم ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا ﴾ صنم على صورة رجل ﴿ وَلَا سُوَاعًا ﴾ صنم على صورة امرأة ﴿ وَلَا يَغُوثَ ﴾ وهو على صورة أسد ﴿ وَيَعُوقَ ﴾ على صورة فرس ﴿ وَنَسْرًا ﴾ هو على صورة نسر، أي هذه الأصنام الخمسة على الخصوص، وكأنها كانت أكبر أصنامهم، وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد، أما «وَدٌّ» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأمّا «نسر» فكانت لحمير، أسماء رجال صالحين من قوم نوح..»(١) الحديث.

﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ ﴾ أي الرؤساء ﴿ كَثِيرًا ﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ أي هلاكاً ودماراً.

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ ﴾ أي بسبب خطيئاتهم المعدودة ﴿ أُغْرِقُواْ ﴾ بالطوفان ﴿ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ المراد عذاب القبر فهو عقب الإغراق، وإن كانوا في الماء،

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ٨/٦٦٧.

فالآية دالة على إثبات عذاب القبر، لأن فاء التعقيب تدل على هذا، ولا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلاَّ بطل معنى الفاء، التي تفيد معنى الترتيب والتعقيب، فإن قيل: إنا نشاهد أنهم ماتوا في الماء؟ فالجواب إن هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، وهذا خطأ، لما أن الإنسان هو الذي كان موجوداً من أول العمر، ثم أجزاؤه دائماً في التحلل والذوبان، ومعلوم أن الباقي غير متبدل، فالإنسان عبارة عن ذلك الباقي، وتنكير النار لتعظيمها وتهويلها ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لم يجد أحد منهم، واحداً من الأنصار، وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى، وبأنها غير قادرة على نصرهم، وهذه الآية حجة على كل من عوَّل على شيء غير الله تعالى.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي أحداً يدور في الأرض، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال ما بالدار ديَّار.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ أي إن تركتهم يا رب ولم تهلكهم ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحق ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي إلا من سيفجر، وسيكفر، وإنما قاله لاستحكام علمه، بما يكون منهم، ومن أعقابهم، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ توجَّه نوح عليه السلام لربه، بهذا الدعاء الخاشع المنيب، فبدأ بالدعاء لنفسه

أولاً، ثم لأبويه ثانياً، ثم لمن زار بيته ثالثاً، ثم عمَّم الدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا توجيه لكل مسلم أن يدعو بالمغفرة لنفسه، ولوالديه، ولجميع إخوانه من المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي إلا هلاكاً وخساراً، فاستجاب الله دعاءه، فأهلكهم جميعاً. والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه اجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»

* * *

سُورَةُ الجِنّ

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾.

﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ أن الأمر والشأن ﴿ٱسۡتَمَعَ﴾ أي القرآن كما ذكر ﴿نَفَرٞ﴾ أي جماعة ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي المخلوقين المستورين عن الأنظار، المكلفين كالإنس بالإيمان والعبادة، وفيه دلالة على أنه ﷺ ما رآهم، ولم يقرأ عليهم، ولم يشعر باستماعهم، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته، فسمعوها، فأخبره الله بذلك، والحاصل من الكتاب والسنة، أن الجن موجودون، متعبدون بالأحكام الشرعية، على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم، وأن النبي ﷺ رسولٌ إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه، فهو من المؤمنين، ومن كفر به فهو من الشياطين ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لقومهم لما رجعوا إليهم ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا﴾ في صلاة الفجر ﴿قُرۡءَانًا﴾ كتاباً مقروءاً ﴿عَجَبٗا﴾ أي عجيباً، بديعاً، مبايناً لسائر الكتب، في حسن نظمه، وصحة معانيه، والعجيبُ ما يكون خارجاً عن العادة، وعجباً مصدر يوضع موضع العجيب، وهو أبلغ من العَجيب[(١)].

(١) لمَّا حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، رجعوا إلى قومهم=

﴿ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ أي يهدي من تمسك به إلى الحق والصواب، وإلى التوحيد ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ بالقرآن ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ ﴾ بالله ﴿ أَحَدًا ﴾ من خلقه، أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به، وهذا يدل على أنهم كانوا من المشركين.

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أي عظمته وجلاله ﴿ مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أي تعالتْ عظمته من أن يتخذ زوجة، ولا ولداً، لأنهم لمَّا سمعوا القرآن، ووفّقوا للتوحيد والإيمان، تنبهوا فيما اعتقده كفرة الجن، من تشبيه الله تعالى بخلقه، من اتخاذ الصاحبة والولد، فنزهوه عنه.

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أي جاهلنا إبليس، أو مردة الجن ﴿ عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ أي قولاً ذا شطط، وهو البعد ومجاوزة الحدِّ، يريدون به الكفر، لبعده عن الصواب.

= فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، قالوا: فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الأمر الذي حدث؟ فانطلقوا نحو تهامة ـ يعني مكة ـ فرأوا رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، واستمعوا إلى الرسول وهو يقرأ القرآن، فتأثروا به بالغ التأثير، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم منذرين ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً﴾ وأنزل الله عز وجل على نبيه هذه السورة الكريمة ﴿قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن..﴾ السورة..، وانظر تمام الحديث في صحيح البخاري ٨/ ٦٧٠ من كتاب التفسير.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهو اعتذار منهم عن تقليدهم سفيههم، أي كنا نظن أن لن يكذب أحد على الله تعالى أبداً، ولذلك اتبعناهم، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد كذبوا على الله، ونسبوا إليه ما لا يليق به سبحانه.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ﴾ كان الرجل من العرب، إذا نزل بمخوفٍ من الأرض، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد به كبير الجن ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أي فزاد الرجال العائذون الجنَّ ﴿رَهَقًا﴾ أي كبراً وعتواً، والرَّهق: الإثم والطغيانُ.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ أي الإنس ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها الجن، على أنه كلام بعضهم لبعض ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم يا معشر الجن.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي طلبنا بلوغ السماء ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ أي حراساً اسم جمع، ولذلك قيل ﴿شَدِيدًا﴾ ولو نظر إلى معناه لقيل: شِدَاداً، وهم الملائكة الذين يمنعونهم عن استراق السمع ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب أي شُهباً محرقة تقذف من يحاول الاقتراب منها.

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ ﴾ أي قبل هذا ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من السماء ﴿ مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ لاستماع أخبار السماء، خالية عن الحرس والشهب ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي يجد شهاباً راصداً له، يصدُّه عن الاستماع بالرجم، وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعث رسول الله ﷺ، ولكنْ لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه، في شدة الحراسة، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بُعث ﷺ مُنعوا من ذلك أصلاً.

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ ﴾ بهذا، أي بعدم استراق السمع ﴿ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾؟ خيراً ورحمة، ونسبةُ الخير إلى الله، دون الشر، من الآداب الشريفة القرآنية، نطق بها الجن، حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه(١)، كقول إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذي هو يُطْعِمني ويَسْقِين. وإذا مرضْتُ فهو يَشْفين﴾(٢).

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ أي الموصوفون بالتقوى، المائلون إلى الخير

---

(١) الخير ينسب إلى الله خلقاً وتقديراً، والشرُّ لا ينسب إليه أدباً وإجلالاً، وإن كان كلٌّ من الخير والشر، بتقدير من الله سبحانه: ﴿قل كلٌّ من عند الله﴾ وكما ورد في الحديث الشريف «وأن تؤمن بالقَدَر خيره وشره من الله تعالى».

(٢) سورة الشعراء، آية: ٧٩ ـ ٨٠.

والصلاح، حسبما تقتضيه الفطرة السليمة، لا إلى الشر والفساد، كما هو مقتضى النفوس الشريرة ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي قوم أشرار دون ذلك، فيدخل فيه الكافر وغيره، وهذا بيان حالهم قبل استماع القرآن، وأما حالهم بعد الاستماع فسيُحكى ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ﴾ أي مذاهب ﴿قِدَدًا﴾ أي متفرقة ومختلفة، جمع قِدَّة من قَدَّ إذا قطع، والقِدَّةُ: الطريقةُ والفرقة من الناس.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ الظنُّ هنا بمعنى العلم واليقين، أي علمنا وأيقنَّا الآن، بعد سماعنا القرآن ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لن نعجزه كائنين في الأرض، أينما كنا فيها، إن أراد بنا سوءاً أو مكروهاً ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي ولن نعجزه هاربين منه إلى السماء، فنحن في قبضة الله وسلطانه حيثما كنا، ولن نفلت من عقابه إن كفرنا به.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي آمنا بالله تعالى من غير تردد ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا﴾ أي نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي ظلماً أو مكروهاً يغشاه، وفيه دليل على أن من حق الإيمان أن يجتنب المظالم.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي الجائرون عن طريق الحق،

وهو الإيمان والطاعة ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَتَبِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ أي طلبوا هدى، والتحري طلب الأحرى أي الأولى، أي توخَّوْا رشَداً عظيماً، يبلّغهم إلى دار الثواب.

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ ﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أي وقوداً لجهنم، وفيه دليل على أن الجن يُعذَّبون في النار، واللهُ قادر أن يعذب النَّارَ بالنار.

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ ﴾.

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ أي وأنه الحال والشأن أن لو استقام الإنسُ والجنُّ ﴿ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ طريقة الإسلام، وأطاعوا الله ورسوله ﴿ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ أي كثيراً وافراً، ينبت لهم الزرع، ويخرج لهم الضرع، وتخصيصهُ بالذكر، لأنه أصل المعاش والسعة.

﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧ ﴾.

﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنختبرهم ونبتليهم في هذه التوسعة، أيشكرون أم يكفرون؟ ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ ﴾ عن القرآن أو التوحيد ﴿ يَسْلُكْهُ ﴾ أي ندخله ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أي شاقّاً، صعباً، شديداً، يعلو المعذَّب ويغلبه، لا يجد معه الإنسان الراحة والسعادة، يقال: تصعَّدني الأمرُ، أي شقَّ عليَّ، ونظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿سأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ هذا من جملة الموحَىٰ به، أي المساجد مختصة به تعالى، وبعبادته[1] ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾ أي لا تعبدوا فيها ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ أي غيره، فهي بيوت الله، بنيت لذكره وعبادته وتوحيده، لا ليمدح فيها الملوك والعظماء.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ وهو الموحى به ﴿لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ يعني الرسول ﷺ، وإنما ذكر لفظ العبد للتواضع، فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه، وللإشعار بما هو المقتضي لقيامه وعبادته، ولأنه أحب الأسماء إليه ﷺ وذلك حين كان يصلي ببطن نخلة ﴿كَادُواْ﴾ أي الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ أي متراكمين من ازدحامهم عليه، حرصاً على استماع القرآن، وتعجباً مما رأوا من عبادته، واقتداء أصحابه به قياماً، وركوعاً، وسجوداً، ولأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا ما لم يسمعوا بنظيره.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أي أعبد ربي ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ﴾ أي بربي في العبادة ﴿أَحَدٗا﴾ فليس ذلك ببدع، ولا مستنكر يوجب التعجب أو الإطباق على عداوتي.

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾.

---

(١) كما روي في الحديث الشريف «إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يُكرم من زاره فيها» أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود مرفوعاً، كما في الفتح الكبير ١/ ٣٨٥.

﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أي مضرة ولا نفعاً، وإنما الضارُّ والنافع هو الله تعالى.

﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا (٢٢) ﴾.

﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ إن أرادني بسوء ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ مُلْتَجَأً التجيء إليه، وهذا بيان لعجزه ﷺ عن شؤون نفسه، بعد بيان عجزه عن شؤون غيره، والمُلتحَدُ: اسم الموضع وهو الملجأ.

﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا (٢٣) ﴾.

﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي لا أملك لكم ضراً ولا رشداً، لكنْ أبلّغ بلاغاً فإنما أنا مرسل ومبلِّغ، والبلاغ بمعنى التبليغ ﴿ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ التي أرسلني بها ربي ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي مخلدين في النار بلا نهاية.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال، كأنه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتى ﴿ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من فنون العذاب في الآخرة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ أهم أم المؤمنون؟.

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا (٢٥) ﴾.

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ ﴾ أي ما أدري ﴿ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾؟ من العذاب ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾ أي غايةً بعيدة، فإنه رد لما قاله المشركون عند سماعهم

ذلك متى يكون ذلك الموعود؟ إنكاراً له واستهزاءً به، فقيل: قل لهم إنه كائن لا محالة، وأما وقته فما أدري متى يكون؟.

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ أي هو سبحانه عالم الغيب ﴿ فَلَا يُظۡهِرُ ﴾ أي فلا يطلع ﴿عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من خلقه اطلاعاً كاملاً موجباً لعين اليقين.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾ أي إلا من ارتضاه من رسله الكرام، فيطلعه على بعض الأمور الغيبية، كما أطْلَع عيسى عليه السلام على بعض المغيبات لمعجزة له ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ وفي هذا إبطال الكهانة والتنجيم ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ ﴾ أي يدخل ﴿ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ أي من بين يدي المرتَضىٰ ﴿رَصَدٗا﴾ أي حفظة من الملائكة، يحفظونه من الشياطين، ويعصمونه من وساوسهم، حتى يُبلِّغ الوحي الإلهي.

﴿ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ لِّيَعۡلَمَ ﴾ أي ليعلم الله تعالى ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾ أي الرسل ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ كاملة بلا زيادة ولا نقصان، ورسالات ربهم عبارة عن الغيب والوحي، والمعنى: ليعلم الله موجوداً حال وجوده، كما كان يعلمه قبل وجوده ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ ﴾ أي أحاط علم الله تعالى بما قام به الرسل، ﴿ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴾ أي وأحصى الله وضبط ما خلق، وعرف كل شيء

خَلَقه، حتى القطرُ والرمل، فلم يخف عليه شيء في هذه الكائنات، والله بكل شيء عليم، على وجه الدقة والتفصيل. والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن»

* * *

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ①﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أي المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه، أي تلفَّف بها، وكان ﷺ نائماً بالليل فأمر بالقيام للصلاة، وذلك أول ما جاء جبريل عليه السلام بالوحي عليه، فرجع إلى خديجة وهو يقول: زملوني، زملوني، وتخصيص وصف التزمل بالخطاب، للملاطفة والتأنيس.

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾.

﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ أي قم إلى الصلاة وداوم عليها، وكان قيام الليل فريضة في ابتداء الإسلام عليه ﷺ، روى مسلم عن سعد بن هشام قال: «انطلقتُ إلى عائشة، فقلت: «أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قلت بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، فقلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين؟ قالت: ألست تقرأ المزمِّل؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها اثني

عشر شهراً في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخر السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة»(١) ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل، أي إلا القليل منه.

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾.

﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدل من الليل الباقي، أي قُمْ نصف الليل لعبادة ربك ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ أي انقص القيام من النصف إلى الثلث ﴿قَلِيلًا﴾ أي نقصاً قليلاً، بحيث لا ينحطُّ إلى نصف النصف.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي زد القيام على النصف المقارن له فالمعنى: تخييره ﷺ بين أن يقوم نصفه، أو أقل منه، أو أكثر ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾ في أثناء القيام، أي اقرأه على تؤدةٍ، وتبيين حروف، بحيث يتمكن السامع من عدِّها ﴿تَرْتِيلًا﴾ بليغاً يعين الإنسان على فهم كلام الله، والترتيل: تنسيقُ الشيء، أمره تعالى بترتيل القرآن، حتى يتمكن الخاطر من التأمل، في حقائق تلك الآيات، فعند ذكر الله يستشعر عظمته، وعند ذكر الوعد والوعيد، يحصل الرجاءُ والخوفُ، وحينئذ يستنير القلب بنور المعرفة والمناجاة، عن سهل بن سعد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن قبل أن يقرأه أقوام، يقيمونه كما يقام السهم، يتعجل أجرَه ولا يتأجله»(٢) وفي رواية «لا يجاوز تراقيهم».

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين رقم ٧٤٦، وهو طرف من حديث طويل، فيه أحكام شرعية كثيرة.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ٨٣١ باب ما يجزىء الأميَّ والأعجمي من القراءة، ولفظه كما في أبي داود: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقترىء ـ أي نتبارى في القراءة فقال: الحمد لله، كتاب الله واحد، وفيكم الأحمر وفيكم الأبيضُ، وفيكم الأسود، اقرؤوه قبل أن يقرأه أقوام، يقيمونه كما يقوم السهم..» الحديث.

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ .

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ ﴾ سننزل عليك يا محمد قرآناً عظيماً جليلاً، وإيثارُ الإلقاء لقوله تعالى ﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أي كلاماً جليلاً، عَظُم قدرُه، وكَبُرَ خطرهُ، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنه: كلاماً عظيماً، ووجهُ النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل، فكأنه قال إنما أمرتك بصلاة الليل، لأنا سنلقي عليك قولاً عظيماً، فلا بدَّ أن تسعى في جعل نفسك، مهيأة مستعدة، لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلاَّ بصلاة الليل، ولقد كان رسول الله ﷺ يلاقي عند نزوله شدة، لأنه كلام الجبار جلَّ وعلا، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً» قولها «فيفصم» أي ينفصل، و «يتفصَّدُ» أي يجري عرقه كما يجري الدم من الفصد.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ ﴾ .

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ أي العبادة التي تنشأ بالليل، أي تحدث، أو ساعات الليل، وكان زين العابدين يصلي بين العشائين ويقول: هذه ناشئة الليل وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والكسائي، وقالوا: لأن ناشئة الليل التي منها يبتدىء سواد الليل ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ أي هي أشد كُلفةً على المصلي من صلاة النهار، فلا بد من الاعتناء بالقيام، ثم أهي أشد موافقة من الخشوع والإخلاص، فكأنه تعالى قال: أمرتك بصلاة الليل، لأن موافقة القلب واللسان فيه أكمل، والخواطر إلى المكاشفات الروحانية أتم ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أي وأشد مقالاً، وأثبت قراءة لحضور القلب، وهدوء الأصوات، والحاصل أن عبادة الليل أشد نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأبعد عن الرياء، وأكثر بركة وثواباً.

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾ .

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴾ أي تقلباً وتصرفاً في مهماتك، واشتغالاً بشواغلك فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة، فعليك بها في الليل، وهذا بيان للداعي إلى قيام الليل.

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ ﴾.

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ﴾ أي دم على ذكره ليلاً ونهاراً، على أيِّ وجهٍ كان، من تسبيح، وتهليل، وتحميد، وصلاة، وقراءة، ودراسة علم ﴿ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾ أي انقطع إليه تعالى بمجامع الهمة، واستغراق العزيمة في مراقبته تعالى، والتبتلُ: الانقطاع إلى الله تعالى، وطلب الخير منه دون غيره، وحيث لم يكن ذلك إلاَّ بتجريد نفسه ﷺ عن العلائق الصادَّة عما سواه قيل: تبتيلاً.

﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ ﴾.

﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ أي هذا الخالق هو المالك لمشارق الأرض ومغاربها ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ أي إذا علمت أنه ملك المشرق والمغرب ولا معبود إلا هو، فاتخذه كافياً لأمورك، واعتمد عليه جلَّ وعلا.

﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ ﴾.

﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المجرمين، على ما يقولون في ذات الله من الصاحبة والولد، وفيك من الساحر والشاعر ﴿ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ بأن تجانبهم وتداريهم، وتكل أمورهم إلى ربهم، كما يعرب قوله تعالى:

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ ﴾.

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ أي دعني وإياهم، ووكِّل أمرهم إليَّ فإني أكفيكهم

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي أرباب التنعم يريد صناديد قريش ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي أمهلهم زماناً قليلاً.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ للكافرين ﴿أَنكَالًا﴾ جمع نكل وهو القيد الثقيل ﴿وَجَحِيمًا﴾ أي ناراً محرقة.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلوق ولا يكاد يساغ كالضريع والزقوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً، لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي تضطرب وتزلزل وهو يوم القيامة ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ رملاً مجتمعاً من كثب الشيء إذا جمعه الفعيل بمعنى المفعول ﴿مَّهِيلًا﴾ منثوراً.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يا أهل مكة ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى عليه السلام، وعدم تعيينه لعدم دخوله في التشبيه، وكونه معلوماً من سياق الآيات.

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ كما عصيتم الرسول محمداً ﷺ ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ جيء به للتنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء، ما حاق بأولئك لا محالة، والوبيلُ: الوخيمُ وزناً ومعنى.

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾ أنفسكم ﴿ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ إن بقيتم على الكفر ﴿ يَوْمًا ﴾ أي عذاب يوم ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ ﴾ من شدة هوله ﴿ شِيبًا ﴾ شيوخاً جمع أشيب بطريق التمثيل، فهو كناية عن الشدة والمحنة، وليس المراد أن هول ذلك اليوم، يجعل الولدان شيباً حقيقة، لأن إيصال الألم والخوف إلى الصبيان، غير جائز يوم القيامة، فالموضوع من باب التشبيه، والهموم والأحزان، إذا تفاقمت على المرء أضعفت قواه، وأسرع فيه الشيبُ.

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ أي منشقٌّ بشدة ذلك اليوم، أي السماء على عظمها وإحكامها، تنفطر لشدة ذلك اليوم، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟ ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ أي وعد الله تعالى يكون لا محالة.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ ﴾ أي الآيات الناطقة بالوعيد ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة بليغة ﴿ فَمَن شَآءَ ﴾ أن يتعظ ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ بالتقوى والخشية والعمل الصالح، فإنه المنهاج الموصل إلى مرضاته سبحانه وتعالى.

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ ﴾ أي أقلَّ منهما، فاستعير الأدنى وهو الأقرب، للأقل، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت، قلَّ ما بينهما ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ أي تقوم نصفه، وثلثه ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي جماعة من أصحابك ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي والله جلَّ وعلا هو العالم بمقادير ما تقومون وما تنامون، لا يعلم مقادر ساعاتها كما هي إلا الله ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي علم أن لن تطيقوا قيامه على هذه المقادر، إلاّ بشدة ومشقة ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو، والتخفيف، برفع التبعة كما رفع عن التائب، فإذا كان الأمر كما ذكر ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ ﴾ في الصلاة، والأمر للوجوب ﴿ مَا تَيَسَّرَ ﴾ عليكم ﴿ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أو فصلُّوا ما تيسّر عليكم من صلاة الليل، عبّر عن الصلاة بالقرآءة كما عبّر عنها بسائر أركانها، قيل: كان التهجد واجباً على التخيير المذكور فعَسُر عليهم القيام به فنسخ به، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ أي من يشقُّ عليه قيامُ الليل، وهي حكمة أخرى مقتضية للترخيص والتخفيف ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يسافرون للتجارة وطلب الرزق ﴿ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي يطلبون رزقه بالتجارة ﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني الغزاة والمجاهدين، سوّىٰ بين المجاهد والمكتسب، لأن كسب الحلال جهاد، روي عن ابن مسعود أنه قال: «أيمّا رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين، صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه، كان عند الله بمنزلة الشهداء،

ثم قرأ: ﴿وآخرون يضربون في الأرض﴾ الآية ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ كرر الأمر بالتيسير لشدة احتياطهم، وللتأكيد ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدوا الصلوات الخمس المفروضة عليكم ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة في أموالكم ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالإنفاقات في سبيل الخيرات، وإنما أضافه إلى نفسه، لئلا يمنَّ على الفقير فيما يتصدق به ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الحلال، والإخلاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ أي تجدوا ثوابه ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ مما خلفتم ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مجامع أحوالكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ يستر ويخفف، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المزمّل»

* * *

سُورَةُ المُدَّثِّر

مكية وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يحدِّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: فبينا أنا أمشي، سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء، جالسٌ على كرسيّ بين السماء والأرض، فجئثت منه رُعْباً، حتى هويتُ إلى الأرض، فجئتُ أهلي فقلتُ: زمِّلوني، زمِّلوني، فدثِّروني، فأنزل الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي يا أيها المتلفِّفُ بثيابه، من الدِّثار وهو كل ما كان من الثياب فوق الملابس الداخلية، وأصله المتدثر، فأدغم.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ (٢)﴾.

﴿قُمْ﴾ من مضجعك قيام عزم وتصميم ﴿فَأَنذِرْ﴾ أي فحذِّر قومك من عذاب الله كقوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أو مطلق للتعميم، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ والمراد فاشتغل بفعل الإنذار.

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي خُصَّ ربك بالتكبير، وهو التعظيم، ويروى أنه لمّا نزلت قال ﷺ: «الله أكبر» وأيقن أنه الوحي، لأن الشيطان لا يأمر بذلك، فإن قلت: وما كانت الصلاة واجبة في ذلك الوقت، قلنا: لا يبعد أنه ﷺ كانت له تطوعاً فأمر بأن يكبّر فيها، أو للدلالة على أن المقصود أولاً أن يكبّر ربه وينزّهه من الشرك، فإنه أول ما وجب.

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ وذلك بصيانتها عن النجاسة، وغسلها بعد تلطخها، وبتقصيرها، فإن طولها يؤدي إلى جر الذيول على القاذورات، وهو أول ما أمر به ﷺ من رفض العادات المذمومة، وقيل: هو أمرٌ بتطهير النفس، مما يستقذر من الأفعال، يقال: فلانٌ طاهرُ الثوب والذيل، إذا وصفوه بالنقاء عن المعائب ومدانس الأخلاق.

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَالرُّجْزَ ﴾ أي عبادة الأوثان وما يؤدي إليها ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ اثبت على هجره، لأنه ﷺ كان بريئاً من ذلك، وأصلُ الرجزِ: العذابُ، سميت الأوثان رجزاً لأنها تؤدي إلى العذاب، وقال الفخر الرازي: الرجزُ اسم للقبيح المستقذر.

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي لا تعط مستكثراً، أي رائياً لما تعطيه كثيراً،

لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً، وقيل: معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثره[1].

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾.

﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ أي لأمره ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ على أذية المشركين لأجل أمر ربك.

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ ﴾.

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ أي نفخ في الصور، وهو من النقر بمعنى التصويت، والفاء للسببية، كأنه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل، يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك.

﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ ﴾.

﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ذلك اليوم الشديد ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ أي فيوم الحساب يوم عسير.

﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ﴾.

﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ تأكيد لعسره عليهم، مشعرٌ بيسره على المؤمنين، واختلف في كون المراد به النفخة الأولى أو الثانية، والحق أنها الثانية إذ هي التي يختص عسرها بالكافرين.

---

(١) هذا قول الحسن البصري واختاره ابن جرير الطبري، وروي عن ابن عباس أن المعنى: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها، وهذا وإن كان حلالاً بالنسبة لعامة المسلمين، لكنه مخلٌّ بمنصب النبوة، لأن هدف الأنبياء أسمى وأعلى من أن تكون الدنيا غاية وهدفاً لهم، وأما غير الأنبياء فذلك جائز لهم للحديث الشريف «تهادوا تحابوا».

﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ ﴾.

﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ نزلت في «الوليد بن المغيرة» أي ذرني وحدي معه، فإني أكفيكه، أو هو حال من العائد المحذوف، أي من خلقته فريداً لا مال له، ولا ولد، وكان يقول: أنا الوحيد وليس في العرب نظيري.

﴿ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ ﴾.

﴿ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴾ أي مبسوطاً، كثيراً، واسعاً، فقد كان له الزرع، والضرعُ، والتجارة.

﴿ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ ﴾.

﴿ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴾ أي أولاداً حضوراً معه بمكة، لا يفارقونه، ولا يحتاج أن يرسلهم في مصالحه لكثرة خدمه، و كان له عشرة بنين، فأسلم منهم ثلاثة: خالد، وعمارة، وهشام.

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ﴾.

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴾ وبسطت له الجاه والرياسة حتى لُقِّب «ريحانة قريش» والوحيد.

﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ ﴾.

﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴾ على ما أوتيه و «ثم» ههنا معناه التعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري، وأطعمتك، ثم أنت تشتمني!؟ وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، فيرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر.

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ كَلَّآ ﴾ ردع له وقطع لرجائه، فلم يزل بعد نزول الآية، في نقصان من المال والجاه حتى هلك ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ أي معانداً للقرآن وجاحداً، وكان كفره كفر عناد، وهو أن يعرفه بقلبه وينكره بلسانه، وهذا أقبح الكفر.

﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ أي سأغشيه عقبة شاقة المصعد، بدل ما يطمع فيه من الزيادة في العطاء، وهو مثل لما يلقى من الشدائد.

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ ﴾ أي فكّر ماذا يقول في شأن القرآن ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ في نفسه ما يقول وهيأه.

﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَقُتِلَ ﴾ أي لُعن ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾؟! تعجيب من تقديره، أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمات السفيهة التي ردَّدها في نفسه، والغرض منه الاستهزاء به، على كلامه السخيف. روي أن الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، فقالت قريش والله لقد صبأ الوليد، والله لو صبأ لتصبأنَّ قريش كلُّها فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد عنده حزيناً، وكلمه بما أحماه، فقام فأتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه

شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً؟ وتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك اللهم لا، ثم قالوا فما هو؟ ففكر فقال ما هو إلا ساحر، فارتجّ النادي فرحاً، وتفرقوا معجبين بقوله، فنزلت فيه الآيات.

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ كرره للتأكيد، و «ثُمَّ» يشعر بأن الدعاء الثاني أبلغ من الأول أي قاتله الله ما أروع تفكيره؟.

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أي أجال النظر في القرآن مرة بعد مرة.

﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ قطّب وجهه، لمّا لم يجد فيه مطعناً، ولم يدر ماذا يقول؟ ﴿ وَبَسَرَ ﴾ زاد في التقبض والكلوح، قال الليث: عبس إذا قطّب ما بين عينيه، فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل: كلح، فإن اهتم لذلك وفكّر فيه قيل: بسر.

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أي أدبر عن الحق والإيمان ﴿ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أي تكبر عن قبول ما جاء به الرسول ﷺ وعن اتباعه، وإيراد «ثم» في المعطوفات، لبيان أن بين الأفعال المعطوفة تراخياً.

﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا ﴿ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ أي يُروى عن السحرة والفاء للدلالة على أنه خطرت هذه الكلمة بباله، فتفوَّه بها، من غير تلبث وتفكر.

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ أي ما هذا القرآن إلا كلام البشر، تأكيد لما قبله، ولذلك لم يعطف عليها.

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ سَأُصْلِيهِ ﴾ أي سأدخله ﴿ سَقَرَ ﴾ علم لجهنم وقيل آخر دركاتها.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ ؟ أي وما أعلمك أي شيء هي؟.

﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ لَا تُبْقِي ﴾ أي هي لا تبقي لحماً ﴿ وَلَا تَذَرُ ﴾ عظماً إلا أهلكته.

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي هي لواحة للبشر جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد، أي مسودة للجلود ومحرقة لها، وقيل: تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل، وقيل تلوح للناس[1]، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقِينِ﴾.

---

(١) هذا القول هو الأظهر والأرجح أي أن نار جهنم تلوح وتظهر لأنظار الكفار والفجار، من مسافات بعيدة كما قال سبحانه: ﴿وبُرِّزت الجحيم للغاوين﴾ وأما القول الأول =

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي ملكاً يلي أمرها، وهذا العدد إنما صار سبباً لفتنة الكفار من وجهين: ١ - يستهزئون ويقولون: لمَ لم يكونوا عشرين ٢ - ويقولون كيف يكونوا وافين بتعذيب أكثر خلق العالم من أول الخلق إلى يوم القيامة، فمدار هذين السؤالين عدم الاعتراف بكمال قدرة الله تعالى ومن آمن واعترف بكونه قادراً على جميع المقدورات، وعلم أن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا، زال عن قلبه هذه الاستبعادات!! وقد كان ﷺ يعلم من حال كفار قريش، أنه متى أخبرهم بهذا العدد يستهزئون به، فلما ذكره علم كل عاقل أن مقصوده منه إنما هو التبليغ، وأنه لا يبالي في ذلك بتكذيب المكذبين.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أي المدبِّرين لأمرها، القائمين بتعذيب أهلها ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ليخالفوا جنس المعذبين، لأن الجنسية مظنة الرأفة والرحمة، ولأنهم أقوى الخلق، وأشدُّهم بأساً، روي أنه لما نزل قال أبو جهل لقريش: أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشدّ:

= أنها محرقة للجلود، مسوّدة لها، وأن البشر جمع بشرة وهي ظاهر جلد الإنسان، فأيُّ فائدة في هذا بعد قوله تعالى: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ إذا كانت تأكل اللحوم والعروق والعظام والجلود؟.

أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين؟ فنزلت الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ما جعلنا عددهم، وهو تسعة عشر، وليس المراد مجرد جعل عددهم، ذلك العدد المعين، بل ذكره في القرآن، إذ بذلك يتحقق افتنانهم، باستبعادهم واستهزائهم به، وعليه يدور ما سيأتي من استيقان أهل الكتاب، وازدياد المؤمنين إيماناً ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوته ﷺ، وصدق القرآن، لموافقته لما في كتابهم، فأهل الكتاب يقرؤون في كتابهم أن عدد الزبانية تسعة عشر، لكنهم ما كانوا يعوّلون على ذلك، لعلمهم تطرق التحريف إلى هذين الكتابين، فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ، قوي إيمانهم بذلك ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي يزداد إيمانهم بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ أي ولا يشك ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ في عددهم، وهو تأكيد لما قبله من الاستيقان، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شبهة ما ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك أو نفاق فيكون إخباراً بما سيكون بعد الهجرة، وعلى هذا تصير الآية معجزة ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ المصرُّون على التكذيب ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أيْ أيَّ شيء أراد الله بهذا العدد، المستغرب استغراب المثل، والذي يشبه المثل في الغرابة ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما أضل الله من أنكر عدد الخزنة، وهدى من صدَّق به كذلك ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، لصرف اختياره، إلى جانب الضلال ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته، لصرف اختياره عند مشاهدة تلك الآيات، إلى جانب الهدى، وفيه دليل خلق الأفعال، ووصف الله تعالى بالهداية والإضلال ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ جموع خلقه على ما هم عليه، وكأنَّ القوم استقلوا ذلك العَدد، فقال تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك﴾ فهب أن هؤلاء تسعة عشر، ولكل واحد منهم من الأعوان والجنود، ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وفي هذا العدد حكمة لا يعلمها إلا هو ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيل لأحد حصر الممكنات والاطلاع على حقائقها ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي وما سقر وصفتها وعدة الخزنة ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ أي تذكرة وموعظة للناس.

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لمن أنكرها، أي ليرتدع هؤلاء السفهاء عن السخرية والاستهزاء، فليس كما زعموا أنهم يصارعون الملائكة، ثم أقسم لهم ببعض الآيات الكونية فقال ﴿ وَٱلْقَمَرِ ﴾ أي أقسم به لعظم منافعه.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ ولى وذهب.

﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ أضاء وكشف.

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهَا ﴾ أي جهنم ﴿ لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾ أي لإحدى البلايا، أو الدواهي الكبرى، ومعنى كونها إحداهن، أنها من بينهن واحدة في العظم، كما تقول: هو أحد الرجال.

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴾ تمييز، أي لإحدى الكبر إنذاراً، تنذرهم بما وراءهم من خطر.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أي نذيراً لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى، أو لم يشأ ذلك فيضله، وقد تمسك بهذه الآية،

من يرى أن العبد غير مجبور على الفعل، وأنه متمكنٌ من فعل نفسه، وهم المنكرون للقَدَر، وجوابه أن فعل العبد، معلَّق على مشيئته تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ التاء ليست بتأنيث رهن، لأن فعيلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث، لا تدخله التاء، وإنما هي اسم بمعنى الرهن، والمعنى: كل نفس مرهونة عند الله تعالى.

﴿إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾.

﴿إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنهم فاكون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم، كما يفك الراهن رهنه بأداء الدين.

﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠﴾.

﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي هم في جنات النعيم، في حدائق وبساتين، يتساءلون عن الكفار والفُجّار.

﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١﴾.

﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي يسألونهم عن أحوالهم، وعن سبب دخولهم النار، وسؤالهم لهم إنما هو سؤال تعنيفٍ وتوبيخ، لإدخال الحسرة على قلوبهم، لا سؤال استفسار، فهم عارفون بالسبب الذي أدخلهم نار جهنم، وهذا كما يقال لإنسان قاتل أو سارق: ما الذي أدخلك في السجن؟.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾.

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾؟ أي يسألونهم قائلين: أيَّ شيء أدخلكم في نار جهنم؟ ولماذا صرتم من أهل الجحيم؟.

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) ﴾.

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ لله تعالى في الدنيا.

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) ﴾.

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ كما يطعم المسلمون، وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة.

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) ﴾.

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أي نشرع بالباطل مع الشارعين فيه.

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) ﴾.

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي نكذِّب بيوم الجزاء والحساب.

﴿ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) ﴾.

﴿ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ أي حتى جاءنا الموت، أي وكنا مع ذلك كله مكذبين بالقيامة إلى آخر العمر.

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) ﴾.

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ لو شفعوا لهم جميعاً من الملائكة، والنبيين، والصالحين، لأنها للمؤمنين دون الكافرين، وقال ابن مسعود

رضي الله عنه: تشفع الملائكة، والنبيون والشهداء والصالحون فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا: ﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ الآيات.

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾؟ وهي القرآن، أي فإذا كان الأمر على ما ذُكر، فأيُّ شيء حصل لهم، معرضين عن القرآن، مع تعاضد موجبات الإقبال عليه.

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ ﴾ أي حمر الوحش ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ أي شديدة النفار.

﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴾ القسورةُ: الأسد، وفيه من ذمهم وتهجين حالهم ما لا يخفى، فقد شبَّههم بالحمر الوحشية النافرة، التي هربت من الأسد، من شدة الخوف والفزع، فكذلك ينفرون من الداعي محمد ﷺ الذي يدعوهم إلى الخير والفلاح.

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ عطف على مقدَّر، كأنه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة، بل يريد كل واحد منهم، أن يُؤتى قراطيس تنشر وتقرأ، كما قالوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابَاً نَقْرَؤُه﴾ نُؤمر فيه باتباعك.

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة، وزجر عن اقتراح الآيات ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾.

﴿كَلَّآ﴾ حقاً ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ بليغة كافية.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ انتفع به، وحاز بسببه سعادة الدارين.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهو تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله تعالى ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ حقيق بأن يُتقى عقابُه، ويؤمن به ويُطاع ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وحقيق بأن يغفر ذنوب عباده، سيما المتقين منهم.

والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المدثر»

* * *

سُورَةُ القِيَمَة

مكية وهي أربعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾.

﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ إدخال «لا» النافية، على فعل القسم للتأكيد، شائع في كلامهم، كقولك: لا والله ما ذاك، كما تقول: والله ما ذلك، لكنه أبلغ في الرد مع إثباتها، وقيل: هي للنفي لكن لا لنفي الإقسام بل لنفي ما ينبىء هو عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه فإنه حقيق بأكثر من ذلك ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي بيوم الحساب والجزاء، وهو يوم الحشر الأكبر، كما قال سبحانه: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ الجمهور على أنه قسم آخر، وعن الحسن أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة، أي النفس المتقية التي تلوم على التقصير في التقوى، قال ابن عباس رضي الله عنه: إن كل نفس تلوم صاحبها يوم القيامة، سواء كانت برة، أو فاجرة، أما البرَّةُ فتلوم صاحبها

لِمَ لمْ يزد من فعل الخير، وأما الفاجرة لِمَ لمْ تشتغل بطاعة الله، والمناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة، لأن المقصود من القيامة، إظهار أحوال النفوس، أعني سعادتها أو شقاوتها، وجواب القسم «لتبعثُنَّ» يدل عليه قوله تعالى.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر المنكر للبعث والنشور ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟ بعد تفرقها، ورجوعها رفاتاً، مختلطاً بالتراب وبعدما نسفتها الريح، أو ألقتها في البحار.

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال أي نجمعها قادرين على جمعها، وإعادتها كما كانت ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ كما كانت في الدنيا، بلا نقصان وتفاوت مع صغرها، فكيف بكبار العظام؟.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطف على أيحسب ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي ليدوم على فجوره فيما يستقبل من الزمان، ولا يرعوي عنه.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ أي متى يكون يوم القيامة؟ استبعاداً أو استهزاء.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي تحيَّر فزعاً، مأخوذ من بَرِق الرجلُ، إذا نظر إلى

البرق فدُهش بصرُه، ثم يستعمل في كل حيرة، ومتى تحصل هذه الحالة؟ قيل: عند البعث، وقيل: عند رؤية جهنم، قال تعالى: ﴿ليومٍ تشخص فيه الأبصار﴾.

﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ أي ذهب ضوؤه وأظلم.

﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ أي التقيا في الطلوع من المغرب.

﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ الكافر المكذب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ تقع هذه الأمور ﴿ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾؟ أي أين المهرب؟.

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردٌّ لكلامه السابق وهو طلب المفر، أي لا ملجأ لهم يهربون إليه ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ هو اسم للملجأ، ومعنى الآية: أنه لا شيء يعصمهم من أمر الله تعالى.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ خاصة ﴿ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ مستقر العباد من الجنة أو النار.

﴿ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أي يخبر كل امرىء براً كان أو فاجراً، بما قدَّم قبل موته، وما أخّر بعد موته، من سنة حسنة، أو سيئة يُعمل بها.

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ شاهد والهاء للمبالغة.

﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ أي ولو أتى بكل معذرة، وجادل عن نفسه، لأنه لا ينفعه ذلك، أي ينبأ الإنسان بأعماله، وهو شاهد على نفسه، لأن جوارحه تنطق بذلك.

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ ﴾ أيها الرسول ﴿ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ بالقرآن قبل أن يتم وحيه، مخافة أن ينفلت منك.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ في صدرك ﴿ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ وإثبات قراءته في لسانك وهو تعليل للنهي.

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ بلسان جبريل عليه السلام، وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة في ايجاب التأني ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ أي فأنصتْ إلى قراءته، واستمع إليه، حتى يفرغ جبريل من التلاوة.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أي فاتبع قراءته، وتفكَّرْ فيه، حتى يرسخ في ذهنك، ثم نبين ما أشكل عليك من معانيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[1] عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان ممَّا يحرك به شفتيه[2]، قال ابن عباس: أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحرِّكُهما، فحرَّك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لا تحرك به لسانك﴾ الآية قال: فاستمعْ وأنصتْ، ثم علينا أن تقرأه، قال: فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام بعد ذلك استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه»[3].

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن إنكار البعث ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ أي بل أنتم يا بني آدم لما خُلقتم من عجل، وجُبلتم عليه، تعجلون في كل شيء، ولذلك تحبون عاجلة الدنيا وشهواتها.

﴿ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ فلا تعملون لها.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ١١٤.
(٢) أي كان كثيراً ما يفعل ذلك، ويلقى من ذلك صعوبة وشدة.
(٣) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة القيامة ٨/٥٢٣ وفي بدء الوحي ١/٢٨ ومسلم في كتاب الصلاة رقم ٤٤٨.

﴿ وُجُوهٌ ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ أي حسنة ناعمة، بهيّة مضيئة، يشاهد عليها نضرة النعيم، يقال: نضرُ الوجه بالضم نضارة وهي الحسنُ.

﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أي تنظر إلى ربها عياناً، بلا كيفية، ولا جهة ولا ثبوت مسافة، تراه مستغرقة في مطالعة جماله، وجمهور أهل السنة، يتمسكون بهذه الآية، في إثبات أن المؤمنين، يرون الله تعالى يوم القيامة، والمعتزلة قالوا: معناه منتظرة إلى إنعامه، ورُدَّ بأن الانتظار لا يسند إلى الوجه، مع أن الانتظار لا يليق في دار القرار، وقال الأزهري: العرب لا تقول: نظرتُ إلى الشيء بمعنى انتظرته، وإنما تقول نظرتُ فلاناً، أي انتظرته، ومما يشهد لقول أهل السنَّة ما رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: «إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته..»[1] الحديث.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أي كالحة شديدة العبوسة، وهي وجوه الكفرة، أظلمت ألوانها، وعدمت آثار السرور، لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل بها.

﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٥٤ ومسلم رقم ٢٨٢٩ وهو حديث طويل في رؤية المؤمنين لربهم في جنة النعيم.

﴿تَظُنُّ﴾ أي تتوقع وتستيقن، والمراد بالوجوه أربابها ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ أمر عظيم من العذاب ﴿فَاقِرَةٌ﴾ تقصم فَقَار الظهر.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من المخاطر والأهوال ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروح ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أي العظام المكتنفة لثغرة النحر.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي قال من حضر: من يرقيه؟ أيْ أيّ طبيبٍ يداويه وينجيه مما نزل به؟.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَظَنَّ﴾ أي أيقن المحتضر أنه سيفارق الأهل والمال والولد، وعبَّر بالظن لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقاً ببدنه، فإنه يطمع في الحياة ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا، والآية دالة على أن الروح باقية بعد موت البدن، لأنه تعالى سمى الموتَ فراقاً، والفراقُ صفةٌ تستدعي الموصوف.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي التوت ساقه بساقه عند حلول الموت فلا يقدر على تحريكهما، لأن الموت قد دبَّ فيهما، قال الحسن البصري: «ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جوالاً».

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ أي إلى ربك المرجع والمآب، لا إلى غيره.

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ فَلَا صَدَّقَ ﴾ أي فلم يصدّق بالقرآن ولم يؤمن بالرسول ﴿ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ ولم يصلِّ للرحمن ما فرض عليه، والضمير للإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان﴾ وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذة.

﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ ﴾ ما ذكر من الرسول والقرآن ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن الطاعة.

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ يتبختر افتخاراً بذلك.

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ أي ويل لك أيها الشقيُّ الفاجر على هذا الطغيان، وهو دعاء عليه بالهلاك.

﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ أي ثم ويل لك على طغيانك وفجورك، وفيه تكرار الدعاء عليه.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي أيظن الإنسان أن يترك مهملاً، فلا يكلَّف، ولا يجازى، ولا يعاقب؟.

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾ أي أما كان هذا الإنسان نطفة حقيرة، يُراق ويُصبُّ في الرحم؟.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي قطعة دم جامد ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي فخلقه الله بقدرته ﴿ فَسَوَّىٰ ﴾ أي فعدَّله وكمَّل نشأته، وجعله إنساناً سويًّا؟.

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ أي فجعل هذا المخلوق صنفين اثنين: ذكراً وأنثى.

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ ﴾ العظيم الشأن، الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾؟ أي بقادر على إعادة الإنسان بعد فنائه، وهو أهون من البدأ، في قياس العقل؟ بلى إنه على كل شيء قدير. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿والتين والزيتون..﴾ فانتهى إلى آخرها، فليقل: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» ومن قرأ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ

القِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى آخرها فليقل بلى، وعزة ربنا، ومن قرأ والمرسلات فبلغ ﴿فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون﴾ فليقل آمنا بالله»[1]

والله اعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة»

* * *

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٨٨٧ في الصلاة، والترمذي في التفسير رقم ٣٣٤٤.

سُورَةُ الإنسَانِ

مكية وهي إحدى وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ أي قد مضى ومرَّ، وهو استفهام للتقرير والتقريب، فإن «هل» بمعنى «قد» والأصل أهل أتى؟ كما تقول: هل رأيت صنيع فلان؟ وقد علمتَ أنه قد رآه ﴿عَلَى الْإِنسَانِ﴾ قبل زمان قريب ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي طائفة محدودة من الزمن، بعيدة الأجل ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ بل كان شيئاً منسياً لا يفطن له، والمراد بالإنسان الجنس، والغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدثٌ، فلا بد له من محدثٍ قادر، وهو الخالق، المبدع، الحكيم!.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)﴾.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ فالإظهار لزيادة التبيين والتقرير ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي أخلاط، من ماء الرجل وماء المرأة، مأخوذ من مشجتُ الشيء إذا خلطته، وصف تعالى النطفة به، لما أن المراد بها مجموع المائين، ولكل منهما أوصاف مختلفة، من الرقة، والغلظ، واللون ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي مريدين

ابتلاءه بالتكاليف الشرعية، والأوامر والنواهي الإلهية ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ ليتمكن من استماع الآيات التنزيليه، ومشاهدة الآيات التكوينية، وإنما خصهما بالذكر، لأنهما أعظم الحواس وأشرفها.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ بإنزال الآيات، ونصب الدلائل، والآية دالة على أن إعطاء الحواس، كالمقدَّم على إعطاء العقل، والأمر كذلك، والمراد بالسبيل ههنا: سبيلُ الخير، والشر، ومعنى هديناه أي عرَّفناه ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ أي إمّا مؤمناً أو كافراً، أي مكناه وأقدرناه على سلوك الطريق، الموصل إلى البغية في حالتيه، وإيراد الكفور لمراعاة الفواصل، والإشعار بأن الإنسان قلَّما يخلو من كفران، وإنما المؤاخذة عليه الكفر المفرط.

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا ﴾ أي هيأنا في جهنم ﴿ لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا ﴾ أي يقادون بالسلاسل، فتشد بها أرجلهم، وبالأغلال تشد أيديهم إلى رقابهم ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ أي ناراً موقدة يحرقون بها، وهذا من أعظم أنواع الترهيب، وتقديم وعيدهم لأن تصدير الإنذار أهم وأنفع، وختمه بذكر المؤمنين أحسنُ وأوقع.

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ شروع في بيان حسن حال الشاكرين، وإيرادهم بعنوان البِرّ، للإشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ أي كأس من الخمر ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ ما يُمزج بها ويخلط ﴿ كَافُورًا ﴾ هو

اسم عين في الجنة، ماؤها في بياض الكافور، هي كافور لذيذ ليس فيه مضرة، وليس ككافور الدنيا.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿عَيْنًا﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عين جارية في الجنة ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها أو هو محمول على المعنى، أي يتلذذ بها، وقيل: الضمير للكأس والمعنى: يشربون من العين بتلك الكأس ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ أهل الإيمان ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿يُوفُونَ﴾ تفصيل لما ينبىء عنه اسم الأبرار، كأنه قيل ماذا يفعلون حتى نالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجب الله تعالى عليهم؟ ﴿بِالنَّذْرِ﴾ ما نذروه في طاعة الله ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ أي شدائده وأهواله ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي فاشياً منتشراً، ممتد البلاء، من استطار الحريق والفجر، وهو أبلغ من طار، وفيه إشعار بحسن عقيدتهم، واجتنابهم عن المعاصي.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي على حب الطعام والحاجة إليه، كما في قوله تعالى: ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ أو على حب الله وهو الأنسب لما سيأتي لوجه الله ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أيَّ أسيرٍ كان فيدخل فيه المملوك، والمسجون، وإطعام الطعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين، بأيّ وجه كان، وتخصيص الطعام لأنه أشرف أنواع الإحسان، لأن قوام الأبدان بالطعام، ولا حياة إلا به.

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ ﴾ على إرادة القول أي قائلين ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال، وهو بيان من الله تعالى عما في ضمائرهم، لأن الله علمه منهم فأثنى عليهم[1] ﴿ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ أي لطلب ثوابه ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً ﴾ أي مكافأةً تجازوننا به ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ محمدة تحمدوننا به، وهو تقرير وتأكيد لما قبله.

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا ﴾ أي عذاب يوم ﴿ عَبُوسًا ﴾ تعبس فيه الوجوه وتكلح، من فظاعة أمره، وشدة هوله، أو يشبه الأسد العبوس في الشدة ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ أي شديداً، فلذلك نفعل بكم ما نفعل، رجاء أن يقينا ربنا بذلك الإحسان شرَّه.

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ أي صانهم من شدائده، وحماهم من عذابه، بسبب خوفهم وتحفظهم عنه ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ ﴾ أي أعطاهم بدل عبوس الفجار ﴿ نَضْرَةً ﴾ أي حُسناً في الوجوه ﴿ وَسُرُورًا ﴾ فرحاً في القلوب.

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ على الطاعة واجتناب المعصية، وعلى الفقر والجوع، مع الوفاء بالنذر ﴿ جَنَّةً ﴾ بستاناً فيه مآكل هنيئة، يأكلون منه ما شاؤوا ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ ملبساً بهياً من الحرير، يلبسونه ويتزينون به.

---

(١) قال مجاهد: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكنَّ الله علم بما في قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ أي مضطجعين في الجنة على الأسرة، المزينة بأفخر الزينة والستور، جمع أريكة وهي السرير المزخرف ﴿ لَا يَرَوْنَ ﴾ أي لا يصيبهم ولا يمسهم ﴿ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ الزمهرير أشد البرد، والمعنى أنه يمر عليهم هواء معتدل، لا حار محمٌّ، ولا بارد مؤذٍ.

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ﴾ أي قريبة منهم ﴿ ظِلَٰلُهَا ﴾ ظلال أشجارها زيادة في نعيمهم، على معنى أنه لو كان هناك شمس مؤذية، لكانت أشجارها مظلة عليهم مع أنه لا شمس ولا قمر، وإنما هي أنوار تتلألأ ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أي سخرت ثمارها للقائم، والقاعد، والمتكىء أي سهل أخذها، ليسهل قطفها دون عناء وتعب، من غير تسلق للأشجار، وتعرض للأخطار.

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم ﴾ أي يدور عليهم خدمهم ﴿ بِـَٔانِيَةٍ ﴾ جمع إناء، وهو وعاء الماء ﴿ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾ وهو جمع كوب، وهو إبريق لا عروة له، ولا أُذن له.

﴿ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة، وشفيفها، وجمال الفضة وبياضها، والغرض من ذكر هذه الآية، التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة، إلى قارورة الدنيا، كنسبة الذهب إلى رمل الدنيا، وأن المراد بالقوارير ليس هو الزجاج، فإن العرب تسمي ما استدار، ورقَّ

وصفا، من الأواني التي تجعل فيها الأشربة قارورة. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي إنهم قدّروها في أنفسهم، وأرادوها على مقادير وأشكال معينة، موافقة لشهواتهم، فجاءت حسبما قدّروها.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أي الأبرار ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ خمراً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ أي ما يشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيب ما تستطيبه العرب وألذ.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى﴾ أي يشربون في الجنة من عين تسمى ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ سميت بالسلسبيل، لسلاسة انحدارها في الحلق، وسهولة مساغها، ليس فيها لذعة الزنجبيل، فيشعر الشاربون بطعمه، ولكنهم لا يشعرون بحرقته ولذعته.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ شبهوا لحسنهم، وصفاء ألوانهم، وانبثاثهم في مجالسهم، وانعكاس أشعة بعضهم إلى بعض، باللؤلؤ المنثور أي المتفرق[1]، فإن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً كان أجمل وأحسن.

---

(١) الحكمة في تشبيههم باللؤلؤ المنثور أن اللؤلؤ إذا لم يُثقب، يكون أشد صفاءً وأحسن منظراً، وأجمل ما يكون إذا كان منثوراً أي متفرقاً هنا وهناك، لوقوع شعاع بعضه على بعض، فإذا كان الخادم كاللؤلؤ، يشع بالجمال والبهاء، فكيف يكون المخدوم من أهل الجنة؟! اللهمّ لا تحرمنا الجنة ونعيمها.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي إن بصرك أينما وقع في الجنة ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴾ أي أبصرت نعيماً لا يكاد يوصف ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ واسعاً لا غاية له ولا نهاية.

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أي تعلوهم ثياب الحرير، الرقيق منه والثخين ﴿ وَحُلُّوا ﴾ أي أُلبسوا للزينة والبهجة ﴿ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي أساور فضية لا تشبه فضة الدنيا، مع أنواع أخرى من الحلي من ذهب ولؤلؤ ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ هو نوع آخر يفوق النوعين السالفين، كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين، ووصفه بالطهورية، فإنه يطهر باطنهم من الأخلاق الذميمة، والعادات القبيحة، كالحسد، والغِلّ، والبغضاء، كما قال سبحانه: ﴿ونزعنا ما في صدروهم من غل﴾ الآية، ولذلك ختم به مقالة ثواب الأبرار ﴿ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ طاهراً من الأقذار والأدران، لم تمسه الأيدي.

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي يقال لهم إن هذا الذي نُعِّمتم به من فنون الكرامات ﴿ كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ لأعمالكم الحسنة ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أي محموداً مرضياً عندنا، جوزيتم عليه أحسن الجزاء، والغرض من ذكر هذا أن يزداد سرورهم بالنعيم الدائم في دار الخلود.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴾ أي مفرقاً ومنجمّاً لِحكَمٍ بالغة تقتضي تفريقه، كما يعرب عنه تكرير الضمير، مع إنَّ المفيدة للتأكيد.

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ باحتمال الأذى منهم، فإن له عاقبة حميدة ﴿ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ﴾ أي من الكفرة ﴿ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ﴾ أي كل واحد من مرتكب الإثم والكفر، «أو» بمعنى «ولا» أي ولا تطع آثماً ولا كفوراً.

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي داوم على ذكر ربك في جميع الأوقات في الصباح والمساء، وصلّ له، وأكثر من عبادته وطاعته في كل وقت وحين.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ ﴾ أي تقرَّب إلى ربك بقيام الليل، مستغرقاً في مناجاته، وأكثر من العبادة في جناح الظلام ﴿ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴾ أي وتهجد له زماناً من الليل طويلاً، فهو الزاد لك لنصرك على الأعداء، فمن كان الله معه فهو الغالب.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي الكفرة ﴿ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾ وينهمكون في لذاتها الفانية ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ ﴾ أي أمامهم لا يستعدون لذلك اليوم العصيب، وينبذون وراء ظهورهم ﴿ يَوۡمًا ثَقِيلًا ﴾ أي شديداً، عسيراً، هو يوم القيامة، فلا يستعدون له ولا يعملون، وهو كالتعليل لما أُمر به ونُهي عنه.

﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ ﴾ لا غيرنا ﴿ وَشَدَدْنَآ ﴾ أي أحكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ أي خلقهم فربطنا مفاصلهم بالأعصاب ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ إهلاكهم أهلكناهم ﴿ بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أمثالهم في الخلقة ممن يطيع الله، كقوله تعالى: ﴿وإن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1].

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي الآيات تذكير وعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي تقرّب إليه بالطاعة، واتباع الرسول.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ اتخاذ السبيل، ولا تقدرون على تحصيله، في وقت من الأوقات ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم، إذ لا دخل في مشيئة العبد إلا في الكسب، وإنما التأثير والخلق بمشيئة الله تعالى، وإنما يشاء الله ذلك ممن علم الله منه اختياره ذلك، وهذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر، والقدر، فالقدري يتمسك بقوله تعالى: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ والجبري يقول: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة، فلا يشاء إلا ما يستدعيه علمه، وتقتضيه حكمته.

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ﴾ أي يدخل في رحمته وجنته من يشاء أن

---

(١) سورة محمد، آية: ٣٨.

يدخله فيها، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى، حيث يوفقه لما يؤدي إلى دخول الجنة، من الإيمان به والطاعة ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ الظالمون هم الفجَّار الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذُكر، أي ويعذّب الظالمين عذاباً شديداً مؤلماً في دركات الجحيم.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإنسان»

* * *

سورة المرسلات

مكية وهي خمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١) فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا (٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا (٣) فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا (٤) فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) ﴾.

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا * فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا * فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * ﴾ ذكر المفسرون في هذه الكلمات الخمس وجوهاً:

الأول: المراد بأسرها الملائكة، الذين أرسلهم الله تعالى بأوامره، فعصفن في مضيِّهن عصف الرياح، في امتثال أمره سبحانه، ونشر الشرائع في الأرض، ففرقن بين الحقِّ والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكراً، إعذاراً وإنذاراً للخلق، تتنزل بالوحي للإعذار للعباد، لئلا يبقى لأحد حجة عند الله.

الثاني: أن المراد بأسرها آيات القرآن، المرسلة بكل عرف وخير إلى الرسول ﷺ، فعصفن سائر الكتب والأديان، بالنسخ ونشرن آثار الهدى في قلوب العالمين، وفرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكر الحق فيما بين العالمين.

الثالث: المراد بأسرها الرياح، أرسلن متتابعة، فعصفن بالمشركين، وهي رياح العذاب، ورياح الرحمة نشرن السحاب في الجو، ففرقن فألقين ذكراً أي تسبَّبن له، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وآثارها، ذكر الله تعالى.

الرابع: أنه ليس المراد من هذه الكلمات شيئاً واحداً بعينه، فعلى هذا ﴿والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفاً. والناشرات نشراً﴾ الرياح ﴿فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكراً﴾ الملائكة، ويمكن أن يقال: والمرسلات ملائكة الرحمة، والعاصفات ملائكة العذاب، والثلاثة الباقية الآيات القرآنية، والله أعلم[1]، ومعنى ﴿عُرْفاً﴾ أي متتابعة، ﴿وعُذْراً﴾ من عذر إذا محى الإساءة، و ﴿نُذْراً﴾ من أنذر إذا خوَّف، وهذه كلها أقسام، وجوابه قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ ﴾.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ أي إن الذين توعدونه من مجيء القيامة، كائنٌ لا محالة ثم ذكر متى يقع فقال تعالى:

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ ﴾.

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أي محيت، ومُحقتْ وذهب بنورها.

---

(١) اختلف علماء السلف اختلافاً كبيراً في تفسير هذه الآيات الخمس، فبعضهم حملها جميعاً على الرياح ـ رياح الرحمة، ورياح العذاب ـ وبعضهم حملها جميعاً على الملائكة، وبعضهم فصَّل فيها، فجعل الآيتين الأوليين في الرياح، لأن وصف الريح بالعصف ـ وهو شدة الهبوب ـ حقيقة لغوية، يقال: عصفت الريح إذا هبَّت مع صوتٍ شديد، ولا يقال في الملائكة عصفت، والآيات الثلاث الباقية ﴿والناشرات نشراً..﴾ الخ فهي في الملائكة التي تنزل بالوحي على رسل الله، فتفرق بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، وهذا ما رجحه الحافظ ابن كثير، وهو الأظهر والأقرب، والله أعلم.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴾ أي صدعت وفتحت فكانت أبواباً.

﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴾ أي جعلت كالحب الذي ينسف بالمنسف، كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴾ أي وُقِّتت ومعنى توقيت الرسل، تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

﴿ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ ﴾.

﴿ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل، أي لأيِّ يوم عظيم أُخِّرت وأُمهلت الرسل؟ ثم بيَّن ذلك فقال:

﴿ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ ﴾.

﴿ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴾ أي اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴾ ؟ أيْ أيَّ شيءٍ جعلك دارياً ما هو؟ فوضع الظاهرَ موضع الضمير لزيادة التهويل.

﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥ ﴾.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي في ذلك اليوم الهائل.

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦﴾.

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كقوم نوح، وعاد، وثمود، لتكذيبهم للرسل؟.

﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧﴾.

﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ من نظرائهم السالكين لمسلكهم، في الكفر والتكذيب، كقوم شعيب، ولوط، وهو وعيدٌ لكفار مكة.

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الفعل الفظيع ﴿نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي نفعل بكل من أجرم، لأن عموم العلة يقتضي عموم الحكم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩﴾.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله، وأنبيائه، والمعاد، وليس فيه تكرار، لما أن الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا لعذاب الدنيا، مع أن التكرار للتوكيد حسن شائع في كلام العرب(١).

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾.

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ أي من نطفة قذرة، مهينة حقيرة؟.

---

(١) كررت هذه الآية: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ في هذه السورة عشر مرات، لمزيد التخويف والترهيب، والتكرار في مقام الترغيب أو الترهيب مستحسن، لا سيما إذا تغايرت الآيات السابقة على المرات المكرَّرة كما هنا.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ هو الرحم.

﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) ﴾.

﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي إلى مقدار معلوم من الوقت، قدَّره الله تعالى وهو تسعة أشهر أو أقلَّ منها، أو أكثر بقليل.

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَٰدِرُونَ (٢٣) ﴾.

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي قدرنا على خلقه وتصويره، والمراد بالقدرة إيجاد المقدور بالفعل ﴿ فَنِعْمَ الْقَٰدِرُونَ ﴾ أي فنعم القادرون نحن على الخلق والإعادة، حيث خلقناهم في أحسن صورة وهيئة.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بنعمة التوحيد، وقدرة الجبار.

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) ﴾.

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ وعاء، والكَفْتُ الجمعُ والضم، أي ألم نجعلها تجمعكم وتحتضنكم.

﴿ أَحْيَاءً وَأَمْوَٰتًا (٢٦) ﴾.

﴿ أَحْيَاءً ﴾ أي تجمعكم أحياء على ظهرها ﴿ وَأَمْوَٰتًا ﴾ وتحتضنكم في بطنها أمواتاً، والتنكير فيهما للتفخيم، بمعنى أنها جامعة لما يحتاج الإنسان إليه في حياته، من المآكل والمشارب، والأبنية، لأن كل ذلك من

الأرض، وفي مماته حيث تضمه في بطنها بعد الموت، فهي كالأم تحتضن أولادها.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ شَامِخَاتٍ ﴾ أي عاليات ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾ أي عذباً بأن خلقنا فيها أنهاراً، ومنابع عذباً.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأمثال هذه النعم العظيمة.

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي يقال لهم يومئذ للتوبيخ والتقريع: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون في الدنيا من العذاب، ثم فسره بقوله:

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ﴾ أي ظل دخان جهنم، كقوله تعالى: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ ﴿ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ أي يتشعب لعظمه ثلاث شعب، كما هو شأن الدخان العظيم.

﴿ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾ أي لا مظل من حر ذلك اليوم، وحرِّ النار، وتسميتُه ظلاً من باب السخرية والتهكم ﴿ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ أي غير مغنٍ لهم من حر اللهب شيئاً.

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهَا ﴾ أي النار ﴿ تَرْمِي بِشَرَرٍ ﴾ هو ما تطاير من النار ﴿ كَالْقَصْرِ ﴾ كالبناء العظيم، والقصر الشامخ.

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ ﴾ أي كأن شرر جهنم الإبل الصفر، ﴿ صُفْرٌ ﴾ جمع أصفر، أي كأن الشرر يشبه الجمل الأصفر في اللون وسرعة الحركة، فإذا كان هذا حال الشرر، فكيف يكون حال النار، الملتهبة في فظاعتها وشدتها؟.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي هلاك ودمار للكفرة الفجار، المكذبين بيوم القيامة، ذلك اليوم العصيب الرهيب.

﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار ﴿ يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ فيه بشيء، لما أن السؤال والجواب قد انقضى قبل ذلك، ويوم القيامة طويل له مواطن ومواقيت، ينطقون في وقت دون وقت، أو لا ينطقون بحجة تنفعهم.

﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي لا يكون لهم إذن واعتذار، ليعتذروا، فقد مضى وقت الاعتذار، ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بآيات الجبار.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ بين الحق والباطل، وبين أهل الجنة وأهل النار ﴿ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ أي جمعناكم فيه يا معشر المكذبين، مع من تقدمكم من الأمم السالفة، ممن كذبوا رسلهم، لنحكم بينكم جميعاً.

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ أي إن كان لكم حيلة في دفع العذاب، فاحتالوا على تخليص أنفسكم من العذاب، وهذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وإظهار لعجزهم.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيث ظهر أن لا حيلة لهم في الخلاص.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي الذين خافوا ربهم، واتقوا عذابه، بطاعته وامتثال أوامره، وهم في مقابلة المكذبين ﴿ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ في ظلال الأشجار الوارفة، والعيون الجارية، في جنات النعيم.

﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي لذيذة ومشتهاة، مستقرون في أنواع الترف، وفنون التنعم، يتنعَّمون بأنواع الفواكه والثمار.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي مقولاً لهم ذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نجازي من أحسن عمله، وأخلص نيَّته، والغرض منه تحسير الكفار على ما فاتهم من النعم العظيمة، بأنهم لو كانوا من المتقين، لفازوا بمثل ذلك الجزاء الكريم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالجنة ونعيمها.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ خطاب للمكذبين على وجه التهديد، أي كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي كافرون ومكذبون، تستحقون العذاب والإهانة، شأنكم كشأن البهائم، ملء بطونها، ونيل شهواتها.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالنعم حيث عرَّضوا أنفسهم للعذاب الدائم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أي اسجدوا وصلُّوا لله لا يقبلون، يسجدون للأصنام والأوثان، ويأبون السجود للرحمن.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين، وأخبار النشأتين، على نمط بديع، ودلائل لطيفة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي إذا لم يؤمنوا بالقرآن فبأي شيء يؤمنون؟.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على رسولنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات»

* * *

سُورَةُ النَّبَإِ

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ①﴾.

﴿عَمَّ﴾ أصله «عن» ما، حُذفت الألف تخفيفاً وما فيه من الإبهام، لفخامة شأن المسؤول عنه، أيْ عن أيِّ شيءٍ عظيم يتساءلون؟ ومعنى ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، والمراد بهم الكفرة من أهل مكة، بطريق الاستهزاء، كانوا يتساءلون عن البعث، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كلاّ سيعلمون﴾ لأنه تهديد، والتهديد للكفار، أو السائل والمجيب هو الله عز وجل، نظيره: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليومَ لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[1] وإيراد الكلام في معرض السؤال والجواب، أقرب إلى التفهيم والإيضاح ثم قال تعالى:

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ②﴾.

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم، قال الأكثرون: هو

(١) سورة غافر، آية: ١٦.

البعث، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١)؟. وقيل: عن محمد ﷺ.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمن جازم باستحالته، يقول: ﴿إِنْ هي إلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا﴾ ومن شاك يقول: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ ومنهم من ينكر المعاد الجسماني، كجمهور النصارى الذين يقولون: إن النعيم والعقاب روحاني، ولا بعث للأجساد.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا صريح في أن المراد اختلاف الجاهلين به والمنكرين له، وهو أمر البعث بعد الموت ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجر عن التساؤل والسخرية ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عياناً، أن ما يتساءلون عنه حق، وهذا تعليل للردع، والسين للتقريب والتأكيد، والمعنى: ليرتدعوا عما هم عليه، فإنهم سيعلمون عمّا قليل حقيقة الحال، إذا حلَّ بهم العذاب.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كرره للتشديد، وثم يشعر أن الثاني أبلغ من الأول وأشد، وقيل: الأول عند النزع، والثاني عند البعث.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾.

---

(١) سورة المطففين، آية: ٤.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ استئناف مسوقٌ لتحقيق النبأ، ومن هنا اتضح أن المتساءل عنه هو «البعثُ» والمعنى: قل لهم يا محمد: ألم يخلق الله هذه الخلائق العجيبة؟ فلمَ تنكرون قدرته على البعث؟ وما هو إلاَّ اختراع كهذه الاختراعات؟ والهمزة للتقرير ﴿مِهَٰدًا﴾ أي فراشاً، فرشناها لكم حتى سكنتموها.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي غرائز تشبه الأوتاد للأرض، لئلا تميد بكم.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي ذكراً وأنثى، ليسكن كلٌّ من الصنفين إلى الآخر، وينتظم أمر المعاش، ويتسنى التناسل، أو المراد منه «متقابلين» كالحسن والقبيح، والطول والقصر، والأضداد، وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة، والإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب، وقدر الأمن عند الخوف، وذلك أبلغ في تعريف النعم.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم، قاطعاً لأعمالكم، والنوم يشبه الموت لما بينهما من المشاركة التامة، في انقطاع أحكام الحياة[1] كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ قال الزجاج: لا يليق الموت بهذا

(١) جعل الله النوم راحة لأبدان البشر، وغذاءً لأرواحهم، وبدون النوم يهلك الإنسان، وتخور قواه، وفي النوم تذكير للعباد بالموت، كما أن في اليقظة بعد النوم تذكير لهم بالبعث من القبور!.

المكان، لأن الأشياء المذكورة من جلائل النعم، وقال ابن الأعرابي: أي نوماً منقطعاً لا دائماً، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي سبباً لتحصيل الكسب والمعاش، تبعثون فيه من نومكم، كما في قوله تعالى: ﴿وجعل النهار نشورا﴾ ينتشر فيه الناس للعمل.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾ أي وشيّدنا فوقكم سبع سماوات، قوية الخلق، محكمة البناء، والتعبير عن خلقها بالبناء، مبنيٌّ على تنزيلها منزلة القباب المضروبة فوق رؤوسكم ﴿سَبْعًا﴾ أي سبع سماوات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديدة أي محكمة قوية.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ هذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق، خلا أنه مختص بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، والوهَّاجُ: الوقَّاد المتلألىء، الذي يلتهب من شدة وهجه وحرارته، والمراد به الشمس، والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خلق السماوات بالبناء.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ أي السحائب إذا أُعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي ماء دافقاً، منصباً بكثرة، وشدة يقال: ثجَّ الماءُ إذا تدفق بكثرة وغزارة.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا﴾ أي بالماء، لننبت حباً يُقتات به، كالبُرِّ، والشعير، والعدس، والذُّرة ﴿وَنَبَاتًا﴾ وكلأً يُعتلف، وأنواع الزروع، غذاءً للإنسان والحيوان.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي الأشجار المتكاثفة المظللة بالتفاف أغصانها ﴿أَلْفَافًا﴾ وهي جمع لف، أي ملتفاً بعضها على بعض من كثرة أغصانها.

واعلم أن فيما ذكر من أفعاله عزَّ وجل، دلالة على صحة البعث والنشور من وجوه:

الأول: باعتبار قدرته، فإن من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة، كان على الإعادة أقدر.

الثاني: باعتبار علمه وحكمته، فإن من أبدع هذه المصنوعات، على نمط رائع، لغاية جليلة، يستحيل أن يفنيها بالكلية، ولا يجعل لها عاقبة باقية.

الثالث: باعتبار نفس الفعل، فإن اليقظة بعد النوم، أنموذج للبعث بعد الموت، وكذا إخراج النبات من الأرض الميتة، كأنه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال البديعة العجيبة، الدالة على حقيَّة البعث، فما لكم تخوضون فيه إنكاراً وتتساءلون عنه استهزاءً؟.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ أي يوم الحساب والجزاء، الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، وفيه تفصيل لكيفية وقوعه، وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب ﴿ كَانَ ﴾ في علم الله تعالى ﴿ مِيقَـٰتًا ﴾ أي وقتاً محدوداً، ومنتهىً معلوماً، لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ بدل من يوم الفصل، ولا ضير في تأخير الفصل عن النفخ، فإنه زمان ممتد، يقع في مبدئه النفخ، وفي بقيته الفصل ﴿ فَتَأْتُونَ ﴾ الفاء فصيحة أي فتخرجون من قبوركم، فتأتون إلى الموقف، عقيب ذلك، من غير لبث أصلاً ولا إمهال ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ أي أمماً، كل أمة مع إمامها، أو زمراً وجماعات مختلفة، حسب اختلاف أعمالهم.

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ أي تشققت السماء وتصدّعت، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ أي كثرت أبوابها المفتحة، لنزول الملائكة نزولاً غير معتاد، كأن الكل صار أبواباً، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلائكةُ تنزيلاً﴾.

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي نسفت في الجو بعد قلعها من مقارها، فصارت كأنها هباء، وذلك أن الأجسام العظام، إذا تحركت لا تكاد تبين حركاتها، وإن كانت في غاية السرعة، لا سيما من بعيد، فتبدل الأرض، وتُسيَّر الجبال على تلك الهيئة الهائلة، عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية

ليشاهدوها، ثم تُفرَّق في الهواء ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي فصارت بعد تسييرها مثل السراب في عين الناظر، وهي وإن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولى، لكنَّ تسييرها وتسوية الأرض، إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً. فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً. لاَ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً. يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾[1] الآية، والداعي إسرافيل عليه السلام، فإن اتباعه لا يكون إلا بعد النفخة الثانية.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار الكفار، وخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عندها، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾.

﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ أي كائناً للطاغين، والمراد منهم من تكبَّر على ربه وطغى ﴿مَآبًا﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه.

﴿لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَّابِثِينَ فِيهَآ﴾ أي ماكثين مقيمين في جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ أي دهوراً متتابعة، كلما مضتْ حقبة تبعتها حقبةٌ أخرى، إلى غير نهاية، فإن «الحقب» لا يكاد يستعمل إلا حيث يراد به تتابع الأزمنة، فليس فيه ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، ولو أريد بالحقب ثمانون سنة، أو سبعون ألف سنة، فإن هذا إن دلَّ فمن قبيل المفهوم، فلا يعارض المنطوق الدال على

---

(١) سورة طه، آية: ١٠٥ ـ ١٠٨.

أبدية خلود الكفار في النار، والحِقْبُ: الدهر جمعه أحقاب، مثل قفل وأقفال.

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا ﴾ في النار ﴿ بَرْدًا ﴾ أي ماءً بارداً، أو هواءً بارداً، وقال ابن عباس: البردُ: النومُ، وهو قول الأخفش، والكسائي، والفراء، وقطرب، وإنما سُمِّي النومُ برداً، لأنه يبرِّد صاحبه، فإن العطشان ينام فيبرد، ومن أمثال العرب «منع البَرْدُ البردَ» أي أصاب من البرد ما منع النوم، والقول الأول أولى، لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب ﴿ وَلَا شَرَابًا ﴾ بارداً يسكن عطشهم.

﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا حَمِيمًا ﴾ أي لكنْ يذوقون فيها ماءً حاراً، يحرق ما يأتي عليه ﴿ وَغَسَّاقًا ﴾ أي ماء منتناً يسيل من صديد أهل النار.

﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ جَزَآءً ﴾ أي جُوزوا جزاءً ﴿ وِفَاقًا ﴾ أي موافقاً لأعمالهم. فإن قيل: كيف يكون هذا العذاب الأبدي، البالغ في الشدة، وفاقاً للإتيان فترة من الكفر؟ والجواب: لأنهم كانوا مصرين على الباطل، ولو خلّدوا في الدنيا لبقوا على الكفر، فلما كانت أفعالهم وإصرارهم كذلك، كان اللائق بهم العقوبة العظيمة.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لا يخافون محاسبة الله تعالى إياهم، تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ التي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام، وصيغة فِعال» بمعنى تفعيل مطّردٌ في كلام الفصحاء، أي تكذيباً مفرطاً.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها أعمالهم ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ﴾ أي ضبطناه ﴿كِتَـٰبًا﴾ مؤكد لأحصيناه، لما أن الإحصاء والكتابة من باب واحد، بمعنى مكتوباً في اللوح، أو في صحف الحفظة، والمعنى: أنا عالم بجميع ما فعلوه، وأجازيهم جزاءً، وفاقاً.

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا۟﴾ متسبِّبٌ عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات، والالتفاتُ شاهد على شدة الغضب ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ كلمة لن للتأكيد في النفي دالة على المبالغة في التعذيب، قيل هذه الآية أشدُّ ما في القرآن على أهل النار، كلما استغاثوا من نوعٍ من العذاب، أُغيثوا بأشدَّ منه.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان محاسن أحوال المؤمنين، أي الذين يتقون عن الكفر، وسائر أعمال الكفرة ﴿مَفَازًا﴾ أي فوزاً وظفراً، ونجاة من كل مكروه، ويصح أن يراد به هنا الجنة، أي لهم الفوز بجنات النعيم، لأنه تعالى فسّر المفاز بما بعده، وهو قوله تعالى:

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ ﴾ .

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴾ أي لهم بساتين ناضرة، فيها من جميع الأشجار والثمار.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣ ﴾ .

﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ جمع كاعب، وهنَّ النواهد اللَّواتي تكعبت ثُدُيُهنَّ، أي استدارت وبرزت حتى صارت كالكعب ﴿ أَتۡرَابٗا ﴾ أي مستويات في السن، متقاربات في الجمال، على ثلاثة وثلاثين سنة.

﴿ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤ ﴾ .

﴿ وَكَأۡسٗا ﴾ أي كأساً من الخمر ﴿ دِهَاقٗا ﴾ ملآناً، يقال: أدهق الحوضَ: ملأه، وقيل: صافية.

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥ ﴾ .

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة في حالة شربهم ﴿ لَغۡوٗا ﴾ أي باطلاً ﴿ وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ أي لا ينطقون بلغوٍ، ولا يُكذِّب بعضُهم بعضاً.

﴿ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦ ﴾ .

﴿ جَزَآءٗ ﴾ كائناً ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ بمقتضى وعده الكريم، والتعرُّضُ للربوبية مع الإضافة إلى ضميره مزيد تشريف له ﷺ ﴿ عَطَآءً ﴾ تفضلاً منه إذْ لا يجب عليه شيء[1] ﴿ حِسَابٗا ﴾ صفة لعطاء أي كافياً وافياً، يقال: حسبُكَ درهمٌ أي

(١) كونه «جزاءً» يستدعي الاستحقاق، وكونه «عطاء» يستدعي عدم الاستحقاق، فكيف =

كافيك ومنه قوله: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» قال ابن قتيبة: يقال: أعطيتُ فلاناً عطاء حساباً أي أكثرت له، وأصل هذا أن يعطيه حتى يقول: حسبي[1].

﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿رَّبِّ﴾ بالجرِّ بدل من ربك أي خالق ومبدع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق والأشياء ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي الذي عمَّت رحمته كل شيء، وهي صفة الرب وفي ذكر ربوبيته تعالى للكل، ورحمته الواسعة، إشعار بمدار الجزاء المذكور ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الضمير لأهل السماوات والأرض ﴿مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم، لغاية العظمة والكبرياء، من غير إذنه سبحانه، لأن اليوم رهيب وعصيب، وذلك لا ينافي الشفاعة بإذنه تعالى.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام عند الجمهور، وهو المختار لأن القرآن الكريم، دلَّ على أن هذا الاسم اسم جبريل، لقوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ﴾ والذي نزل بالوحي على رسل الله هو جبريل عليه السلام، والكلام صحيح من جبريل، ويصحُّ أن يُؤذن له، لأنه رئيس الملائكة وكبيرهم، ولهذا عطف عليه الملائكة،

= التوفيق بينهما؟ والجواب أن ذلك الاستحقاق صدر بحكم الوعد، لأن الله لا يخلف الميعاد، فصار كأنه واجب عليه، ونظراً لأنه لا يجب على الله شيء أخبر تعالى أنه عطاء محض من خالق الأرض والسماء، فتنبه رعاك الله!!.

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص: ٥١٠.

وهو من باب عطف العام على الخاص، تنبيهاً على جلالة قدر الخاص ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ وظاهر قول المفسرين أنهم يقومون صفين، وقال بعضهم: يقومون صفوفاً، لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ وذكر قيامهم واصطفافهم، لتحقيق عظمة سلطانه وكبريائه، وتهويل يوم البعث الذي عليه مدار الكلام ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي الخلائق في ذلك اليوم، خوفاً وإجلالاً لعظمته تعالى، والمعنى: أن أهل السماوات والأرض، إذا لم يقدروا يومئذ أن يتكلموا بشيء، فكيف يملكون خطاب ربِّ العزة والجلال؟ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إظهاره في موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أنَّ أحداً يستحقه عليه سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي لا يتكلمون إلا عند حصول الشرطين ١ ـ الإذن ٢ ـ بأن يكون المشفوع له ممن يقول صواباً في الدنيا، بأن قال «لا إله إلا الله» فكان مؤمناً موحّداً، ومات على التوحيد.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، أي ذلك ﴿ٱلْيَوْمُ﴾ العظيم، الذي يقوم فيه الروح والملائكة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الثابت وقوعه، المتحقق لا محالة أنه حق، لأنه يحصل فيه أداء جميع الحقوق إلى أصحابها، ويزهق كل باطل، وفيه تبلى السرائر ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف، كأنه قيل: وإذا كان الأمر كذلك فمن أراد ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي ذكر شأنه العظيم ﴿مَـَٔابًا﴾ أي مرجعاً بالعمل الصالح.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ أيها الكفار بما ذُكر في السورة، من الآيات الناطقة بالبعث، وما بعده من الدواهي، وبسائر القوارع في القرآن، وإنما ذكر

الإنذار، لأنه تعالى بهذا الوصف، قد خوف وهو معنى الإنذار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾[1] هو عذاب الآخرة، وقربه لتحقق إتيانه حتماً، لأن كلَّ ما هو آتٍ قريب، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ أي عذاباً كائناً يوم ينظر المرء أي يبصر الكافر والمؤمن، وكلُّ إنسان ما فعل في الدنيا، فاللفظ عام يشمل كل إنسان ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي من خير أو شر، وتخصيصُ الأيدي بالذِّكر، لأن أكثر الأعمال تقع بها ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للذمِّ ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ أي في الدنيا فلم أُخلقْ، ولم أُكلَّفْ، أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم، ونظيره ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ﴾ أي موتته في الدنيا ولم يُبعث، وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ﴾ وقيل: تحشر الحيوانات، يوم القيامة، فيقتص للجمَّاء من القرناء، ثم يردُّها الله تراباً، فيودُّ الكافر حينئذٍ أن يكون كالبهائم تراباً، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على نبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»

* * *

(١) أشار إلى الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم في صحيحه «لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». والجلحاء التي لا قرون لها، والقرناء التي لها قرون.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكية، وآياتها ست وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾.

لا وقف إلى هنا، ولزم هنا، لأنها لو وصلت لصار ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ ظرفٌ للمدبِّرات، وقد انقضى تدبير الملائكة في ذلك اليوم!! واختلفت عبارات المفسرين في هذه الآيات هل هي صفات لشيء واحد، أم لأشياء مختلفة؟ واتفقوا على أنَّ المراد بقوله: ﴿فالمدبرات أمراً﴾ وصفٌ لشيء واحد، وهم الملائكة، وفي الآيات وجوهٌ:

الأول: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار بشدة وعنف، أغرق في الشيء: بالغ فيه.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أي الملائكة تنشط نفس المؤمن بسهولة ولين، نشط في عمله خفَّ وأسرع، وإنما خصَّ النزع بنفس الكافر، والنشط بنفس المؤمن، لأنَّ النزعَ جذبٌ بشدة، والنشط جذبٌ برفق.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه، يقال له: سابح.

﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ هم الملائكة تسبق بالأرواح إلى محلها.

الوجه الثاني: هي الأرواح.

الوجه الثالث: النجوم تنزع من أفق إلى أفق.

الوجه الرابع: خيل الغزاة.

الوجه الخامس: النازعاتُ: ملكُ الموت، الناشطات: الأرواحُ، السابحاتُ: السفنُ، السابقاتُ: نفوس المؤمنين إلى الخيرات.

هذه الوجوه المنقولة عن المفسرين، غير منقولة عن رسول الله ﷺ نصاً، بل ذكروها لكون اللفظ محتملاً لها، والذي يليق بشأن التنزيل هو القول الأول.

﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ الملائكة الموكَّلون بتدبير شؤون الكون والناس.

﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾.

﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾ الرجفُ: شدةُ الحركة، والراجفة التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ والجِبَالُ﴾ وهي النفخة الأولى، التي يموت منها جميع الخلق.

﴿ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾.

﴿ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولىٰ، وهي النفخة الثانية، والأولى تميت الخلق، والثانية تحييهم، وبينهما أربعون سنة، واليوم عبارة عن الزمان الممتد الذي يقع فيه النفختان، واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية، لتهويل اليوم، ببيان كونه موقِعاً لداهيتَيْنِ عظيمتَيْن، لا يبقىٰ عند وقوع الأولىٰ حيٌّ إلاَّ مات، ولا عند وقوع الثانية ميْتٌ إلاَّ بُعث.

﴿ قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ ﴾ أي قلوب منكري البعث في ذلك اليوم، أي يوم البعث ﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ أي مضطربةٌ، خائفة، فزعة.

﴿ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ أَبۡصَٰرُهَا ﴾ أي أبصار أصحابها ﴿ خَٰشِعَةٞ ﴾ أي ذليلة لهول ما ترى.

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴾؟ حكاية لما يقوله المنكرون للبعث، أي يقول هؤلاء الكفرة الآن ـ أي في الدنيا ـ إذا قيل لهم: إنكم تبعثون، منكرين له، متعجبين منه، أنردُّ بعد الموت، فنرجع كما كنا أحياء بعد الفناء؟ والمراد بالحافرة الحالة الأولى، يعنون الحياة، أي أنردُّ إلى الحياة، من قولهم: رَجَع فلانٌ في حافرته، أي في طريقته التي جاء منها فحفرها، أي أثَّر فيها بمشيه، وتسميتها حافرة لأنها تُعيد البشر إلى حياتهم الأولى، ومعنى الآية: أنرد إلى أول حالنا؟ ثم زادوا استبعاداً فقالوا:

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴾ أي بالية، والمعنى: أنرد إلى الحياة بعد إذ صرنا عظاماً بالية؟ نَخِر العظم نخراً إذا بلي وتفتَّت، أي أئذا كنا عظاماً بالية، نردُّ ونُبعث من جديد، مع كونها أبعد شيء من الحياة؟.

﴿ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء، مشيرين إلى ما أنكروه من الرَدة

في الحافرة ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي رجعةٌ ذات خسران، أو خاسرٌ أصحابها، والمعنى: إنها إن صحَّتْ فنحن إذاً خاسرون، لتكذيبنا بها.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله تعالى، فإنها سهلة في قدرته تعالى، فما هي إلا صيحة واحدة، يريد النفخة الثانية، من قولهم: زَجَرَ البعيرَ إذا صاحَ عليه، عبَّر عنها بها، تنبيهاً على كمال اتصالها بها، كأنها عينها.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد أن كانوا أمواتاً في جوفها، قال الراغب: الساهرةُ وجهُ الأرض، وهي أرضٌ بيضاء مستوية، سُمِّيت ساهرة، لأن من شدة الخَوف يطير النوم.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ كلام مستأنف واردٌ لتسليته ﷺ بطريق التشويق والترغيب لسماع القصة، كما يقول الإنسان لآخر: هل تدري ما حدث؟ يريد لفت انتباهه، وترغيبه لسماع القصة والخبر، كأنه قيل: أليس قد أتاك حديثه ؟.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ﴾ أي حين ناداه ﴿رَبُّهُۥ﴾ أي دعاه وكلَّمه ربُّه ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ أي المبارك المطهر ﴿طُوًى﴾ أي المسمى «طوى» في أسفل جبل طور سيناء.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ على إرادة القول، أي قائلاً له: اذهب إلى فرعون ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أي جاوز الحدَّ في الظلم والطغيان.

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ ﴾؟ أي بعدما أتيته هل لك رغبة وتوجه ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان، بالطاعة والإيمان؟ بحذف إحدى التاءين من تتزكى، وهذه الكلمة جامعة لكل ما يدعوه إليه، لأن المراد: هل لك إلى أن تفعل ما تصير به زاكياً عن كل ما لا ينبغي.

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أي أرشدك إلى معرفته عزَّ وجل فتعرفه؟ وهذا هو المقصود الأعظم من البعثة، ودلت الآية على أن معرفة الله مقدمة على طاعته، لأنه ذكر الهداية وجعل الخشية مؤخرة عنها، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي فتتقيه وتخشى عقابه، جعل الخشية غاية للهداية، لأنها ملاكُ الأمر، من خشي الله أتى منه كلُّ خير، ومن لا يخاف اجترأ على كل شر، أُمر عليه السلام بأن يخاطبه بالاستفهام، الذي معناه العرض ليستدعيه بالتلطف بالقول، ويستنزله بالمداراة من عتوه، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(١).

﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ٤٤.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي المعجزة الكبرى، والفاء فصيحةٌ تفصح عن جُمَلٍ قد طُويت، تعويلاً على تفصيلها في السورة الأخرى، فإنه عليه السلام ما أراه إيَّاها عقيب هذا الأمر، بل بعدما جرى من المحاورات، إلى أن قال: ﴿إنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين﴾ والإراءة بمعنى التبصير أو التعريف، فإن اللعين حين أبصرها عرفها، وادعى سحريتها، ونسبتها إلى موسى بالنظر إلى الظاهر، كما أن نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنا﴾ بالنظر إلى الحقيقة، والمراد بالآية الكبرى: قلبُ العصا حية.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى عليه السلام وسمَّاه ساحراً، وسمى ما جاء به سحراً ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله تعالى، وأصرَّ على إنكار وجود رب العالمين، كذَّب باللسان والجَنان، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي ولَّى مدبراً فزعاً مرعوباً من هول ما رأى ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي يجتهد في مكايدته، وكان طياشاً خفيفاً، سقيم الفهم.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَحَشَرَ﴾ أي فجمع السحرة والجنود، والأتباع، وقام فيهم خطيباً ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المجمع بنفسه.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لا رب فوقي، وكانت لهم أصنام

يعبدونها، واللعين كان دهرياً، منكراً للصانع والبعث، وقيل: إنه بعد انقلاب العصا صار كالمعتوه لا يدري ما يقول.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥﴾.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ النَّكالُ بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم، وهو التعذيب، أي فأهلكه الله وقصمه، ونكَّل به تنكيلاً، عقوبة له على مقالته الفاجرة، الأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ والآخرة وهي قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ۝٢٦﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في الذي فَعَل فرعونُ، وما فُعِل به ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لعظةً عظيمة ﴿لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ أي لمن من شأنه أن يخشى، ويخاف عقاب الله!!.

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝٢٧﴾.

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ لما ختم هذه القصة، رجع إلى مخاطبة منكري البعث، والخطاب هنا لأهل مكة، المنكرين للبعث بناءً على صعوبته في زعمهم، بطريق التوبيخ، أي أخلقكُم بعد موتكم أشقُّ وأصعب في تقديركم؟ ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع، التي تحار فيها العقول؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؟ ﴿بَنَاهَا﴾ أي الله عز وجل، وفي عدم ذكر الفاعل، فيه من التنبيه على تعينه وتفخيم شأنه ما لا يخفى.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨﴾.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض، وذهابها إلى العلو، مديداً ورفيعاً، وامتداد الشيء إذا أُخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عُمْقاً، وإذا أُخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سَمْكاً ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي فسوَّاها على أبدع نظام مستوية، وتمَّمها بما يتم به كمالُها، من الكواكب، والنجوم وغيرهما، من قولهم سوَّى فلان أمره إذا أصلحه، قالوا: وهذا يدل على كون السماء كرة حتى تكون التسوية الحقيقية حاصلة، وأيُّ ضررٍ في الدين كونها كرة؟.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعله مظلماً، وإنما أضيف إليها لأن الليل والنهار، إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي أبرز نهارها، عبَّر عنها بالضحى، لأنه أشرفُ أوقاتها وأطيبها، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السرُّ في تأخير ذكره عن ذكر الليل، وفي التعبير عن إحداثه بالإخراج، لأن النهار ينبثق من ظلمة الليل، فكأنه يخرج من وكره.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي بسطها ومهَّدها للسكنى، وأصل الدحو الإزالة للشيء من مكان إلى مكان، ومنه يقال إن الصبي يدحو بالكرة أي يقذفها فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن الأرض خُلقت بعد السماء؟ والجواب: خلق الله الأرض أولاً مجتمعة، ثم رفع السماء ثانياً، ثم دحا الأرض ثالثاً، وذلك لأنها كانت كرة مجتمعة، ثم إنه تعالى بسطها مهيأة لنبات الأقوات وهو الذي بيَّنه بقوله:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ وهذا الاستعداد لا يحصل للأرض، إلاَّ بعد وجود السماء، لأن الأرض كالأمِّ، والسماءَ كالأب، وما لم يحصلا لم تتولد الأولادُ، والحيوانات والنباتاتُ والمعادن، وقيل: معناه: والأرضَ مع ذلك دحاها، كقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بعد ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي مع ذلك فالأقرب أن يحمل بعدية الدحو عنها، على البعدية في الذكر ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون وإجراء الأنهار ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي كلأها ونباتها، طعاماً للإنسان والحيوان، والسكنى لا تتأتى بمجرد البسط، بل لا بدَّ من تسوية أمر المعاش، من المآكل والمشارب.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي أثبتها وأثبت بها الأرض، وفي هذا تحقيق للحق، وتنبيه على أن الرسوَّ، ليس من مقتضيات ذواتها، بل هو بإرسائه عزَّ وجلَّ، ولولاه لما ثبتت في نفسها، فضلاً عن إثباتها للأرض، ثم بيَّن تعالى الصلة والحكمة فقال:

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي تمتيعاً لكم ولأنعامكم، لأن فائدة ما ذُكر، واصلةٌ إليهم وإلى أنعامهم، والمراد بالمرعى ما يعمُّ ما يأكله الإنسان والحيوان.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الطامَّةُ: الداهيةُ التي تطمُّ، أي تعلو على سائر الدواهي، وهي القيامة.

﴿ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ ﴾.

﴿ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ تفسير للطامة، أي يتذكر فيه كل أحد ما عمله، من خيرٍ أو شر، بأن يشاهده مدوَّناً في صحيفة أعماله، وقد كان نسيه من فرط الغفلة، وطول الأمد.

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ ﴾.

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ ﴾ أي أُظهرت إظهاراً بيِّناً لا يخفى على أحد ﴿ لِمَن يَرَىٰ ﴾ لكل راء من المجرمين، فرأوها رأي العين.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ أي فأما من عتا وتمرَّد عن الطاعة، وجاوز الحدَّ في العصيان.

﴿ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ ﴾.

﴿ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي فضَّل الحياة الفانية على الآخرة، باتباع الشهوات المحرَّمة، ولم يستعد للآخرة بالعبادة، وتهذيب الأخلاق.

﴿ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ ﴾.

﴿ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ أي مأواه ومرجعه نار جهنم، لا مسكن ولا مأوى له سواها.

﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ أي مقامه بين يدي ربه، لعلمه بالمعاد ﴿ وَنَهَى

﴿ٱلنَّفْسَ﴾ الأمَّارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ عن الميل إلى المحارم والشهوات، بحكم الجِبلَّة البشرية، ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا، ولم يغترَّ بزخارفها، علماً منه بوخامة عاقبتها.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ ليس له سواها، وانظر إلى المقابلة اللطيفة، فقد ذكر تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ﴾ مقابل قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ مقابل قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فإنها من محاسن علم البديع.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ المشركون كانوا يسمعون القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة، مثل أنها صاخة، طامة، قارعة، فقالوا على طريق الاستهزاء ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي متى إرساؤها؟ أي متى إقامتها؟، يريدون متى يقيمها الله تعالى؟ ومتى تقع وتكون؟.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي في أيّ شيءٍ أنت يا محمد، حتى تذكر لهم وقتها؟ ليس علمها عندك حتى تخبرهم عن وقتها، والآية إنكار وردٌّ لسؤال المشركين عنها، فإنها مما استأثر الله بعلمه؟.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي منتهى علمها، أي العلم بكنهها وتفاصيل أمرها، ووقت وقوعها إلى الله عزَّ وجل، لا يعلم متى تكون إلاَّ هو، وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها وقد حصل لهم بمبعثك.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي لم تبعث لتعليمهم وقت الساعة، وإنما بعثت لتنذر من يخاف شدائدها، والآية تقريرٌ لما قبله، وتحقيق لما هو المراد منه، وبيان لوظيفته ﷺ في ذلك الشأن، لأن إنكار كونه ﷺ في شيء من ذكراها، ممَّا يوهم بظاهره أن ليس له أن يذكرها بوجه من الوجوه، فأزاح ذلك، ببيان أن المنفي عليه ﷺ ذكرها لهم بتعيين وقتها، حسبما كانوا يسألونه، فالمعنى: إنما وظيفتك ما أُمرتَ به، من بيان اقترابها، وما فيها من صنوف الأهوال، كما تحيط به خُبْراً.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ تقرير وتأكيد لما ينبىء عنه الإنذار، من سرعة مجيء المنذر به، أي كأنَّ هؤلاء الكفار حين يشاهدون أهوال القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي لم يمكثوا في الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي إلا عشية يوم، أو ضحاه، فلما تُرك اليومُ أُضيف ضحاه إلى عشية، يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية يوم أو ضحى يوم، من هول ما يرونه، وزمان المحنة يُعبَّر عنه بالعشية، وزمان الراحة يُعبَّر عنه بالضحى، فيقولون: كأن عمرنا في هاتين الساعتين، نظيره قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾(١) !! والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»

* * *

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

سُورَةُ عَبَسَ

مكية وآياتها إحدى وأربعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾.

﴿عَبَسَ﴾ أي كَلَح وقطَّب وجهه ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي أعرض بوجهه.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ أي لأن جاءه الأعمى، أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى هو الرسول ﷺ، والأعمى هو «ابن أم مكتوم» واسمه «عبد الله بن شريح بن مالك» أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش «عتبة، وشيبة، وأبو جهل، وأمية بن خَلَفَ، والوليد بن المغيرة» يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال له: يا رسول الله أقرئني وعلمني ممَّا علَّمك الله تعالى!! وكرَّر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم، فكره الرسول مجيئه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت، فكان ﷺ يكرمه بعد ذلك ويقول له إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» واستخلفه على المدينة مرتين، وكان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين وقيل: قُتِلَ شهيداً بالقادسية، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أُنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أمِّ مكتوم الأعمى، الحديث(١).

---

(١) رواه الترمذي في التفسير رقم ٣٣٢٨ وذكر تمام القصة، وقال: حديث حسن غريب، وصححه ابن حبان رقم ١٧٦٩.

﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ ﴾.

﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ ﴾ أيْ وأيُّ شيءٍ يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى، حتى تعرض عنه؟ ﴿ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ أي لعله يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه منك من العلم والمعرفة، وكلمة «لعلَّ» مع تحقق التزكي، واردة على سَنَن الكبرياء، على أن الإعراض عنه عند كونه مرجوَّ التزكي ممَّا لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعاً به؟.

﴿ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ ﴾.

﴿ أَوۡ يَذَّكَّرُ ﴾ أي يتعظ بالقرآن ﴿ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴾ أي موعظتك، أي إنك لا تدري ما هو مترقب منه تزكٍ أو تذكر، ولو دريتَ الحقيقة ما فرط ذلك منك.

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ ﴾.

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴾ أي أعرض عن الإيمان، وعما عندك من العلوم، التي ينطوي عليها القرآن.

﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ ﴾.

﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ أي تتصدَّى وتتعرض بالإقبال عليه، والاهتمام بإرشاده، وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبِر، ليس من شيم الكرام، وفيه إشارة إلى أن من تصدَّى لتزكيتهم من الكفرة، لا يرجى منهم التزكي.

﴿ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ ﴾.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام، حتى يبعثك الحرص على إسلامهم، إلى الإعراض عن الأعمى ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ فليست مهمتك إلاّ تبليغ دعوة الله، لا تطهيرهم من دنس الشرك.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي حال كونه مسرعاً، طالباً لما عندك من أحكام الرشد.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي يخشى الله تعالى، ويتقي محارمه.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تتشاغل!! يلهيك شأن الصناديد، ومثلك لا ينبغي أن يتصدى للمستغني، ويتلهى عن الفقير، الطالب للخير، روي أنه ﷺ ما عبس بعد ذلك في وجه فقير، ولا تصدى لغني قطُ.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع، أي لا تعد إلى مثله ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي السورة، أو الآيات موعظة، يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.

﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢﴾.

﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي اتعظ بالقرآن، والضميران للقرآن، وتأنيث الأول

لتأنيث خبره، والضمير في «ذَكَره» عائد إلى التذكرة أيضاً، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ، قال صاحب النظم: التذكرةُ: القرآن، كما قال في موضع آخر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾.

ثم وصف جلالة القرآن بقوله:

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فِى صُحُفٍ﴾ أي كائنة في صحف، منتسخة من اللوح المحفوظ والقول الثاني: أنها صحف الأنبياء عليهم السلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ يعني إن هذه التذكرة، مثبتة في صحف الأنبياء ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله تعالى.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ منزهة عن مساس أيدي الشياطين أو عما ليس من كلام الله.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي كتبة من الملائكة الأبرار، جمع سافر من السفر وهو الكتب.

﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿كِرَامٍۭ﴾ أعزاء على الله تعالى ﴿بَرَرَةٍ﴾أتقياء جمع بار، أي مطيعين له تعالى.

﴿قُتِلَ الْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات، قال المفسرون: نزلت الآية في «عتبة بن أبي لهب» والمراد ذمُّ كل غني ترفَّع على فقير بسبب الغنى ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾! تعجب من إفراطه في الكفران، وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه.

﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨﴾.

﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي من شيء حقير مهين، كأنه قيل: أي سببٍ في هذا العجب والترفع، أوله نطفة قذرة، وآخره جيفةٌ مذرة وفيما بين الوقتين حمال للعذرة، وهو استفهام ومعناه التقرير والتحقير ولذلك أجاب عنه.

﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾.

﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء، والأشكال ونظيره قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ثم سهَّل خروجه من بطن أمه، وبيَّن له سبيل الخير والشر.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ أي جعله ذا قبر يُوارى فيه تكرمة له، ولم يتركه مطروحاً على وجه الأرض، ملقى للسباع والطير، كسائر الحيوانات يقال: قَبَر الميِّت إذا دفنه، وأقبره إذا أمر بدفنه أو مكَّن فيه، وعدَّ الإماتة من النعم، لأنها وُصلة ـ في الجملة ـ إلى الحياة الأبدية.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي أحياه بعد موته، وفيه إشعار بأنَّ وقت البعث غير متعين في نفسه، وإنما هو موكولٌ إلى مشيئته تعالى.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن ترفعه وتكبره، وعن كفره ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ بيان لسبب الرّدع، أي لم يقض ما أمره الله به، من الإيمان والطاعة، ولم يفعل ما كلف به من العبادات وعمل الصالحات، ومساق الآيات الكريمة، لبيان غاية جناية الإنسان، وتحقيق كفرانه المفرط، المستوجب للسخط العظيم، ويراد به الإنسان الكافر، لأنه هو الذي جحد فضل الله.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ شروع في تعداد النعم المتعلقة ببقائه، بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه، أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد لفضل ربه وإنعامه، نظر تفكر واعتبار، إلى أمر معاشه وحياته.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ يعني المطر من السحاب صبّاً عَجيباً.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي بالنبات شقاً بديعاً، لائقاً بوضعها بما يشقها من النبات، صغراً وكبراً، وشكلاً وهيئة.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ أي فأخرجنا من الأرض المشقوقة بالنبات، أنواع الحبوب التي يتغذى بها الإنسان، حباً يقتات الناس به ويدّخرونه.

﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿وَعِنَبًا﴾ أي وعنباً شهياً لذيذاً يأكلونه، وهو غذاء من وجه، وفاكهة من وجه، فلهذا أتبعه الحب ﴿وَقَضْبًا﴾ أي رطباً من أنواع الخضار، تقطع مرة بعد أخرى كالسبانخ، والبقدونس، والنعنع، سميت بمصدر، «قضَبَه» أي قطعه مبالغةً، كأنها لتكرر قطعها نفس القطع.

﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ شجرة الزيتون ﴿وَنَخلاً﴾ شجرة النخيل، وخصَّ الزيتون والنخل بالذكر، لكثرة فوائدهما.

﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَحَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة بساتين، وهي كل ما أحيط عليه من الشجر ﴿ غُلْبًا ﴾ عظاماً، وصف به الحدائق، لتكاثفها وكثرة أشجارها، أو لأنها ذات أشجار غلاظ.

﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَفَٰكِهَةً ﴾ أي أنواع الفواكه والثمار، مما تشتهيه النفوس من المأكولات ﴿ وَأَبًّا﴾ أي مرعى لدوابكم، ويراد به العشبُ، رطبُه ويابسه.

﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ ﴾ أي منفعة لكم، والالتفاتُ لتكميل الامتنان ﴿ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ أي لمواشيكم.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ شروع في بيان أحوال معادهم، إثر بيان مَبْدَئِهِم ومعاشهم، والصاخةُ: صيحة القيامة، لأنها تصخ الآذان، أي تصمها، وهي الداهية العظيمة التي تعمُّ الناس ويراد بها النفخة الأخيرة.

قال الزجاج: الصخُّ: الطعنُ، والصكُّ، لأنها تصخُّ الآذان بشدة صوتها.

﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ أي يعرض عنهم ولا يصاحبهم، ولا يسأل عن حالهم لتبعاتٍ بينه وبينهم، أو لاشتغاله بنفسه، وتأخير الأحبِّ فالأحب، كأنه قيل: يفر من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه، والمراد من الفرار التباعد.

﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ ﴾ في نفسه ﴿ يُغۡنِيهِ ﴾ أي يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن غيره، وقد ورد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «تحشرون حفاةً، عراةً، غُرْلاً، فقالت امرأة: يَرَىٰ بعضُنا عورةَ بعضٍ؟ قال: يا فلانة ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه﴾»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٤٢٥ وقال: حديث حسن صحيح، ورواه البخاري في=

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ بيانٌ لانقسامهم إلى السعداء والأشقياء، بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ أي وجوههم مضيئة مشرقة، من أسفر الصبح إذا أضاء، عن ابن عباس أنه من قيام الليل، وعن الضحاك من آثار الوضوء، وقيل: لِمَا اغبرّت في سبيل الله.

﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي أصحاب هذه الوجوه وهم المؤمنون، ضاحكون مستبشرون عند الفراغ من الحساب.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ غبار وكدورة، أي سوادٌ ودخانٌ من لفح جهنم، للهمِّ الذي نزل بهم.

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ تَرْهَقُهَا﴾ أي تعلوها وتغشاها ﴿ قَتَرَةٌ﴾ أي سواد وظلمة، جَمَعَ اللهُ في وجوههم بين السواد والغَبَرة، كما جمعوا بين الكفر والفجور.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

= الرقاق ١١/ ٣٣٤ باب الحشر، ولفظه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة، عراة، غرلاً ـ أي غير مختونين ـ فقلت يا رسول الله: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» وفي رواية للنسائي ﴿لكلِّ امْرِيءٍ منهُمْ يَوْمئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي الجامعون بين الكفر والفجور، الكفر في حقوق الله، والفجور في حقوق العباد، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة عبس»

* * *

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي لفت، من كورت العمامة إذا لففتها. كار الرجل العمامة كوراً أدارها على رأسه، وكورها بالتشديد مبالغة، على أنَّ المراد بذلك، إمَّا رفعها وإزالتها من مقرّها، أو لف ضوئها، كما وصفت النجوم بالانكدار، ونحوُه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن النبي ﷺ أنه قال: «الشمس والقمر يكوَّران يوم القيامة»[(١)].

---

(١) جاء في الحديث الشريف، أن من علامات الساعة الكبرى، طلوع الشمس من مغربها، كما ورد في الصحيحين، وقد يتساءل الإنسان كيف تطلع الشمس من مغربها؟ والجواب أن ذلك غير ممتنع على قدرة الله تعالى، بل هو أمر منطقي معقول عند علماء الفلك، فإن الأرض تدور من الغرب إلى الشرق، فإذا انعكس دورانها، فأصبحت تدور من الشرق إلى الغرب، صار طلوع الشمس من المغرب بدل المشرق، وفي هذا إيذان بانتهاء الحياة، على ظهر هذا الكوكب الأرضي، فسبحان من كوَّرها ودوَّرها، وحديث طلوع الشمس من مغربها لعله من أدل البراهين على حركة الأرض ودورانها، وانظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن».

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ أي انقضَّتْ، وقيل تناثرتْ وتساقطت، كما قال الله تعالى: ﴿وإذا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ وقيل: انكدارها انطماسُ نورها، من كَدِر الماءُ من باب تعب زَالَ صفاؤه.

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ عن وجه الأرض أي عن أماكنها، بالرجفة الحاصلة، لا في الجو، فإن ذلك بعد النفخة الثانية.

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ ﴾ جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة، وهي أنفس ما تكون عند أهلها ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ أي تُركت مهملة، عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم.

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ ﴾ أي الدواب دواب البر ﴿ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت من كل ناحية، قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذئاب للقصاص، فإذا قضي بينها ردت تراباً، والمراد أنها تتجمع من الهول، وقد كانت شاردة في الشعاب والجبال، فأصبحت لا تأوي إلى أوكارها.

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أي أُحميت وأوقدت فأصبحت ناراً تضطرم،

وأصبحت مياهها نيراناً تحيط بالبشر، أو ملئت بتفجير بعضها بعضا، حتى تعود بحراً واحداً[1].

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قرنت الأرواح بأجسادها، أو قرنت كل نفس بشكلها، ونفوسُ المؤمنين بالصالحين، ونفوس الكافرين بالشياطين، وقيل: كل امرىء بشيعته، المسلمون بالمسلمين، والنصارى بالنصارى، واليهود باليهود.

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ ﴾ أي المدفونة حيَّة، وكانت العرب تئد البنات مخافة الفقر، أو لحوق العار بهم من أجلهن، فقد كان الرجل منهم إذا ولدت له بنت، ذهب بها إلى الصحراء، وقد حفر لها حفرة، ويلقيها فيها، ويهيل عليها التراب، وقيل: كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها، وإن ولدت ابناً حبسته ﴿سُئِلَتْ﴾ سؤال تلطف بها وتوبيخ لقاتلها، لتقول: وُئدتُ بلا ذنب.

﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ لتدل على قاتلها، وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها.

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾.

---

(١) القول الأول هو الأظهر لقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾ أي الموقد ناراً.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني صحائف الأعمال، فإنها تُطوى عند الموت، وتُنشر وقت الحساب، فتقع صحيفة المؤمن في يده ﴿في جنة عالية﴾ وتقع صحيفة الكافر ﴿في سموم وحميم﴾.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي قلعت وأزيلت، كما يُكشط الإهاب عن الذبيحة، والغطاءُ عن الشيء المستور به.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي أوقدت إيقاداً شديداً.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قُرِّبت من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ جواب «إذا» على أن المراد بها زمان واحد ممتدٌّ، مبدؤه النفخة الأولى، ومنتهاه فصل القضاء، أي كل نفس برة أو فاجرة ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ من خير أو شر، والمراد بحضورها: حضور صحائفها، وما فيها من خير أو شر، كما ينطق عنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾ الآية، وتنكيرُ النفس للإيذان، بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ بالكواكب الرواجع، من خَنَس إذا تأخر، أي أقسمُ بالنجوم الساطعة المضيئة، التي تختفي بالنهار وتظهر بالليل، سميت خُنَّساً لأنها تختفي عن الأبصار، وهي ما سوى النيرين، من السيارات، ولذا وصفها بقوله.

﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس، من كنس الوحشُ إذا دخل كناسه، وهو بيته، تستتر كما تستتر الظباء في كهوفها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي أقبل بظلامه، أو أدبر، وهو من الأضداد وقيل إقبال ظلامه أوفق لقوله تعالى:

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ لأنها أول النهار، والصبحُ إذا أقبل، يقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نَفَساً له مجازاً(١).

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن الكريم، الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة

---

(١) انظر إلى روعة الإبداع في التعبير ﴿والصبح إذا تنفَّس﴾ ففيه تشبيه النور الذي يأتي به الصبح، بنسمات الهواء العليل، التي تحيي النفس، فالصبح حيٌّ يتنفس، أنفاسه النورُ، والحركة، والضياء، وكأنه نائم يغطُّ في سبات عميق، ثم يستيقظ فيستنشق الهواء العليل، وإنما جاءت روعة التعبير، من جمال الاستعارة البديعة.

﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أي جبريل عليه السلام، وإنما أضيف إليه، لأنه هو الذي نزل به، وأنه قاله عن الله تعالى ﴿كَرِيمٍ﴾ عند ربه، ومن تكريمه أنه تعالى جعله.. واسطةً بينه وبين رسله.

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ أي قدرة على ما يكلّف به، لا يعجز عنه ولا يضعف، لقوله تعالى: ﴿شديد القوى﴾ وكان من قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط، فرفعها إلى السماء، ثم قلبها، وأنه صاح صيحةً بثمود، فأصبحوا جاثمين ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي عند الله تعالى عندية إكرام، لا عندية مكان ﴿مَكِينٍ﴾ أي ذي جاهٍ، ومنصب ومكانة.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿مُّطَاعٍ﴾ في ملائكته ﴿ثَمَّ﴾ أي في هناك السماوات، يطيعه من فيها ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي ورسالات السماء.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يعني الرسول ﷺ، والتعرض لعنوان المصاحبة، للتنبيه على شناعة الافتراء، كأنه يقول: هذا الذي تزعمون أنه مجنون، هو صاحبكم الذي صاحبتموه أربعين سنة، وعرفتم عقله وفضله، فكيف تزعمون أنه مجنون؟ أفلا تعقلون؟.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته.

﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس.

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ أي على الوحي، وغيره من الغيوب ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ أي ببخيل، من الضنّ وهو البخل، ضنَّ بالشيء بخل، فهو ضنين، أي لا يبخل بالوحي، كما يبخل الكهان رغبة في الحلوان، بل يعلّمه كما عُلِّم.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وقيل: كانوا يقولون إنّ شيطاناً يلقيه على لسانه، فنفى الله تعالى ذلك عنه ﷺ.

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي فأيَّ طريق تسلكونه في تكذيبكم للرسول؟ كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً: أين تذهب؟ أي أين تذهب عقولكم بهذا المنطق السخيف؟.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما هو ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي للخلق أجمعين.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ ﴾ بدل من العالمين ﴿ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أي لمن شاء الاستقامة، ويتحرى الحقَّ، وإبداله من العالمين، لأنهم هم المنتفعون بالتذكير.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ الاستقامة ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فإن مشيئتكم لا تستتبع الاستقامة، بدون مشيئته تعالى ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ مالك الخلق كله، ومربيهم أجمعين، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير»

* * *

سُورَةُ الانفِطَار

مكية وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ ﴾ .

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ انشقت لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ المَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أبْوَاباً﴾ .

﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ ﴾ .

﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ تساقطت متفرقة على وجه الأرض.

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ ﴾ .

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ فتح بعضها على بعض، فصار الكلُّ بحراً واحداً، فاختلط العذبُ بالأجاج، أو تفجرت فاشتعلت بألسنة النيران كقوله تعالى: ﴿وَإذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي اشتعلت نيرانها، من السَّجْر بمعنى الالتهاب، والاحتراق.

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ أي قُلب ترابها وأُخرج موتاها، ونظيرهُ بُحثر لفظاً ومعنى.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ أي كلُّ نفسٍ برُّها وفاجرها، وجواب إذا ﴿ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أي ما أسلفت من عملٍ خير أو شر، علمت ذلك عند نشر الصحف.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ قيل الخطاب لمنكري البعث، أو يتناول جميع العصاة، وهو الأقرب، لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ أيْ أيَّ شيء خدعك وجرَّأك على عصيانه، وقد علمتَ ما بين يديك من الدواهي وما سيكون؟ قال عمر: غرَّه جهله، وغرَّه حمقه، وعن الحسن: غرَّه شيطانه، والتعرض لعنوان كرمه تعالى، للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مداراً لاغتراره، حسبما يغويه الشيطان، ويقول له: افعل ما شئتَ فإن ربك كريم، قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة، فإنه قياس عقيم، وتمنية باطلة، بل هو مما يوجب المبالغة في الإيمان والطاعة، والاجتناب عن الكفر والعصيان، كأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك؟ وذِكْرُ «الكريم» للمبالغة في المنع عن الاغترار، فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم، وتسوية المطيع والعاصي، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام!!.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية، منبهة على أن من قدر على ذلك بدءاً قدر عليه إعادة، والتسويةُ جعلُ الأعضاء سليمة سوية، معدة لمنافعها وعدَّل بعضها ببعض، بحيث لم تتفاوت، أي صيَّرك متناسب الخلق، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، وإحدى العينين أوسع، يمشي قائماً لا كالبهائم، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، وسرَّك بالإيمان، وشرَّفك بالأمر والنهي، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً.

﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ ما زائدة للتوكيد، أي ركَّبك في أي صورة اقتضتها مشيئته، من الصور المختلفة في الحُسْن، والطول، والقِصَر، واختلاف الصور والهيئة، يدل على قدرة الصانع تعالى.

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن الغفلة عن الله وعن الاغترار بكرم الله ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ ﴾ إضراب عن جملة مقدرة، كأنه قيل: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تجرؤون على أعظم من ذلك، حيث ﴿ بِٱلدِّينِ ﴾ أي بالجزاء والبعث والنشور، وهذه علة الغرور.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ يحفظون أعمالكم وأقوالكم من الملائكة وهو تحقيق لما يكذبون به، وردٌّ لما يتوقعون من التسامح والإهمال، أي تكذبون بالجزاء والحال أن عليكم حافظين.

﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ أي كراماً عند الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير أو شر، وفي تعظيم الكاتبين تفخيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، حيث يستعمل هؤلاء الكرام، وفيه إنذار وتهويل للمجرمين، ولطف بالمتقين، وهي أشد آية على الغافلين، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ بيان لما يكتبون لأجله ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ أي لفي الجنة دار السرور والحبور، يتنعَّمون فيها بما لذَّ وطاب.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ أي الكفار ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي لفي النار، وفي تنكير النعيم والجحيم، من التفخيم والتهويل ما لا يخفى.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يدخلونها ويقاسون سعيرها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي لا يخرجون منها، كقوله تعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها بل يجدون سمومها في

قبورهم حسبما قال ﷺ «القبر إمَّا روضة من رياض الجنان، أو حفرة من حفر النَّار»[1].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ خطاب للنبي ﷺ، لأنه ﷺ ما كان عالماً بذلك قبل الوحي، وفيه تفخيم لشأن يوم الدين الذي يكذبون به، أي أيَّ شيء جَعَلك دارياً ما يوم الدين؟ لو لم نعرفك أحواله.

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾.

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ كُرِّر للتأكيد والتهويل.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي لا تستطيع دفعاً عنها، ولا نفعاً لها بوجهٍ من الوجوه، وإنما تملك الشفاعة بالإذن، وفيه بيان إجمالي لشأن يوم الدين، قال ابن عباس: كلُّ ما في القرآن من قوله: ﴿وما أدراك﴾ فقد أراه، وكلَّ ما فيه من قوله: ﴿وما يدريك﴾ فقد طوى عنه ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي: لا أمر إلا لله دون غيره، وفيه تقريرٌ لشدة هوله، أي الحكم والقضاء بين الخلائق يومئذ بيد الله لا يملكه غيره. والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار»

* * *

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٦٢ في صفة القيامة بلفظ «إنما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النار».

سُورَةُ المُطَفِّفِين

مكية وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن، لأن ما يبخس طفيف، أي حقير، روي أنه ﷺ قدم المدينة، وكان أهلها أبخس الناس كيلاً، فنزلت، فأحسنوا الكيل.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذا اشتروا من الناس، وكالوا لأنفسهم، أو وزنوا، وهي صفة للمطففين، شارحة لكيفية تطفيفهم، والاكتيالُ: الأخذُ بالكيل، والاتِّزانُ: الأخذُ بالوزن ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي يأخذونها وافية، والمراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافياً، بل أخذ الوافر حسبما أرادوا، بكبس الكيل، وتحريك المكيال، والاحتيال.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ أي إذا كالوا للناس، أو وزنوا لهم، فحذف

الجار ﴿يُخۡسِرُونَ﴾ أي ينقصون وعدم التعرض للمكيل والموزون، لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم، في الأخذ والإعطاء، لا في خصوصية المأخوذ. واختلف العلماء في مقدار التطفيف، فقال بعضهم: هذه الآية دالة على الوعيد، فلا تتناول إلاَّ إذا بلغ نصاب السرقة، وقال الآخرون: بل ما يصغر ويكبر داخل تحت الوعيد، وهذا هو الأصح حتى إن العزم عليه أيضاً من الكبائر، أمر المكيال والميزان عظيم، لأن عامة الخلق يحتاجون في المعاملات إليهما، فلهذا عظَّم الله تعالى أمره. قال أعرابي لعبد الملك بن مروان: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطففين؟ أراد بذلك قد توجه على المطفِّف الوعيد العظيم في أخذ الطفيف، فأنت تأخذ الكثير، بلا كيل ولا وزن!!.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥﴾.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾؟ يعني يوم القيامة، أدخل الهمزة على «لا» النافية توبيخاً، وفيه إنكار وتعجيب من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، ولو ذرة، فإن من يظن ذلك، وإن كان ظناً خفيفاً لا يكاد يتجاسر على أمثال هاتيك القبائح، فكيف بمن تيقَّنه!!.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقومون من قبورهم لحكمه وقضائه، وفي هذا الإنكار والتعجيب، ووصفه تعالى برب العالمين، ووصف اليوم بالعظيم، من البيان البليغ لعظم الذنب، في التطفيف وأمثاله، ما لا يخفى.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن التطفيف، والغفلة عن البعث، ثم أتبعه وعيد

الفجار ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ أي صحائف أعمالهم ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقلين، وأصله من السجن وهو الحبسُ والتَّضييقُ، لأنه سبب الحبس في جهنم، فالمعنى إنَّ كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون، أي كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدون، وفيه قبائح الشياطين والكفار من الثقلين.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾؟ إنما قال ذلك تعظيماً لأمر السجِّين وتهويلاً له.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي مسطور أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي بيوم الجزاء.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ أي متجاوز للحد في الطغيان، غالٍ في التقليد الأعمى، حتى استبعد قدرة الله على الإعادة ﴿أَثِيمٍ﴾ أي منهمك في الشهوات، بحيث شغلته عما وراءها، وحملته على الإنكار.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي خرافات وأباطيل الأمم السابقة للبعث والحساب والجزاء.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع للفاجر الأثيم عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له فيه ﴿بَلْ رَانَ﴾ أي بل طبع الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ على قلوب المكذبين ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي والفضائح وفيه بيان لما أدى بهم إلى التفوه بتلك العظيمة، أي ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل هذه المقالات الباطلة، بل ركب على قلوبهم، وغلب عليها ما كانوا يكسبونها من الكفر والمعاصي، حتى صارت كالصدأ في المرآة، فَحالَ ذلك بينهم وبين معرفة الحق، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة، نُكت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا هو نَزَع، واستغفر، وتاب، صُقِل قلبُه. وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، وهو الرَّانُ الذي قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُون﴾[1]، والرَّينُ: الصدأ، ران الشيء على فلان غلبه، ثم أطلق على الغطاء، فمراتب الظلمة على القلب مختلفة، فبعضها يكون رَيْناً، وبعضُها طبعاً، وبعضها إقفالاً.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن الغي والضلال ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المكذبين ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾ أي عن النظر إلى ربهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي لممنوعون، فلا يرونه بخلاف المؤمنين، قال الزجاج: والآية دليلٌ على أن المؤمنين يرون ربهم، وإلا لا يكون التخصيص مفيداً!.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير ٥/ ٤٠٤ وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في المسند.

قال مالك: لمَّا حجب أعداءه لا بد أن يتجلى لأوليائه.

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ ثم بعد كونهم محجوبين عن الله، لداخلون النار.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ إذا دخلوها توبيخاً من جهة الزبانية ﴿ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا فذوقوا عذابه.

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن التكذيب أي ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار. ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴾ ما كتب فيه أعمالهم الصالحة، والأبرار المطيعون لله، المتقون لمحارمه ﴿ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ هو علم لديوان الخير، الذي دُوِّن فيه كل ما عملته الأبرار، وصلحاء الثقلين، من العلو، لأنه سبب لارتفاع الدرجات في الجنة.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي تحضره الملائكة، ويشهدون على ما فيه يوم القيامة.

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ شروع في بيان محاسن أحوالهم.

﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ ينظرون إلى كرامة الله ونعمه، وإلى أعدائهم كيف يعذبون.

﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ تَعۡرِفُ ﴾ يا رسول الله ﴿ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ بهجة التنعم، وبريقه وطراوته، والخطاب لكل أحد ممن له حظ من الخطاب.

﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ يُسۡقَوۡنَ ﴾ في الجنة ﴿ مِن رَّحِيقٖ ﴾ شراب خالص لا غش فيه ﴿ مَّخۡتُومٍ ﴾ ختم على ذلك الشراب، ومنع أن تمسه الأيدي، تكريماً له، وهناك خمر آخر، تجري في الأنهار، كما قال تعالى: ﴿وأنهار من خمرٍ﴾ إلاّ أن هذا المختوم أشرف من الجاري.

﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ ﴾ تختم أوانيه بمسك، ولعله تمثيل لكمال نفاسته ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ ﴾ الرحيق ﴿ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ فليرغب الراغبون، كقوله تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ وأصل التنافس التغالب في الشيء النفيس.

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَمِزَاجُهُۥ ﴾ أي ما يمزج به ذلك الرحيق ﴿ مِن تَسۡنِيمٍ ﴾ سميت بالتسنيم، لأنها أرفع شراب في الجنة، أو لأنها تأتيهم من فوق، وتنصبُّ في أوانيهم.

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي يشربون منها، قال ابن عباس: يشرب منها المقربون صِرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ أي كفروا، يعني رؤساء قريش أبا جهل، والوليد، والعاص، وأصحابهم ﴿ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ على الذين آمنوا، مثل عمار وخباب وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ في الدنيا استهزاءً بهم.

﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ ﴾ أي فقراء المؤمنين ﴿ بِهِمْ ﴾ أي بالمشركين وهم في أنديتهم ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم إليهم سخرية.

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ ﴾ من مجالسهم أي رجعوا ﴿ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ أي رجعوا فرحين، متلذذين بذكرهم، والسخرية منهم.

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أي المؤمنين أينما كانوا ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ يعني الكفار ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ لَضَآلُّونَ ﴾ أي خدع محمد هؤلاء فضلُّوا، وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة، نسبوا المسلمين إلى الضلال.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ﴾ أي وما أرسل الكفار ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ أي يحفظون عليهم أحوالهم، ويرقبون أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم؟ وهذا تهكم بهم، وسخرية واضحة، كأنه تعالى يقول: أنا ما أرسلتهم وكلاء ورقباء على عبادي.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ برسول الله ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ على الكفار ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ كما ضحكوا منهم في الدنيا، مجازاةً لهم، حين رأوهم أذلاء مغلولين في النار، قد غشيهم فنون الهوان والصغار، بعد العزة والكبرياء، التي كانوا عليها في الدنيا.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥﴾.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي هم جالسون على أسرة الذهب، المكللة بالدر والياقوت، ينظرون إلى الكفار، ويضحكون عليهم، كما كانوا يفعلون في الدنيا.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾؟ والتثويب والإثابة بمعنى: المجازاة، والثواب: الجزاء، أي هل جوزوا ﴿مَا كَانُوا يَفعلُونَ﴾ بالمؤمنين في الدنيا؟ بمعنى: هل نالوا جزاءهم بأفعالهم وإجرامهم؟ والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين»

* * *

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

مكية وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ أي تصدعت وتشققت بالغمام كقوله تعالى: ﴿ويوم تشقق السماءُ بالغمام﴾ وذلك عند قيام الساعة، وهي من علاماتها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأطاعت، وأجابت ربها إلى الانشقاق، ولم تمتنع، أي انقادت لتأثير قدرته من غير ممانعة ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي جُعِلت حقيقة بالاستماع والانقياد، والمعنى: انقادت لربها، وهي جديرةٌ بذلك، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي بسطت وسويت باندكاك جبالها وآكامها، بحيث صارت ﴿قاعاً صفصفاً. لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمتاً﴾ أوزيدت سعة، ولا بد

من الزيادة في طولها وعرضها، لأن الخلق الأولين والآخرين سيحشرون على ظهرها.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ من الكنوز والموتى، كقوله تعالى: ﴿وأخرجت الأرضُ أثقالها﴾ والتحقيق أن الله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء، والأرضُ وُصفت بذلك على سبيل التوسع ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ أي خلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء من باطنها، كأنها تكلفت في ذلك.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في الإلقاء والتخلي ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وهي حقيقة بذلك، وجوابه محذوف للتهويل، أي لقي الإنسان من الشدائد والأهوال، ما لا يتصوره الخيال!!.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ ﴾ خطاب للجنس ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أي جاهدٌ إلى لقاء ربك، وهو الموت وما بعده، والكَدْحُ: جهدُ النفس في العمل، بحيث يؤثر فيها ﴿ فَمُلَاقِيهِ ﴾ المراد جزاء الكدح، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، أي ستلقى جزاءك على عملك كاملاً وافياً، فإمَّا أن تكون من أهل النعيم، أو من أهل الجحيم. إن الإنسان لا ينفكُّ في هذه الحياة، من أولها إلى آخرها، عن الكدح والمشقة، ولما كانت كلمة «إلى» لانتهاء الغاية، فهي تدل على وجوب انتهاء الكدح والمشقة، بانتهاء هذه الحياة، فنرجو من فضل الله تعالى، أن يكون الانتهاء، إلى السعادة والرحمة بعد الموت.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ ﴾ أي أعطي ﴿ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ كتاب حسناته.

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي سهلاً هيناً، لا مناقشة فيه ولا عذاب، و «سوف» من الله تعالى واجب، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذِّب» فقلت: أوليس يقول الله عز وجل: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ فقال: إنما ذلك العَرْضُ، ولكنْ من نوقش عُذِّب»(١).

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ المراد من أهله: أهل الجنة.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ ﴾ أي أعطى كتاب سيئاته ﴿ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ أي يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، وقال في سورة الحاقة: ﴿فأما من أوتي كتابه بشماله﴾.

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣/٢١٣ ومسلم رقم ٢٨٧٦ وهذه رواية أبي داود في الجنائز رقم ٣٠٩٣ ورواية البخاري بلفظ «إنما ذاك العرضُ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك».

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ يقول: يا ثبوراه، والثبورُ: الهلاكُ لأنه يعلم أنه من أهل النار، فيدعو بالهلاك على نفسه، قال تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي يدخل ناراً مسعَّرة، فإنه يدعو الثبور، ثم يدخل النار وهو في النار أيضاً يدعو الثبور.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ فيما بين أهله وعشيرته في الدنيا مسروراً مترفاً، بطراً كديدن الفجار، الذين لا يهمهم ولا يخطر ببالهم أمور الآخرة، ولا يتفكرون في العواقب.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي ظنَّ أنْ لن يرجع إلى ربه، تكذيباً منه بالبعث والحَوْرُ: هو الرجوعُ، ومنه حديث «أعوذ بك من الحَوْر بعد الكور» أي الرجوع إلى النقص بعد الكمال.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ أي ليس الأمر كما ظن، بل سيرجع إلينا، ويبعث ويحاسب ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأعماله، فلا يهمله بل يجازيه، ولا بدَّ من رجوعه وحسابه، وجزائه عليها، فهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصي.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ ﴾.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ الشَّفَقُ: الحمرةُ من بعد غروب الشمس التي ترى في الأفق، وهذا هو المشهور في اللغة وقال مجاهد: الشَّفَقُ: النهار كله، لأنه عطف الليل عليه.

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ ﴾.

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع وضم ما كان منتشراً بالنهار من الخلق فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات.

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ ﴾.

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ أي اجتمع وتمَّ نوره، وذلك في الأيام البيض، وذلك ليلة ثلاثة عشر إلى ستة عشر.

﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ ﴾.

﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾ أي لتلاقنَّ حالاً بعد حال، كل واحدة منها مطابقة لأختها في الشدة والفظاعة، أولها الموتُ، وما بعده من مواطن القيامة، وقيل: الطبق جمع طبقة، وهي المرتبة وهو الأوفق للركوب، أي لتركبن أحوالاً بعد أحوال.

﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ ﴾.

﴿ فَمَا لَهُمۡ ﴾ أي كفار مكة ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ برسول الله، ويوم القيامة، أيْ أيَّ شيء يمنعهم عن الإيمان مع تعاضد موجباته؟!.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ أي لا يخضعون لله تعالى بالتوحيد ولا يسجدون لتلاوته؟ فهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وعند سماعهم القرآن لا بدَّ أن يعلموه معجزاً، وإذا علموا ذلك لا بد أن يخضعوا، قيل: قرأ النبي ﷺ ذات يوم ﴿واسجد واقترب﴾ فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفّر، فنزلت هذه الآية، وعن رافع قال: «صليت مع أبي هريرة رضي الله عنه العَتَمَةَ - يعني صلاة العشاء - فقرأ ﴿إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ﴾ فسجدَ، فقلتُ: ما هذه؟ قال: سجدتُ بها خلف أبي القاسم، فلا أزال أسجدُ فيها»[1] وبه احتج أبو حنيفة على وجوب السجدة، قال ابن عباس والحسن: المراد من السجود الصلاةُ، وقال أبو مسلم: الخضوعُ، وقال الآخرون: المراد نفس السجود.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي كفار مكة ﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث والقرآن، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته، فالمعنى: إن الدلائل الموجبة للإيمان وإن كانت ظاهرة، لكنَّ الكفار يكذبون بها، فكيف يكذّبون وبين أيديهم هذا الكتاب المعجز؟.

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي بما يجمعون في صدورهم، ويضمرون

---

(١) أخرجه البخاري في سجود القرآن ٢/ ٤٥٩ ومسلم رقم ٥٧٨ في المساجد والموطأ ١/ ٢٠٥ في القرآن.

من الكفر والحسد، والتكذيب وأصل الكلمة من الوعاء، يقال: أوعيتُ المال إذا جمعته.

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ أي فبشر هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون به ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي وجيع مؤلم، في غاية الشدة والغلظة.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴾ أي لهم ثواب في الآخرة دائم غير مقطوع.

والله أعلم بمراده والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق»

* * *

سُورَةُ البُرُوجِ

مكية وهي اثنان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ①﴾.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وهي البروج الأثنا عشر، وقيل: النجوم سميت بروجاً لظهورها، وأصل التركيب للظهور، وإنما حَسُن القسمُ بالبروج، لما فيها من عجيب حكمة الباري، وفيها سير الشمس والسيارات.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ②﴾.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③﴾.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي شاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه، وتنكيرهما للإبهام في الوصف، أو للمبالغة، وقيل: الشاهد الرسول ﷺ، والمشهود يوم القيامة، قال الله تعالى عن القيامة: ﴿ذَلِكَ يومٌ مَجْمُوعٌ له النَّاسُ وذلكَ يوم مَشْهودٌ﴾.

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ﴾.

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ أي لُعن، والأظهر أنها دعائية، دالة على الجواب، كأنه قيل: أُقسم بهذه الأشياء أنكم؛ أي يا كفار مكة ملعونون، كما لُعن أصحاب الأخدود، لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين، على ما هم عليه من الإيمان، وتصبيرهم على أذية الكفار، وتذكيرهم بما جرى على من تقدَّمهم من التعذيب، حتى يتأسَّوْا بهم ويصبروا، والأخدود هو الشقُّ العظيم في الأرض جمعه أخاديد، وفي قصتهم روايات مختلفة، إلاَّ أنها متفقة في أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم، أو ملكاً كافراً، فألقاهم في الأخدود[1]، وتلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش، فذكر

---

(١) القصة كما وردت في مسند أحمد، وصحيح مسلم «أن مَلِكاً جباراً ظالماً، ادَّعى الربوبية، وكان له ساحر يستعين به، فلما كبر الساحر، طلب من الملك أن يأتيه بغلام شاب ليعلمه السحر، حتى لا يذهب ملكه، فبعث له غلاماً، وكان هذا الغلام يمرُّ في طريقه على رجل عابد زاهد، فتعلَّق قلب الغلام به، فأسلم على يديه، ووصل الصلاح بالغلام إلى درجة عظيمة، حتى صار مستجاب الدعوة، لا يأتيه مريضٌ فيدعو الله له إلاَّ شفاه، وصار من شدة صلاحه يبرىء الأعمى والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأمراض، وكان للملك وزيرٌ أعمى، سمع بأمر هذا الغلام، فأتاه بهدايا ثمينه عظيمة، وقال له: هذه الهدايا كلها لك إن أنت شفيتني!! فقال له الغلام: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله ربُّ العالمين، فإن أنت آمنتَ بالله ربِّي، دعوت الله لك فشفاك، فآمن بالله تعالى، فدعا الله له فشفاه الله تعالى، فأصبح بصيراً، فجاء الوزيرُ إلى الملك وعيناه تبصران، فتعجَّب الملك منه وقال له: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: وهل لك ربٌّ غيري!؟ فقال له: أنت عبد مثلي ضعيف لا تقدر على شيء، وربي وربُّك هو الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك قد بلغ من سحرك أنك تُبرىءُ الأعمى والأبرص، فقال له الغلام: أنا لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله رب العالمين، فأخذه فلم يزل يعذبه، حتى دلَّ على العابد فجيء بالعابد فقيل له: إرجع عن دينك؛ فأبى، فأمر الملك به فنشر بالمنشار حتى صار شقتين، ثم أُتي بالغلام فطلب منه أن يرجع =

الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله، تنبيهاً لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾.

﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وصف لها بأنها عظيمة، لهبها من الحطب الكثير، وأبدان الناس.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾.

﴿إِذْ هُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَلَيْهَا﴾ على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ أي جلوس على الكراسي في مكان مشرف عليها، وكانوا يعرضون المؤمنين على النار، فمن كان يترك دينه تركوه، ومن يصبر على دينه ألقوه في النار.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾.

﴿وَهُمْ﴾ الكفار ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ﴾ يشهدون على ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب، وهم حضور لا يرقُّون لهم، لغاية قسوة قلوبهم، هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم، وتنطق به الروايات المشهورة، وقد روي أن الجبابرة لما ألقوا المؤمنين في النار، وهم حولها، عَلِقتْ بهم النار، فأحرقتهم، ونجّى الله عز وجل المؤمنين منها سالمين، وإلى هذا القول ذهب الربيع بنُ أنس، والواحدي، وعلى هذا حَمَلا قوله تعالى: ﴿ولهم عذاب الحريق﴾.

= عن دينه فأبى، فأمر الملك أن يصعدوا به على رأس جبل عال فيلقوه منه، فلما صعدوا به الجبل، دعا الغلام ربه فقال: اللهم اكفني من شرهم بما شئتَ، فتزلزل بهم الجبل فماتوا وجاء الغلام يمشي إلى الملك..» الخ وانظر تمام الحديث في صحيح مسلم.

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ من المؤمنين، أي وما أنكروا وما عابوا منهم ﴿ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر، أي وما كان لهم ذنب أو جرم عند هؤلاء الفُجّار، إلاّ لأنهم آمنوا بالله، وكفروا بالطاغوت، وهذا فضيلة وليس بذنب.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هذا تأكيد للاستثناء بمناط إيمانهم ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وعدٌ لهم، ووعيد شديد لمعذبيهم، فإن علمه تعالى بجميع الأشياء، التي من جملتها أعمال الفريقين، يستدعي توفير جزاء كل منهما.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي امتحنوهم في دينهم ليرجعوا عنه، والمراد إمّا أصحاب الأخدود، وإما على الإطلاق، وهذا أولى، لأن اللفظ عام، فالتخصيص ترك للظاهر ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ لم يرجعوا عن كفرهم وفتنتهم، فإن ما ذكر من الفتنة في الدين، لا يُتصور عن غير الكافر ﴿ فَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي الزائد في الشدة، وفي الحرارة، وهي نار أخرى بسبب فتنتهم للمؤمنين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي الذي يصغر عنده الدنيا وما فيها.

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ استئناف خوطب به النبي ﷺ إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه، كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية، مع إضافة لضميره ﷺ، البطشُ: الأخذُ بعنف ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي بالغ أقصى أنواع الشدة، ووصفه بالشدة، فقد تضاعف، وهو أخذه بالظلمة والجبابرة أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَىٰ وهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد﴾.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ﴾ الخلق ﴿وَيُعِيدُ﴾ بعد الموت، من غير دخل لأحدٍ في شيء منهما، ففيه مزيد تقرير لشدة بطشه.

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ أي الساتر للعيوب، والعافي عن الذنوب ﴿ ٱلْوَدُودُ ﴾ المحب لمن أطاع.

﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ أي خالقه، أي صاحب العرش العظيم، المحيط بالسماوات والأرض، خلقه ليدل على وجوده، دون احتياج إليه، ولهذا قال بعده ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ أي العظيم في ذاته وصفاته.

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ بحيث لا يتخلف عن إرادته مراد، وفيه دلالة على خلق أفعال العباد.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ أي قد أتاك يا رسول الله، وهو تقرير لشدة بطشه بالظلمة العصاة، والكفرة العتاة، متضمّنٌ لتسليته ﷺ بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود، والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة مستمرٌ كذلك ﴿ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴾ أي خبر الجموع الطاغية في الأمم الخالية.

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الجنود لأن المراد بفرعون قومه، والمعنى: قد عرفت بتكذيبهم للرسل وما حاق بهم، فتسلَّ واصبر وأنذرهم أن يصيبهم مثل الطغاة المجرمين.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ من قومك ﴿ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ لا يَدْعون عنه، إضراب عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم أشد منهم كفراً فإنهم مستقرون في تكذيب شديد للقرآن الكريم، مع وضوح أمره.

﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى، بقوم أحاط بهم العدو من كل جانب، فسدَّ عليهم المسالك، والمراد من هذه الإحاطة بيان قرب هلاكهم.

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي كتاب شريف، وحيد في النظم والمعنى.

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أي مصون عن التبديل والتحريف، ووصول الشياطين إليه! والله أعلم بمراده.

والصلوات والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج»

* * *

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكية وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ .

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ الكوكب البادي بالليل، والمراد به كواكب السماء النيرة، يقال: طَرَق النجم طروقاً طَلع، وكل ما أتى ليلاً فقد طرق، وهو طارق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢﴾ .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام، أيْ أيَّ شيء أعلمك ما الطارق؟.

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ .

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي المضيء كأنه يثقب الظلام، فينفذ فيه، وهو النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر، ويوقف به على أوقات الأمطار.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ .

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ برة أو فاجرة ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جواب القسم، و «إنْ» نافيه و «لمَّا» بمعنى إلاَّ، أي ما كلُّ نفسٍ إلاَّ عليها حافظ، مهيمن، رقيب، وهو الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنه: هم الحفظة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الآية للتنبيه على أن كل نفس عليها حافظ، يحصي عليها كل ما يصدر عنها، من قول وفعل، وأنه ينبغي على الإنسان أن يتفكر في مبدأ فطرته حق التفكير، حتى يتَّضح له، أنَّ من قدر على إنشائه من مواد، لم تشمَّ رائحة الحياة قطُّ، فهو قادر على إعادته، فيعمل ليوم الإعادة، ما ينفعه ويجديه، ولا يملي على حافظه ما يرديه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ من أي شيءٍ خلقه ربُّه، استفهام وجوابه قوله تعالى:

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ والدَّفقُ صبٌّ فيه دفع، والمراد بالماء الممتزج من الماءين في الرحم، كما ينبىء عنه قوله تعالى:

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ من بين صلب الرجل، وترائب المرأة، وهي عظام صدرها، وقيل: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه، لأنه تعالى بيَّن أن الإنسان مخلوق من ماءٍ دافق، والذي يوصف بذلك ماء الرجل، ثم هو يلتقي بماء المرأة «البويضة» في الرحم.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للخالق تعالى، وقوله ﴿خُلِقَ﴾ يدلُّ عليه، أي إن الذي خلقه ابتداءً مما ذُكر ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي على إعادته بعد موته ﴿لَقَادِرٌ﴾ لا يعجز عنه، فالذي بدأ خلقه يعيده.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي تكشف ما أسرَّت به القلوب، من العقائد والنيات، وما أخفي فيها من الأعمال ويميز ما طاب منها وما خبث.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يمتنع به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينتصر به.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي المطر، وسمي به لعوده كل حين، ويجوز أن يراد بالسماء السحاب، والعرب كانوا يعرفون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ هو ما يتصدع عنه من النبات، والله تعالى جعل كيفية خلق الحيوان، دليلاً على المبدأ والمعاد، وذكر في هذا كيفية خلق النبات، فالسماء ذات الرجع كالأب، والأرض ذات الصدع كالأم، وكلاهما من النعم العظام.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ يفصل بين الحق والباطل، مبالغ في ذلك، كأنه نفس الفصل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ إنه جِدٌّ كله، وليس فيه شيء من اللهو والباطل والعبث، ومن حق البشر أن يهتدوا به.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني مشركي مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعملون المكايد في إبطال أمر الله، يعني يحتالون بالمكر، وذلك في دار الندوة حيث تشاوروا في صدِّ الناس عن رسول الله، وتآمروا على قتله.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أجازيهم جزاء كيدهم، باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله إلا على وجه الجزاء.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدعُ عليهم بالهلاك، فَعَمَّا قليل سترى ما يحلُّ بهم ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ أي إمهالاً يسيراً وفي تقييده بروبداً، من تسليته ﷺ ما لا يخفى!! والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق»

* * *

سُورَةُ الأَعْلَى

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ①﴾.

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي نزّه ربك عزَّ وجلَّ عن صفات العجز والنقص، وعما يقوله الظالمون مما لا يليق به سبحانه من النقائص، والقبائح، كالزوجة، والولد، وجعل الملائكة بنات الله، فهو العلي الكبير الذي لا أحد أكبر منه ولا أعلى، فإنه تعالى أعلى وأجلُّ وأعظم من إدراكنا، فإنه العالي على كل شيء بملكه وسلطانه وقدرته.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ②﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي خلق كل شيء فسوى خلقه، بأن جعل له ما به يتأتى كمالُه، ويتسنَّى معاشُه على إحكام واتساق، لأنه صادر عن عالم وحكيم.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ③﴾.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ أجناس الأشياء، وأنواعها، وأفرادها ومقادرها وصفتها

وأفعالها وآجالها ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي فوجَّه كلَّ واحد منها إلى ما يصدر عنه، وينبغي له، طبعاً أو اختياراً، ويسَّره لما خلق له، بخلق الميول والإلهامات، ولو تتبعتَ أحوال النباتات والحيوانات، لرأيتَ في كل منها ما تحار فيه العقول.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب.

﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خضرته ﴿غُثَآءً﴾ أي يابساً، هشيماً ﴿أَحْوَىٰ﴾ أي أسود بالياً، بعد أن كان أخضر زاهياً، وفي الآية تمثيل للحياة الدنيا، فإنها بعد هذا الجمال والزهاء، ستصير إلى الزوال والفناء.

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أي على لسان جبريل عليه السلام، أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة، والآية بيانٌ لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله ﷺ، إثر بيان هدايته العامة للمخلوقات، وهي هدايته ﷺ لتلقي الوحي، وحفظ القرآن، والسين للتأكيد، أي سنجعلك تقرأ القرآن فلا تنساه ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ أصلاً من قوة الحفظ، ليكون ذلك آية أخرى لك، وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين:

١ ـ أنه كان أمياً فحفظُه لهذا الكتاب من غير دراسة وكتبة، معجزة واضحة.

٢ ـ هذه أوائل ما نزل بمكة، فهذا إخبار عن أمرٍ عجيب، سيقع في المستقبل، وقد وقع.

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ نسيانه أي لا تنسى مما تقرأه شيئاً، إلاَّ ما شاء الله أن تنساه أبداً، بأن تُنسخ تلاوته، وقيل: المراد به النسيان في الجملة على القلة والنُّدرة، كما روي أنه ﷺ أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبيٌّ أنها نُسخت، فسأله فقال ﷺ نسيتها، وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ بسورة بالليل، فقال: «يرحمُه اللهُ، لقد أذكرني كذا وكذا، آيةً كنتُ أُنسِيتُها من سورة كذا وكذا»(١). وقيل هذا الاستثناء لم يقع ولم يشأ الله تعالى أن يُنسيه شيئاً، وفائدة هذا الاستثناء أن يعلم أن عدم النسيان من فضل الله تعالى ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ تعليل لما قبله، أي يعلم ما ظهر وما بطن، من الأمور التي من جملتها ما أُوحيَ إليك، فينسي ما شاء إنساءه، ويبقى محفوظاً ما شاء إبقاءه، لما نيط بكل منهما من مصالح دينكم.

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ أي نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى، في كل باب من أبواب الدين، علماً وتعليماً، واهتداءً وهداية، فيندرج تيسير طريق تلقي الوحي، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة، مما يتعلق بتكميل نفسه ﷺ، وتكميل غيره، كما تفصح عنه الفاء في قوله تعالى: ﴿فذكر﴾ ودلت هذه الآية على أنه سبحانه، فتح عليه ﷺ من أبواب التيسير، ما لم يفتحه على أحد غيره، كيف لا، وقد كان صبياً لا أبَ له ولا أمَّاً، نشأ في قوم جُهَّال، ثم إنه تعالى جعله قدوة للعالمين، وهادياً للخلق أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ ﴾.

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي عظْ بالقرآن الناس، حسبما يسرناك بما يوحى إليك، واهدهم إلى ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية، كما كنت تفعله ولما تكمَّل ﷺ أُمر بدعوة الخلق بقوله: ﴿فذكِّر﴾ لأن التذكير يقتضي تكميل الناقصين ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ قيل: هو أمرٌ بالتذكير على الإطلاق، والمعنى: عظْ أنت إن نفعت أو لم تنفع، أو الإشعار بأن التذكير إنما يجب إن ظن نفعه، ولذلك أُمر بالإعراض عن من تولى.

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ ﴾.

﴿ سَيَذَّكَّرُ ﴾ أي سيتعظ وينتفع بها ﴿مَن﴾ من شأنه أن ﴿ يَخْشَىٰ ﴾ الله في الجملة، فيزداد خشيةً بالتذكير، فيفكِّر في أمر ما تذكر به، فيقف على حقيقته فيؤمن به.

والناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام:

١ ـ من قطع بصحته.

٢ ـ من ظن.

٣ ـ من أنكر، فالأولان تكون الخشية لهما، ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنياً على الخشية في القلب، وصفات القلب مما لا اطلاع لأحد عليها إلا الله تعالى، وجب تعميم التذكير تحصيلاً للمقصود.

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ﴾.

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ الكافر أو الأشقى من الكفرة، لتوغله في عداوة النبي ﷺ، قيل: نزلت في الوليد، وعتبة، والعبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.

﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ﴾.

﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ نار جهنم، والصغرى نار الدنيا.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ أي لا يموت فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ حياةً يتلذذ بها، بل هو في عذاب دائم لا ينقطع، وإنما قيل «ثم» لأن هذه الحالة أفظع من دخول النار نفسها، والعرب تقول للمبتلَى «لا هو حيٌّ ولا ميّت».

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهَّر من أدناس الكفر والمعاصي، وروي عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: ﴿قَد أَفلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ قال: أعطى صدقة الفطر، وخرج إلى العيد فصلّى، وكان ابن مسعود يقول: رحم الله امرءاً تصدَّق ثم صلَّى، ثم يقرأ هذه الآية، وفيه إشكال، فالسورة مكية، ولم يكن في مكة عيد، ولا زكاة الفطر.

﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبه ولسانه، وبه يُحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ﴿فَصَلَّىٰ﴾ الصلوات الخمس قاله ابن عباس، واختاره ابن جرير، وعن الضحاك «ذكر اسم ربه» في طريق المصلى ﴿فصلَّى﴾ صلاة العيد، والصحيح قول ابن عباس، لأن أصل الصلاة مشروع من بدء الإسلام.

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾﴾.

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ إضراب عن مقدَّرٍ ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: لا تفعلون ذلك، بل تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، والمخاطب به

الكافرون، أو الناس جميعاً فإن السعي للدنيا أكثر، والمراد بإيثار الدنيا هو الرضاء والاطمئنان بها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾(١).

﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي الآخرة أفضل في نفسها وأدوم، ونعيمها لذيذٌ بالذات، خالصٌ عن الغوائل، وعدم التعرض لبيان تكدُّر نعيم الدنيا بالمنغصات، لغاية ظهوره.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة ﴿ لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي مثبتةٌ في الصحف القديمة، المنزَّلة على إبراهيم وموسى، والقرآن جامع لشؤون الدنيا والدين، وخلاصة الكتب المنزَّلة على رسل الله.

﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ بدل من الصحف الأولى، وفي إبهامها، ووصفها بالقدم، ثم بيانها وتفسيرها، من تفخيم شأنها ما لا يخفى، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»

* * *

---

(١) سورة يونس، آية: ٧.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ استفهامٌ أُريد به التعجيب بما في حيِّزه، والتشويق إلى استماعه، والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة، التي حقُّها أن يتناقلها الرواةُ، من كل حاضر وبادٍ ﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها كقوله تعالى: ﴿يومَ يغشاهم العذاب﴾ يعني القيامة.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي وجوهُ الكفار[1]، وهو استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال، نشأ عن الاستفهام، كأنه قيل من جهته ﷺ: ما أتاني؟ فقيل: وجوه يومئذٍ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزي والهوان.

---

(١) المراد بالوجوه الأعيانُ والذوات، فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، كما يقال: جاءك وجوه القوم أي أعيانهم ورؤساؤهم.

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ عَامِلَةٌ ﴾ أي تعمل في النار، وهو جرُّها السلاسل والأغلال، والصعود والهبوط في تلال النار ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ قيل هم أصحاب الصوامع «الرهبان»[1] ومعناه: نصبتْ في أعمالها من الصوم الدائب، والتهجد الواصب.

﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ أي تدخل ناراً متناهيةً في الحر.

﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أي تسقى ماءً حاراً من عين متناهية الحرارة، وصَلَ حرُّها درجة النهاية.

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ هو نبت يكون بطريق مكة تسميه قريش الشبرق، إذا كان رطباً تأكل منه الإبل، وإذا يبس صار كأظفار الهرة، والعذاب ألوان والمعذبون طبقاتٌ، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع، فلا تناقض بين الآيات، وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده، ويتضرّعون إلى الله طلباً للخلاص منه.

---

(١) قال البخاري قال ابن عباس ﴿عاملة ناصبة﴾ يعني النصارى، انظر كتاب التفسير ٨/ ٧٠٠ ومراد ابن عباس أن الرهبان منهم يجهدون أنفسهم في العبادة ـ بزعمهم ـ ثم يَصْلَون نار جهنم في الآخرة.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ وصف للضريع، أي منفعةُ الغذاء منتفية عنه وإنما هو شيء يضطرون إلى أكله، وتحقيق ذلك أنَّ جوعهم وعطشهم، ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة، بل جوعهم أنه تعالى يسلِّط عليهم الجوع، بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يُسلَّط عليهم العطشُ، فيضطرهم إلى شرب الحميم، كما قال تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطَّع أمعاءهم﴾.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ شروع في حديث أهل الجنة، وتقديم حكاية حال أهل النار، لأنه أدخل في تهويل الغاشية ﴿نَّاعِمةٌ﴾ أي ذات بهجة وحسن، وإشراق ونضارة.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي رضيت بعملها وطاعتها، لمَّا رأت ما أدَّاها إليه من الكرامة، وأورثها الفردوس الأعلى، فحُقَّ لها أن ترضى.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي هم في حدائق وبساتين، مرتفعة قدراً ومكاناً.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾.

﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ أي الوجوه ﴿فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي في الجنة كلمةً ذات لغو، فإن كلامهم أذكارٌ وحِكَم، والجنة دار الطهر والسلام.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي فيها عيون كثيرة، يجري ماؤها ولا ينقطع.

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ رفيعة القدر، مكلَّلة بالزبرجد والياقوت، عليها الحور العين ينتظرن أزواجهن.

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ بين أيديهم معدة للشرب.

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ أي وسائد يستندون إليها للراحة، جمع نُمرقة ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها إلى جنب بعض، مساند ومطارح، أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة، واستند إلى أخرى.

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ أي بُسُطٌ عِرَاضٌ فاخرة جمع زربية وهي شبه الطنافس ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أي مبسوطة في أنحاء الجنة.

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾؟ لمَّا نعت الله تعالى ما في هذه السورة، عجِبَ من ذلك الكفرةُ وكذّبوه، فذكّرهم الله عجائب صنعه فقال: ﴿أفلا ينظرون﴾ أي نظر اعتبار، والهمزة للإنكار والتوبيخ ﴿ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ خلقاً دالاً

على قدرته تعالى، معدولاً به عن سنن خلقه سائر الحيوانات، في عظم جثتها، وشدة قوتها، وعجيب هيئتها، يتأتى ما يصدر عنها، من الأفاعيل الشاقة، كحملها الأحمال الثقيلة، والقيام بها بما يعجز عنه العصبة أولو القوة، ثم صبرها على الجوع والعطش، وتحتمل العطش إلى عشرٍ فصاعداً، واكتفائها باليسير، ورعيها بكل ما يتيسَّر، وانقيادها للإنسان، حيث يستعملها كل صغير وكبير.

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴾ أي بلا عمد بحيث لا يناله الفهم والإدراك.

﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴾ نصباً رصيناً لا تميل ولا تميد.

﴿ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ تمهيداً وتسويةً، حسبما يقتضيه صلاح أمور الخلائق، والمعنى: أفلا ينظرون نظر التدبُّر والاعتبار، إلى كيفية خلق هذه المخلوقات، الشاهدة بحقيقة البعث والنشور، ليرجعوا عما هم عليه من الإنكار، وتخصيص هذه الأربعة بالاعتبار، لأن هذا خطاب للعرب أولاً، وأكثرهم يكون في البوادي، لا يرون سوى هذه الأشياء.

﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ فَذَكِّرۡ ﴾ أي فعظهم يا محمد وخوِّفهم بآي الذكر الحكيم، واقتصر على التذكير، ولا تلحَّ عليهم، ولا يهمنَّك أنهم لا ينظرون ولا يتذكرون ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾ ليس عليك إلا التبليغ.

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد.

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ استثناء منقطع، أي لكنْ من تولى منهم، وأعرض عن الوعظ والتذكير، وكفر بالله العلي القدير.

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ أي عذاب الآخرة، ويُحرقه بنار جهنم الكبرى.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي رجوعهم بعد الموت لا إلى أحدٍ سوانا.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ فنحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم جزاء أمثالهم، و«على» لتأكيد الوعيد، لا للوجوب، إذ لا يجب على الله شيء والله تعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية»

* * *

سُورَةُ الفَجْرِ

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾.

﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، وهو الصبح، أو بصلاة الفجر، وهذا كقوله تعالى: ﴿والصبح إذا أسفر﴾ ﴿والصبح إذا تنفس﴾ ﴿والنهار إذا تجلَّى﴾ أقسم الله به، لما يحصل فيه من انقضاء الليل، وظهور الضوء، وانتشار الناس والحيوانات، في طلب الأرزاق، وذلك يشبه نشر الموتى من قبورهم، وفيه عبرة لمن تأمل.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أي عشر ذي الحجة، أو العشر الأوائل من محرم، أو العشر الآواخر من رمضان، وتنكيرها للتفخيم.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ شفع كل الأشياء ووترها، والشَّفع معناه: الزوجُ، والوترُ: الفردُ، والأشياء كلُّها إمَّا شفعٌ، وإمَّا وتر، فكأنه تعالى أقسم بجميع الأشياء.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ إذا يمضي، والتقييد بذلك، لما في التعاقب من قوة الدلالة، على كمال القدرة ووفور النعمة، وقيل معنى ﴿يَسۡرِ﴾ يُسرى فيه، كما يقال: ليل نائم أي ينام فيه.

﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ ﴾.

﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما أقسمت به من هذه الأشياء، وهذا تحقيق وتقدير لفخامة شأن المقسم به، وتنبيه على أنه خليق بأن يؤكد به الإخبار، على طريقة قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ ﴿ قَسَمٞ﴾ أي مقسم به ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ أي عقل، سمي به لأنه يحجر صاحبه، أي يمنعه عن فعل القبيح، كما سمي عَقلاً، ونُهية، أي هل في القسم بهذه الأشياء، قسم مقنع لذي عقل؟ والمقسم عليه محذوف وهو «ليعذبن» يدلُّ عليه ﴿ألم تر كيف فعل﴾ إلى ﴿فصبَّ عليهم﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ وإن كان في الظاهر خطاباً للنبي ﷺ، لكنه عام لكل من عَلِم ذلك، أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً يقينياً، كيف عذب ربك عاد، فيعذب هؤلاء أيضاً؟ وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم، لأن أخبار عادٍ، وثمود، وفرعون، كانت منقولة بالتواتر، والعلم الضروري جار مجرى الرؤية ﴿ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ أي صنيع ربك ﴿ بِعَادٍ﴾ يعني قوم عاد الجبارين.

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ﴾.

﴿ إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد، على تقدير مضاف، أي سبط إرم، للإيذان بأنهم عاد الأولى، الأقوياء الأشداء ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ أي ذات البناء الرفيع الطويل، القائم على الأعمدة الضخمة.

﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ ﴾.

﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ أي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم وشدتهم، وضخامة أجسامهم، روي أنه كان لعاد ابنان «شديد» و «شدَّاد» فمَلَكا ثم مات شديد، وخلص الأمر لشدَّاد، فسمع بذكر الجنة، فبنى إرم في صحارى عدن، وسماها إرم، فلمَّا تمت سار إليها بأهله، فلما كان منها على مسيرة يوم، بعث الله صيحة من السماء فهلكوا.

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ ﴾.

﴿ وَثَمُودَ ﴾ عطف على عاد ﴿ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ ﴾ أي قطعوا صخور الجبال، واتخذوه بيوتاً، قيل: أول من نحت الجبال والصخور ثمود، كقوله تعالى: ﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾. ﴿ بِٱلۡوَادِ ﴾ أي نقبوا الصخر بوادي القرى.

﴿ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَفِرۡعَوۡنَ ﴾ أي وكيف أهلك فرعون ﴿ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴾ أي ذي الجنود الكثيرة، وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها، كما فعل بآسية حين آمنت.

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ أي طغى كل واحد منهم في بلادهم، وكذا الكلام في قوله تعالى:

﴿ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ ﴾.

﴿ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴾ بالكفر، والقتل، والظلم.

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾.

﴿فَصَبَّ﴾ أي فأنزل عاجلاً ﴿عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ وهو عبارة عما حلَّ بكل منهم من فنون العذاب، وتسميته سوطاً، للإشارة إلى أن ذلك بالنسبة إلى ما أُعدَّ لهم في الآخرة، بمنزلة السوط عند السيف، والتعبير عن إنزاله بالصبِّ، للإيذان بكثرته، واستمراره وتتابعه، فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ المِرْصادُ: هو المكان الذي يترقب فيه الإنسان عدوه، ويرصده للفتك به، واسم الفاعل راصد، وهو تمثيل لإرصاده العباد وأنه عالم بما يصدر منهم، وحافظه ويجازيهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه إشارة إلى أن كفار قومه ﷺ، سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب.

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ متصل بما قبله كأنه قيل: إنه تعالى بصدد مراقبة عباده، فأما الإنسان فلا يهمه ذلك، وإنما مطمح أنظاره الدنيا ولذائذها ﴿إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ اختبره بالغنى واليسر ﴿رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ بالمال ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بما وسَّع عليه ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ فضَّلني بما أعطاني من المال والجاه[1]، حسبما كنت أستحقُّه، ولا يخطر بباله، أنه فضلٌ تفضَّل به عليه، ليبلوه أيشكر أم يكفر؟.

---

(١) لا يقول ذلك شكراً لله، واعترافاً بالنعمة، وإنما يقوله مفتخراً به على غيره، ومستدلاً به على علوّ منزلته، كما قال قارون ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ فهو قول يراد به الاعتزاز والافتخار، لا شكر الجبار.

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ ﴾ بالفقر ﴿ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ ﴾ فضيَّق عليه ﴿ رِزۡقَهُۥ ﴾ معيشته ﴿ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴾ بالفقر، وضيق المعيشة، ولا يخطر بباله أن ذلك ليبلوه أيصبر أم يجزع، مع أنه ليس من الإهانة في شيء، بل التقتير والتضييق قد يؤدى إلى كرامة الدارين، والتوسعة وقد تفضي إلى خسرانهما، وحصول النعمة في الدنيا وآلامها، لا يدل على الاستحقاق، فإنه تعالى كثيراً ما يوسِّع على العصاة والكفرة، على سبيل الاستدراج، وقد يضيِّق على الصدِّيقين لما ادَّخره لهم في الآخرة، والحقيقة لا يطّلع عليها إلا الله.

﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ كَلَّاۖ ﴾ ردعٌ للإنسان عن مقالته المحكية، وتكذيب له في كلتا الحالتين، أي ليس الإكرام والإهانةُ في كثرة المال وقلَّته، بل الإكرام في التوفيق للطاعة، والإهانة في الخذلان ﴿ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴾ الالتفاتُ إلى الخطاب، للإيذان باقتضاء جنايته لمشافهته بالتوبيخ، وتشديد التقريع، أي بل لكم أحوال أشدُّ شراً مما ذكر، وأدل على تهالككم على المال، حيث يكرمكم الله بكثرة المال، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم.

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ ﴾ ولا تحثون أنفسكم وغيركم ﴿ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ أي على إطعامه.

﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ ﴾ أي الميراث ﴿ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴾ اللَّمُّ مصدر بمعنى أكلاً لاماً، أي أكلاً بشره وأصلُ اللمِّ الجمعُ، ومنه قولهم: لمَّ الله شمله

أي جمع عليه شمله، أي تأكلون الميراث أكلاً شديداً، تجمعون فيه بين الحلال والحرام، فقد كانوا لا يورِّثون النساء، ولا الصبيان، ويأكلون ميراثهم مع ما ورثوه من أقاربهم، وآكل اللمم هو الذي يأكل كل شيء يجده، لا يسأل أحلال أم حرام؟ وهو ذمٌ لهم على الشراهة على المال.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص والشهرة، وقصر الهمة على تحصيلها والاتكال عليه، يقال: جمَّ الشيء: كثر، فهو جمٌّ، ومال جمٌّ أي كثير.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١)﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك، وإنكار لفعلهم أي لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي إذا زلزلت دكاً بعد دك أي كرر عليها الدك حتى عادت هباءً منبثاً، وذلك عند النفخة الثانية، أي إذا دُقَّت وكسرت مَرّة بعد مرة أخرى.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)﴾.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي تنزل ملائكة السماء، فيصطفُّون صفاً بعد صف، محدقين بالجن والإنس.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣)﴾.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ قيل إنها برزت لأهلها، كقوله تعالى: ﴿وبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي

يتذكر ما فرط منه بمشاهدة آثاره، فيقول: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ وأين له منفعة الذكرى وقد فات أوانها؟.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ يقول يا ليتني عملت لأجل حياتي هذه، أو وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة أنتفع بها اليوم.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي كعذابه ﴿أَحَدٌ﴾ أي لا يتولى عذاب الله أحد، لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي كعذابه تعالى في الشدة، والضمير لله تعالى، أو للإنسان وهو الكافر، أي لا يُعذب أحد من مثل ما يعذبه الكافر، فإن عذاب الله له شديد ﴿والله شديد العقاب﴾.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾ حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله تعالى، إثر حكاية أحوال من اطمأن بالدنيا ﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة التي سكنها ثلج اليقين، فلا يخالجها شك، وصفت هنا بالاطمئنان، لأنها تترقى في معارج الأسباب، إلى ربّ الأرباب، فتكون بجوار قدسه، أي يقول الله تعالى ذلك على لسان الملك عند تمام الحساب، واعلم أن الله تعالى ذكر النفس في القرآن تارة مطلقاً، وتارة وصَفَها بالسوء، وتارة باللّوامة، وتارةً بالمطمئنة.

﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي ارجعي إلى ثواب ربك وجنته، حال كونك ﴿رَاضِيَةٗ﴾ من الله تعالى بما أوتيتِ من النعيم المقيم ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ عند الله تعالى بما عملتِ.

﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي في زمرة عبادي، أي انضمي إلى عبادي المقربين.

﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم وانتظمي في سلك المقرَّبين ﴿مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً﴾ واستضيئي بأنوارهم القدسية، وهذا تكريم لهم من الله عظيم، بدخول جنات النعيم، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفجر»

* * *

سُورَةُ البَلَدِ

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ اقسم سبحانه وتعالى بالبلد الحرام وهي مكة في قول جميع المفسرين، لأن الله تعالى جعلها حرماً آمناً، وجعل البيت قبلة لأهل المشرق والمغرب، وأمر الناس بحج ذلك البيت، وحرّم فيه الصيد، فهذه الفضائل لمَّا اجتمعت في مكة أقسم الله بها.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ قيّده بحلوله ﷺ، إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأنَّ شرف المكان بشرف أهله، ولبيان أنه ﷺ مع جلالة قدره، وعظم حرمته، قد استحلوا إيذاءه في هذا البلد الحرام، وتعرضوا له بما لا خير فيه.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ الوالد آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذريته وقيل:

المراد العموم، أيّ أقسم لكم بكل والد ومولود، وهذا حسنٌ لأنه مضمون الجواب، من حيث شموله للكل أقسم تعالى بآدم وذريته، إذ هم أعجب خلق الله على وجه الأرض، لما فيهم من البيان، والنطق، والتدبير، واستخراج العلوم والفنون.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ أي في تعبٍ ومشقة، فإنه لا يزال يقاسي فنون الشدائد، والكَبَدُ بفتحتين: المشقّةُ، وهو تسلية لرسول الله ﷺ ممّا كان يكابده من كفار قريش والإنسان لا يزال في الشدائد، مبدؤها الرحم، ومنتهاها الموت.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، والضمير لبعض صناديد قريش، الذين كان ﷺ يكابد منهم ما يكابد، كالوليد وأضرابه، وقيل: يراد به أبو الأشدِّ بن كِلْدة، وكان شديد القوة، مغتراً بقوته وكان يبسط له الأديم ـ الجلد ـ فيقوم عليه، ويقول من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة فينقطع الأديم قطعاً ولا تزلُّ قدماه، والمعنى: أيظن هذا الأحمق أن لن تقوم القيامة ولن يقدر أحد على الانتقام منه.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

﴿يَقُولُ﴾ أي يقول ذلك الصنديد ﴿أَهْلَكْتُ﴾ أنفقت ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أي كثيراً، جمع لبدة، وهو ما تلبّد من شعرٍ أو صوف والمراد ما أنفقه سمعة ومفاخرة ومعاداةً للرسول ﷺ.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق، يعني أيظن أنَّ الله لم يره، ولن يسأله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨﴾.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾؟ يبصر بهما.

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩﴾.

﴿وَلِسَانًا﴾ يعبّر به عما في ضميره ﴿وَشَفَتَيۡنِ﴾ يستر بهما ثغره، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب، والنفخ، وغيرها.

﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾.

﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي طريق الخير، والشر، المفضيَيْن إلى الجنة أو النار، وهذه الآية كالآية ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ الاقتحامُ: الدخول في الأمر الشديد، أي فلم يشكر تلك الأيادي باقتحام العقبة وهو الدخول في أمر شديد، عبَّر عنها بالعقبة، وهو الطريق في الجبل، لصعوبة سلوكها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ أي أيَّ شيء أعلمك ما اقتحام العقبة؟.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي هو إعتاق رقبة، فككت الأسير إذا خلصته من الرق، وكانت عادة العرب في الأسارى، شد رقابهم وأيديهم، فسمي إطلاق الأسير فكاكاً.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي ذا مجاعة.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي ذا قرابة، اجتمع حق اليتيم، والقرابة، فإطعامه أفضل.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ يعني قد لصق بالتراب من فقره، فالمعنى: إن الإنفاق على هذا الوجه، مرضي نافع عند الله، لا أن يهلك ماله في الرياء والفخار.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي كان مع ذلك مؤمناً، صادق الإيمان، فإنه إن لم يكن منهم، لم ينتفع بهذه الطاعات ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على الطاعات، وعلى المِحن التي تصيب الإنسان في حياته، فالدنيا ابتلاء ومحن، ولا يصبر على البلاء إلاَّ صادق الإيمان، وهذا يدل على أنه يجب على المرء أن يدل غيره على طريق الحق، ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما أمكنه ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ تحاثوا

﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ بالترحم على عباده فيما بينهم، إشارة إلى الشفقة على خلق الله، قال بعض المحققين: إن الأصل في التصوف أمران: صدقٌ مع الحق، وخُلُق مع الخلق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي اليمين الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بآيات القرآن، وكذبوا الرحمن، واستهزؤوا برسوله ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي الشمال أو الشؤم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ مطبقة، من أوصدتُ الباب إذا أطبقته وأغلقته، أي عليهم نار مغلقة مطبقة، لا يستطيعون الخروج منها، ولا الفكاك عنها، والله أعلم.

والصلاة والسلام على رسولنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد»

* * *

سورة الشمس

مكية وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أي ضوءها إذا أشرقت وهو أول وقت ارتفاع النهار، والضَّحوة مثله، جمعه ضُحى، مثل قرية وقرى.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي تبعها في الضياء والنور، وذلك بعد غروبها في النصف الأول من الشهر، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة، ثم يكبر ويكبر حتى يصبح بدراً منيراً.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي جلَّى الشمسَ: أظهرها للرائين، أو جلَّى ظلمة الليل بنوره وضيائه الباهر، فجعل الأرض منيرة ساطعة، بعد أن كانت مظلمة قاتمة والظاهر أنَّ الضمير في ﴿جَلَّاهَا﴾ عائد إلى الشمس، لأن

النهار عبارة عن نور الشمس، فكلما كان النهار أوضح كانت الشمس أجلى ظهوراً، لأن قوة الأثر تدل على قوة المؤثر.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ أي الشمس فيغطي ضوءها، أو الآفاق أو الأرض.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي ومن بناها، وإنما أوثرت «ما» على «من» لإرادة معنى الوصف كأنه قيل والشيء القادر الذي بناها، فإن قيل: ما الفائدة في ذكره هذه الأوصاف؟ فالجواب أنه تعالى لما وصف الشمس بالصفات التي تدل على عظمتها، أتبعه بيان ما يدلُّ على حدوثها، وحدوث جميع الأجرام السماوية، فنبه تعالى على تلك الدلالة بهذه الأوصاف.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي بسطها وسطحها، فجعل فيها السهول الفسيحة، وجعلها ممتدة ممهّدة صالحة لسكنى الإنسان مع أنها كروية الشكل.

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي عدَّل خلقها، وتنكير نفس للتكثير، وقيل «ما» بمعنى المصدر، أي والسماء وبنائها، والأرض وبسطِها، والقول الأول هو الأصح والأظهر، لأن الله أقسم بالمخلوق والخالق، فأقسم بهذه الأشياء العظام لأنها تدل على عظمة خالقها.

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي فأعلمها طاعتها، ومعصيتها، أي أفهمها أن أحدهما حسن، والآخر قبيح، ومكَّنها من اختيار أيهما شاءت، وتقديم الفجور لمراعاة الفواصل، والتعليمُ والتفهيم غير الإلهام، فالإلهام مستعملٌ فيما يقذفه الله تعالى في قلب العبد، لأنه كالإبلاغ، فالإلهام أن يوقع الله في قلب العبد شيئاً.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ أي فاز وأفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وأعلاها بالتقوى، وهو جواب القسم.

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ أي خسر وخاب، وتكرار «قد» لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه ﴿ مَن دَسَّاهَا ﴾ أي من نقَّصها وأخفاها بالفجور، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها»(١).

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أي بطغيانها، إذ الحامل لهم على التكذيب طغيانهم.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الذكر رقم ٢٧٢٢ ولفظه «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها..» الحديث، وأخرجه النسائي في الاستعاذة ٨/ ٢٦٠ والترمذي في الدعوات رقم ٣٥٦٧.

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ ﴾ أي حين قام بعقر الناقة ﴿ أَشۡقَىٰهَا ﴾ أشقى ثمود وهو «قُدار بن سالف» ويُضرب به المثل يقال: أشأمُ من قُدار، وهذا يتأكد بقوله تعالى: ﴿فتَعَاطَىٰ فعَقَرَ﴾ هو ومن تصدّى معه لعقر الناقة من الأشقياء، فإن أفعل التفضيل إذا أُضيف، يصلح للواحد والمتعدّد وهذا يؤكد بقوله تعالى: ﴿فعَقَرُوهَا﴾.

﴿ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أي رسول الله صالح عليه السلام، لمّا همُّوا بعقرها، قال لهم ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ أي احذروا ناقة الله فلا تمسُّوها بسوء، وأضيفت إلى الله، لأنها آية دالة على توحيده، وعلى نبوة رسوله صالح عليه السلام ﴿ وَسُقۡيَٰهَا﴾ أي واحذروا أن تمنعوها من شربها ﴿لها شِرْبٌ ولكم شربٌ يوم معلوم﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي في وعيده بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿ فَعَقَرُوهَا﴾ أي ضربوا قوائمها بالسيف فقتلوها، وأسند القتلُ إليهم لرضاهم به ﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم ﴾ أي فأطبق الله عليهم العذاب، ويقال: دمدمت عليه أي سوَّيتُ عليه، الأرض، أي أهلكهم الله هلاك استئصال ﴿بِذَنۢبِهِمۡ ﴾ بسبب ذنبهم المحكي عنهم، والتصريحُ بذلك، مع دلالة الفاء عليه، للإنذار بعاقبة الذنب، ليعتبر به كل مذنب ﴿ فَسَوَّىٰهَا﴾ أي الدمدمة بينهم، فلم يفلت منهم أحد، من صغير وكبير.

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ أي عاقبتها، كما يخاف سائر المعاقِبِين، وذلك أنه تعالى لا يفعل فعلا إلاّ بحق، وكلٌّ من فعل بحقّ، فإنه لا يخاف عاقبة فعله، ثم إنه تعالى عظيم كبير يفعل ما يشاء ﴿لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ وهم يُسْألونَ﴾، والله أعلم بمراده.

وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس»

* * *

سُورَةُ اللَّيلِ

مكية وهي إحدى وعشرون آية

قيل نزلت هذه السورة في أبي بكر رضي الله عنه وإنفاقه، وفي أمية بن خلف وبخله وكفره لكن معانيها عامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ أي يغشى الشمس أو النهار، أو كل ما يواريه ظلامه، أقسم الله بالليل لأنه سَكَنٌ لكافة الخلق.

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ تبين بطلوع الشمس.

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ أي والقادر العظيم القدرة، الذي قدر على خلق الذكر والأنثى، من ماء واحد، والذَّكرُ والأنثى يتناول جميع ذوي الأرواح، لأن كل حيوان إما ذكرٌ أو أنثى.

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ هذا جواب القسم، وشتَّى جمع شتيت، مثل مرضى ومريض، أي مختلفة في الخير وفي الشر.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ أي أعطى حقوق ماله ﴿ وَاتَّقَىٰ ﴾ ربه فاجتنب محارمه.

﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ بالملة الحسنى وهي ملة الإسلام، وآمن بلقاء الله والجنة.

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ فسنهيئه في الدنيا ﴿ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ وهو العمل بما يرضاه ربه، وللخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة، والأعمال بالعواقب، فكلُّ ما أدت عاقبته إلى يسر وراحة، فإن ذلك من اليسرى، وكلُّ ما أدت عاقبته إلى عسر فهو من العسرى.

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ بماله فلم يبذله في سبيل الخير ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ ﴾ أي زهد فيما عنده تعالى، كأنه مستغنى عنه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة.

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي وكذَّب بالجنة ونعيمها وبلقاء الله.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة، كدخول النار ومقدماته لاختياره لها، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة فقال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة»، فقالوا: يا رسول الله: أفلا نَتَّكِلُ على كتابنا، ونَدَعِ العمل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فيصير لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فيصير لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتَّقىٰ. وصَدَّق بالحُسْنَىٰ. فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسْرَىٰ...﴾»[1] الآيات.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ﴾ أي أيُّ شيء يغني عنه ماله؟ وهو استفهام إنكاري ﴿مَالُهُۥٓ﴾ الذي يبخل به ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي إذا هلك وتردى في قعر جهنم؟ ما الذي ينفعه ماله الذي بخل به وتركه لوارثه؟ كما قال الله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إنَّ علينا أن نبين لهم طريق الهدى، وما يؤدي إليه، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه، حيث بيّنّا حال من سلك طريق الهداية، وطريق الضلالة، ترغيباً وترهيباً.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣/٢١٦.

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ أي لنا ما في الدنيا والآخرة، والتصرف فيهما، كيفما نشاء، فنفعل فيهما ما نشاء.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ أي خوفتكم ﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ أي تتلظى، يعني تتلهَّب وتتوقَّد.

﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ لَا يَصْلَاهَا ﴾ أي لا يلزمها مقاسياً شدتها ﴿ إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أي الكافر، فإن الفاسق وإن دخلها لم يلزمها.

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي كذب الرسل، وأعرض عن الإيمان والطاعة.

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ وسيبعد عنها ﴿ الْأَتْقَى ﴾ أي المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي، فلا يحوم حولها فضلاً عن دخولها.

﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ ﴾ للفقراء ومصارف الخير ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء، وسمعة.

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ ﴾.

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴾ أي ليس لأحد عنده نعمة، من شأنها أن تُجزى وتُكافأ، فيقصد بإيتاء ما يؤتي مجازاتها.

﴿ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ استثناء منقطع، أي إلا أن يفعل فعلاً يبتغي به وجه ربه، فيجازى عليه، أي ما ينفق إلا ابتغاء وجه الله وطلباً لمرضاته.

﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١ ﴾.

﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ وعد بالثواب الذي يرضيه وهو كقوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ أي وبالله لسوف يرضى، وهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه، على أكمل الوجوه، إذ به يتحقق الرضا. وأجمع المفسرون من أهل السنة، على أن المراد من الأتقى هو «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه، والشيعة بأسرهم يقولون هو «علي بن أبي طالب»، ولا يمكن حملها على علي، لأنه قال في وصف هذا الأتقى ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ وهذا لا يصدق على علي، لأنه كان في تربية النبي ﷺ لأنه أخذه من أبيه، وكان يطعمه ويسقيه، ويكسوه ويربيّه، وكان ﷺ منعماً عليه نعمة يجب جزاؤها، أما أبو بكر فلم يكن للنبي ﷺ عليه نعمة دنيوية، بل أبو بكر كان ينفق على الرسول ﷺ، فثبت أن الآيات نزلت في أبي بكر لا في علي رضي الله عنهما جميعاً، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل»

* * *

سُورَةُ الضُّحَىٰ

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ①﴾.

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ المراد به وقت الضحى، وهو وقت ارتفاع الشمس، وصدر النهار وقيل: أريد به النهار، بدليل قوله تعالى: ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ في مقابلة ﴿بياتا﴾.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي إذا اشتد ظلامه، وغطَّى كل شيء بظلامه، وهدأت فيه الأصوات.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ جواب القسم أي ما تركك ربك منذ اختارك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي وما أبغضك منذ أحبك، روي أن الوحي تأخر عن رسول الله ﷺ أياماً، فقال المشركون: إن محمداً ودَّعه ربُّه وقلاه، فنزلت السورة رداً عليهم، وتبشيراً له ﷺ بالكرامة، روي عن جندب بن سفيان البَجَلي قال:

اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أنْ يكون شيطانك قد تَرَكك، لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل ﴿والضحى﴾[1] السورة.

والمرأة في الحديث هي العوراء امرأة أبي لهب، وتُدعى أم جميل.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي ما وعد الله لك في الآخرة، من المقام المحمود، والخير الموعود، خير مما أعجبك في الدنيا، فإنها باقية خالصة عن الشوائب، وهذه فانية مشوبة بالمضار، ثم ما أُوتي ﷺ من شرف النبوة لا يعادله شرف، ولا يدانيه فضل، وقيل: المراد بالآخرة عاقبة أمره ﷺ، أي نهاية أمرك خيرٌ من بدايته، لا تزال تتزايد قوة، كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عزِّه[2].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ عِدَةٌ كريمة، شاملة لما أعطاه الله تعالى في الدنيا، من كمال النفس، وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٣/٢١٧، وقد ذكر اسمها الحافظ ابن كثير في تفسيره، وهي في رواية ابن أبي حاتم.

(٢) انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ مدة من الزمن، فيه لطفٌ بالنبي الكريم، كما أن انقطاع نور الشمس بالليل عن الناس، فيه لطف بالبشر، حيث يخلد الناس إلى الراحة والهدوء، وكما أن غياب الشمس لا يكون على الدوام، بل يعقبه نور الصباح، كذلك أمر الوحي، فهو إبطاء يعقبه عود وازدياد، فلذلك أقسم الله بالضحى، وهو وقت الإشراق والنور، وبالليل وهو وقت اشتداد الظلام، ووقت التهجد والتقرب من الحيّ القيوم، فالأمر إذاً علوُّ شرف، وازدياد حب، وإشراق بعد ظلمة ليل دامس، ليشرق قلب النبي عليه الصلاة والسلام بأنواع الوحي الإلهي، ونوره الوضّاء، ويزداد شوقاً إلى اللقاء.

وإعلاء الدين، بالفتوحات الواقعة في عصره ﷺ، وفي أيام خلفائه وفشو الدعوة والإسلام، في مشارق الأرض ومغاربها، وفي الآخرة من الثواب، ومقام الشفاعة، والأحاديث الواردة في الشفاعة، دالة على أن رضى الرسول ﷺ إنما هو في العفو عن أمته المذنبين.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾؟ ألم تكن يتيماً حين مات أبوك فآواك؟ فقد مات أبوه عبد الله فكفله جده عبد المطلب، فلما مات عبد المطلب، كفله عمه «أبو طالب» إلى أن قوي واشتد، وتزوَّج خديجة رضي الله عنها، وذلك إيواؤه تعالى له.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾ أي غير عالم، ولا واقف على معالم النبوَّة، وأحكام الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكِتاب﴾ الآية، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ضلَّ في شعاب مكة، وهو صبي صغير، فرآه أحد الناس فردَّه إلى جده، ولا يجوز أن يفهم به عدول عن الحق، ووقوع في غيٍّ، لأنه ﷺ كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذورات أهل الفسق والعصيان ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ فعرَّفك القرآن والشرائع.

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾.

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أي فقيراً والعَيْلةُ بالفتح: الفقر، وهي مصدر يعيل، فهو عائل، فقد أغناه الله بمال خديجة، وبما حصل من ربح التجارة.

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ فلا تغلبْه على مالِهِ لضعفه، ولا تحقره.

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ فلا تزجره فابذل قليلاً، أو ردَّ جميلاً، قال ابن أدهم: نِعْمَ القومُ السائلون، يحملون زادنا إلى الآخرة، وقال إبراهيم النخعي: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم، فيقول: أتبعثون إلى أهليكم بشيء؟ وقيل: المراد بالسائل ههنا الذي يسأل عن الدين.

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي بشكرها وإشاعتها، وإظهار آثارها، وأحكامها(١)، وأريد بها ما أفاضه الله تعالى عليه، من فنون النعم، التي من جملتها ومعظمها «نعمة النبوة» فقد اندرج تحت الأمر تعليمه للشرائع والأحكام، حسبما هداه الله تعالى إليه، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الضحى»

* * *

---

(١) أنعم الله على عبده ورسوله محمد ﷺ بنعم ثلاثة، وأوصاه بوصايا ثلاث مقابلها:
الأولى: قوله سبحانه: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ وقابلها بالوصية بقوله: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾.
الثانية: قوله سبحانه: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ وقابلها بقوله: ﴿وأما بنعمة ربك فحدِّث﴾.
الثالثة: قوله سبحانه: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ وقابلها بقوله: ﴿وأمّا السائل فلا تنهر﴾. وكأن الآيات الكريمة تقول: كنت يتيماً، وضالاً، وعائلاً، فآواك الله، وهداك، وأغناك، فتعطَّفْ على اليتيم، وترَّحمْ على السائل، وأرشد الضالين إلى طريق الرشاد!!.

سُورَةُ الشَّرْح

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؟ لمَّا كان الصدر محلاً لأحوال النفس، ومخزناً لسرائرها، من العلوم والإدراكات، عبَّر بشرحه عن توسيع دائرة تصرفاتها، بتأييدها بالقوة القدسية، وتحليتها بالكمالات الإنسية، أي ألم نفسحه حتى حوى عالمي الغيب والشهادة، وجمع بين ملكتَيْ الاستفادة، والإفادة، وقيل أريد به ما روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في صباه، فاستخرج قلبه، فغسله! الحديث. روى مسلم عن أنس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج منه عَلَقة، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده إلى مكانه»[1] الحديث، لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير بلى، وزيادة الجار والمجرور «لك» للإيذان بأن الشرح لمنافعه ﷺ ومصالحه، فكأنه قيل

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٢٦١.

شرحنا، فإن قيل: هذه من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته ﷺ؟ فالجواب: تقديم المعجز على زمان البعثة جائز، وهو المسمى بالإرهاص، والقول الأول أن الشرح هو تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، هو المراد بالآية الكريمة على ما ذهب إليه الجمهور.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وخففْنا عنك أعباء النبوة، عطف على ما أشير إليه، كأنه قيل: قد شرحنا صدرك، ووضعنا عنك وزرك أي الحمل الثقيل.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثقله حتى سمع نقيضه، وهو صوتُ الرَّحْل عند الانتقاض من ثقل الحمل، مثَّل به حاله ﷺ مما كان يثقل عليه ويغمُّه، من هموم وأكدار، بسبب تفجعه على عدم إيمان قومه، بالحمل الثقيل الذي يُقصم له الظهر.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بأن قرنّاه بذكر الله في كلمة الشهادة، فلا يُذكر الله إلا ويذكر معه الرسول، وملأنا العالم من أتباعك، كلهم يثنون عليك، ويحفظون سنتك، فذكرك وشرفُك باقٍ إلى يوم القيامة.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تقرير لما قبله، ووعدٌ كريم، بتيسير كل عسير له ﷺ، وللمؤمنين، وفي كلمة «مع» إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنه مقارنٌ للعسر.

﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ تكرار للتأكيد أو عدة مستأنفة كثواب الآخرة.

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من دعوة الخلق إلى الله ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ أي فاجتهد في عبادة ربك، شكراً لما عدَّدنا عليك من النعم السابقة، وقيل إذا فرغت من صلاتك، فاجتهد في الدعاء.

﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ وحده ﴿ فَٱرْغَب ﴾ بالسؤال منه ولا تسأل غيره، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشراح»

* * *

سُورَةُ التِّينْ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار، التين فاكهة طيبة لا فاضل لها، وغذاء لطيف، سريع الهضم، ودواء كثير النفع، أما الزيتون فهو فاكهة وإدام، ودواء، وقيل: هما جبلان من الأرض المقدسة، والصحيح هو الأول، قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه، يقال: سينين، وسيناء، عَلَمان للموضع الذي هو فيه، وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أمانته أنه يحفظ من دخله، كما يحفظ الأمين ما

يُؤتمن عليه، وهي مكة شرفها الله تعالى، وحرسها، كما وصفها الله تعالى بقوله ﴿حرماً آمناً﴾ بمعنى ذي أمن.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ جواب القسم، أي جنس الإنسان في أحسن ما يكون، من التقويم والتعديل، صورة ومعنى حيث برأه الله تعالى: مستوي القامة، متناسب الأعضاء، متصفاً بالحياة والعلم، وعن يحيى بن أكثم أنه فسر «التقويم» بحسن الصورة.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥﴾.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ﴾ في الآخرة ﴿أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ أي جعلناه من أهل النار، الذين هم أقبح من كل قبيح، وأسفل من كل سافل، لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات، وقيل: رددناه إلى أرذل العمر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فهم لا يُردُّون إلى أسفل السافلين ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير منقطع، على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى بالشيخوخة والهرم، أو لا يُمنُّ به عليهم.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي فأي شيء يكذبك أيها الإنسان بالبعث؟ ﴿بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أي بعد ظهور هذه الدلالة الناطقة بالحساب والجزاء؟ وظهور الدلائل والبراهين عليه؟.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أليس الذي فعل ما ذُكر، بأحكم الحاكمين، صنعاً، وتدبيراً، حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء؟ فهي وعيد للكفار، وأنه تعالى يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التين»

* * *

سُورَةُ العَلَق

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾.

﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أي ما يوحى إليك، فإن الأمر بالقراءة يقتضي المقروء قطعاً وهذه السورة أول ما نزل من القرآن، إلى قوله تعالى ﴿علَّم الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ كما ينطق به حديث عائشة المتفق عليه المشهور ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ مفتتحاً باسمه تعالى، أو مستعيناً به، كأنه قيل: قل باسم الله ثم أقرأ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي الذي حصل منه الخلق، لا خالق سواه، أو خلق كل شيء، وصف الرب بهذا الوصف، لتذكير الناس، أول النعماء الفائضة، والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان، على ما هو عليه من الحياة، وما يتبعها من الكمالات، قادر على تعليم القراءة للحيّ، العالم المتكلم.

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إفراد ما هو أشرف وأظهر صنعاً وتدبيراً، لاستقلاله ببدائع صنعه ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ أي دم جامد يشبه الدودة الصغيرة «العلقة»، وتخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية، مع كون النطفة،

والتراب، أذل منه، لبيان كمال قدرته تعالى، بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة، من التباين البيِّن، ولمراعاة الفواصل، ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه ﷺ منه تعالى، وأقدم الدلائل الدالة على وجوده تعالى، وصف ذاته بذلك، فقال تقدست أسماؤه ﴿الَّذي خَلَقَ﴾ أي خلق جميع المخلوقات.

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ٱقْرَأْ ﴾ تكرار للمبالغة ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ أي وربك العظيم الجليل الكريم، الذي لا يوازيه ولا يدانيه كريم، وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعاً: إمَّا مدحاً، أو ثواباً، أما الرب تعالى فإنه لا يفعله إلا لمحض الكرم.

﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ أي علَّم بواسطة القلم، فكما علَّم القارىء بواسطة الكتابة والقلم، يعلمك بدونهما، والقلم صياد يصيد العلوم، يبكي ويضحك، بركوعه يسجد الأنام، وبحركته تبقى العلوم على مر الأيام، القلم قِوام الإنسان، وقوام العالم، فسبحانه من قادر بسوادِهِ جعل الدين منوّراً، كما أنه جعلك بالسواد مُبْصِراً.

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ أي علم الإنسان به وبدونه، من الأمور الكلية والجزئية، والجلية والخفية، ما لم يخطر بباله، وفي حذف المفعول من الدلالة على كمال قدرته تعالى، وكمال كرمه، والإشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم، ما لا تحيط به العقول، وما لا يخفى.

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ ﴿كلا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله، للمبالغة في الزجر، وقوله تعالى ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ بيان للمردوع، وهذا إلى آخر السورة نزل في «أبي جهل» وهو الظاهر ﴿ليطغى﴾ أي ليجاوز الحَدَّ، ويستكبر على ربه، ويروى أنه قال: ليس بمكة أكرم مني، رداً لقوله تعالى: ﴿وربُّكَ الأكْرَمُ﴾ فبدل أن يشكر، يطغى ويفجر، وهذا شأن الكافر.

﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ أي يطغى لأنه رأى نفسه مستغنياً عن الله بالمال، وتعليل طغيانه برؤيته، لا بنفس الاستغناء، للإيذان بأن مدار طغيانه زعمُهُ الفاسد، بأن الله كما أغناه في الدنيا، سوف يغنيه في الآخرة، إن كان هناك عودة ورجوع.

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان، والالتفات للتشديد في التهديد، والرجعى مصدر بمعنى الرجوع، كالبشرى، أي إن إلى ربك رجوع الكل، بالموت والبعث، لا إلى غيره، فسترى حينئذ عاقبة الطغيان. فإن قيل: قال الله لموسى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ وذكر في أبي جهل ﴿ليطغى﴾ فأكَّده باللام فما السرُّ؟ الجواب: إن فرعون بسلطنته ما كان ليتعرض لقتل موسى، وأما أبو جهل مع قلة جاهه كان يقصد قتل الرسول ﷺ فزاد في الطغيان على فرعون الأحمق.

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ أي أرأيتَ أبا جهل ينهى النبي ﷺ عن الصلاة؟ وهذا تقبيح لحاله، وتعجيب منها، وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة، بحيث يجب أن يراها كل من يأتي منه الرؤية، ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه ﷺ، والرؤية هنا بصرية، أخرج البخاري عن ابن عباس قال: قال «أبو جهل» لئن رأيتُ محمداً يصلّي عند البيت، لأطأن على عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة»[(١)] وهذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة، روي عن علي رضي الله عنه أنه رأى في المصلى أقواماً، يصلُّون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيتُ رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له: ألا تنهاهم عن هذا؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدَاً إِذَا صَلَّى﴾ وقال أبو يوسف لأبي حنيفة رحمه الله: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع اللهم اغفر لي» قال: يقول «ربنا لك الحمد» ويسجد، ولم يصرِّح له بالنهي خشية النهي عن الخير.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١﴾.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي إن كان ذلك العبد على طريقة سديدة، فيما ينهى عنه من عبادة الأوثان، والدعوة لعبادة الرحمن.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أو كان آمراً بالمعروف والتقوى، داعياً إلى الهدى والرشاد، كيف تزجره وتنهاه؟.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٧٢٤.

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أي أخبرني إن كان ذلك الناهي مكذباً بالحق، متولياً عنه، والرؤية في الآيتين قلبية، معناها أخبرني، والخطاب لكل من يصلح للخطاب، والمعنى: أخبرني عن شأن ذلك الشقي الذي ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعن الطاعة كيف يكون مصيره؟.

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أي ألم يعلم بأن الله تعالى يطلع على أحواله، فيجازيه بها، حتى اجترأ على ما فعل؟.

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لأبي جهل، عن نهيه عن عبادة الله ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أي عما هو فيه، واللام للقسم، أي والله لئن لم ينته عن إجرامه وطغيانه ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ أي لنأخذنَّ بناصيته ولنسحبنَّه بها إلى النار، والسفعُ: القبضُ على الشيء، وجذبه بعنفٍ وشدة.

﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ نَاصِيَةٍ ﴾ بدل من الناصية ﴿ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ على الإسناد المجازي، أي صاحب هذه الناصية كاذب، فاجر، خاطىء أي كثير الذنوب والإجرام.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ أي فليدع هذا الشقي أهل ناديه ليعينوه، قال ابن عباس: واللهِ لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله.

﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ أي سندعو نحن خزنة جهنم ليجروه إلى النار، وهي في الأصل الشُّرَط، واحدها زبنية من الزبن، وهو الدفع، والمراد ملائكة العذاب.

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع للناهي أي ليس الأمر على ما هو عليه أبو جهل ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ واثبت أنت على طاعتك لله ﴿ وَٱسْجُدْ ﴾ وواظب على سجودك وصلاتك، غير مكترث به ﴿ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ وتقرب إلى ربك بالسجود، روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه عزَّ وجلَّ وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء»(١)، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العلق»

* * *

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٤٨٢ في الصلاة، وأبو داود رقم ٨٧٥، والنسائي ٢/٢٢٦.

سُورَةُ القَدْرِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم، إجلالاً لمحله، بإضماره كأنه حاضر في جميع الأذهان، وأسند إنزاله إلى نون العظمة المنبىء عن كمال العناية به، وتفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي ليلة تقدير الأمور وقضائها، والقدر بمعنى التقدير، أو سميت بذلك لشرفها على سائر الليالي، وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان، لما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يجاور العشر الأواخر من رمضان، ويقول: تحرَّوا ليلة القدر، في العشر الأواخر من رمضان[1]» وقال الحسن: هي ليلة سبعة عشر من رمضان، لأنها ليلة كانت صبيحتها وقعة بدر، والجمهور يرى أنها مختصة برمضان، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ﴾ واختلفوا في تعيينها قيل: هي الليلة

---

(١) أخرجه البخاري في التراويح والاعتكاف، ومسلم في الاعتكاف رقم (١١٨٣) ومالك في الموطأ ١/٣١٦.

الأولى، وقال الحسن السابعة عشرة، وعن أنس الحادية والعشرون، وقال محمد بن إسحق الثالثة والعشرون وقال أبي بن كعب وجماعة من الصحابة السابعة والعشرون، وهو المشهور. والمراد بإنزاله فيها، إما إنزاله كله إلى السماء الدنيا، كما روي عن ابن عباس، وإما ابتداء إنزاله كما نقل عن الشعبي.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾؟ أي لم تبلغ درايتك غاية فضلها، لأن علوَّ قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق، ولا يدريها إلا علاَّم الغيوب.

﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ ﴾.

﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴾ أي ليلة القدر أفضل وأكبر عند الله من عبادة ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، روي لرسول الله ﷺ أن رجلاً لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون منه، فأُعطوا ليلةً هي خير من مدة ذلك الغازي.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ ﴾.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ إلى الأرض في تلك الليلة ﴿ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ بِإِذۡنِ رَبِّهِم ﴾ بأمر ربهم ﴿ مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ من الخير، والبركة، قضاه الله عز وجل لتلك السنة إلى قابل.

﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥ ﴾.

﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾ ما هي إلا سلامة، أي لا يقدر الله تعالى فيها إلا السلامة والخير، أو ما هي إلاَّ سلامٌ، لكَثْرة ما تُسلِّم الملائكة فيها على المؤمنين

﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ إلى وقت طلوع الفجر، فكلها خير وبركة، ورحمة وأمان، يحفظ الله فيها العباد من الشرور والآفات، إكراماً لتنزل كتابه العظيم، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القدر»

* * *

سُورَةُ البَيِّنَةِ

مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى، وإيرادهم بذلك العنوان، للإشعار بعلة ما نسب إليهم من الوعد باتباع الحق، فإنَّ مناط ذلك، وجدانهم له في كتابهم ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عَبَدة الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾ منفصلين عن الكفر[1]، ومنتهين عنه، أو عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق، والإيمان بالنبي المبعوث في آخر الزمان، وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه حتى أنهم كانوا يستفتحون ويقولون: «اللهمَّ انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان» ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ حتى أتتهم الحجة الواضحة، وهي بعثة الرسول ﷺ فإنه مبين للحق.

---

(١) أي ما كانوا منتهين عمَّا هم عليه من الكفر، حتى تأتيهم الحجة الواضحة، وهي بعثة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلما بُعث الرسول الكريم، اضطربت الخواطر والأفكار، وتشكَّكَ كل في دينه ومذهبه، ودلَّ على هذا قوله تعالى بعده: ﴿منفكين حتى تأتيهم البينة﴾.

﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ رَسُولٌ ﴾ بدل من البيِّنة، عبَّر عنه ﷺ بالبينة للإيذان بغاية ظهور أمره، وكونه ذلك الموعود في الكتابين، وأن ذاته كانت بيِّنة على نبوته، وأن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً حد الإعجاز. وإن معجزاته في غاية الكثرة والظهور، ولذلك سماه الله سراجاً منيراً ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي رسول كائن من عند الله تعالى ﴿ يَتْلُواْ ﴾ أي يقرأ عليهم ﴿ صُحُفًا ﴾ أي أوراقاً ﴿ مُّطَهَّرَةً ﴾ منزهة عن الباطل.

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ فِيهَا ﴾ أي في الصحف ﴿ كُتُبٌ ﴾ مكتوبات، وقيل: الكتب الأحكام، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ﴾ أي حكم، وفي الحديث «لأقضين بينكما بكتاب الله» أي بحكم الله تعالى ﴿ قَيِّمَةٌ ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والصواب، مستقلة بالحجة والدلالة.

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ في أمر الرسول ﷺ، والكلام مسوقٌ لغاية التشنيع على أهل الكتاب ببيان أنَّ ما نُسب إليهم من الانفكاك، لم يكن لاشتباه ما في الأمر، بل كان بعد وضوح الحق، وتبين الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، وهو السرُّ في وصفهم بإيتاء الكتاب، المنبىء عن تمكنهم من مطالعته، والإحاطة بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبار التي من جملتها نعوت النبي ﷺ ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ أي إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، الدالة على أن رسول الله ﷺ هو الموعود في كتابهم، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، بغياً وحسداً.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ في التوراة والإنجيل ﴿ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي والحال أنهم ما أمروا بما أمروا في كتابهم، إلا لأجل أن يعبد الله ﴿ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ من غير شرك ونفاق، أي جاعلين دينهم خالصاً له تعالى، ففعل اليهود والنصارى، ليس بعبادة، وإن تضمن نهاية التعظيم، لأنه غير مأمور به ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام مؤمنين بجميع الرسل الكرام ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ ﴾ أي يؤدوا الصلاة بشروطها، ويدفعوا الزكاة إلى مستحقّيها من الفقراء والمساكين ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ أي دين الملة القيمة. بيَّن الله تعالى في هذه الآية، أنه لا بدّ من العلم، والإخلاص، والعمل، ثم قال: وذَلِكَ المجموع هو ﴿دينُ القَيِّمة﴾، أي البيّنة المستقيمة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ بيان لحال الفريقين في الآخرة، بعد بيان حالهم في الدنيا، وذكر المشركين لئلا يتوهم اختصاص الحكم لأهل الكتاب، ومعنى كونهم فيها أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، وإيراد الجملة الاسمية للإيذان بتحقق مضمونها لا محالة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ ﴾ واشتراك الفريقين في دخول دار العذاب، لا ينافي تفاوت عذابهم، فإن جهنم دركات، وعذابها ألوان ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه ﴿ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ أي هم شر الناس، وشر الخليقة على الإطلاق، فيكون في حيّز التعليل لخلودهم في النار.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بيانٌ لمحاسن أحوال المؤمنين، إثْرَ بيان حال الكفرة، جرياً على السُّنَّة القرآنية، من شفع الترهيب بالترغيب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي المنعوتون بما هم عليه من الإيمان والطاعة ﴿ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أي هم خير الخليقة التي خلقها الله، وهم السعداء الأبرار.

﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ بمقابلة ما لهم من الإيمان والطاعة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي ﴾ بغير أخدود ﴿ مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ ﴾ متنعمين بفنون النعم، الجسمانية والروحانية وفي تقديم مدحهم بخير البرية، في مقابلة ما وصفوا به، وبيان كونه من عند الله، وتأكيد الخلود بالأبدية من الدلالة على حسن حالهم ما لا يخفى ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بقبول أعمالهم التي قدمّوها ابتغاء وجه الله ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾ بما أعطاهم من الخيرات والكرامات، والثواب العظيم في دار النعيم، حيث أعطوا ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذُكر من الجزاء والرضوان ﴿ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ فإن الخشية ملاك الأمر، والباعث على كل خير، وهو من خصائص العلماء بشؤون الله تعالى، ووصفُهم بأنهم ﴿خير البرية﴾ يدلُّ على فضل المؤمنين من البشر، على الملائكة، لأن البرية: الخلقُ، فكأن الآية تقول: إنهم خير المخلوقات على الإطلاق، ويدخل في المخلوقات الملائكة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البيّنة»

* * *

سُورَةُ الزَّلزَلَةِ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾.

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي حركت الأرض تحريكاً عنيفاً متكرراً متداركاً، أي الزلزال المخصوص، على مقتضى المشيئة الإلَهية، وذلك عند النفخة الثانية، لقوله تعالى:

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②﴾.

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي كنوزها وموتاها، وإظهار الأرض لزيادة التقرير، أو الإيماء بتبدل الأرض غير الأرض.

﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ③﴾.

﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ لما بهرهم من الأمر الفظيع، أي قال كل فردٍ من أفراد الناس، المؤمن بقوله بطريق الاستعظام للخطب، والكافر بالتعجب من أمر القيامة وأهوالها.

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الرهيب ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أي تشهد بما فُعل على ظهرها، حيث ينطقها الله تعالى، فتخبر بما عمل عليها من خير أو شر، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عَبْدٍ، أو أَمَةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها»(١).

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أي تحدِّث الأرض بما جرى بسبب إيحاء ربك لها، بأن أمرها أن تنطق بكل ما حدث وجرى فوق سطحها.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يقع ما ذُكر ﴿ يَصْدُرُ النَّاسُ ﴾ من القبور إلى الموقف، ثم ينصرفون عنه يقال: صَدَر القومُ صدوراً، أي انصرفوا ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أي متفرقين ـ بحسب مراتبهم ـ بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين، كما في قوله تعالى: ﴿فتأتون أفواجاً﴾ ﴿ لِّيُرَوْا ﴾ أي لكي يروا ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي جزاء أعمالهم.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٣٥٠ وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٢ وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٠.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ أي فمن يفعل من الخير، ولو شيئاً قليلاً مثل وزن الذرة من التراب، يجد ثوابه عند الله في الآخرة.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ أي ومن يفعل من الشر ولو شيئاً قليلاً وزن الذرة، يجد جزاءه عليه[1]، والمراد بالرؤية وجود ما يعادلها من خيرٍ أو شر، فـ «مَنْ» الأولى مختصة بالسعداء، والثانية بالأشقياء، وحسنات الكافر محبطة بالكفر، وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة»

* * *

(١) وقيل: معنى الآية أن من يعمل مثقال ذرة من فريق السعداء خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة من فريق الأشقياء يره.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١﴾.

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة، التي تعدو نحو العدوِّ عدواً[(١)] ، والضَّبحُ: صوتُ أنفاسها إذا عدت وأسرعت في الجري، وهو صوت ليس بصهيلٍ، ولا حمحمة، ولكنه صوت نَفَسٍ، والمراد بالعاديات عند أكثر المحققين، أنها الخيل، لأن ألفاظ هذه الآية تنادي أن المراد بها الخيل، أقسم الله تعالى بفرس الغازي، لما فيه من منافع الدنيا والدين، وتنبيهاً على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله، وإنما قال: «ضبحاً» لأنه أمارة يظهر به التعب على الخيل، فكأنه قال إن الفرس مع ضعفه لا يترك طاعتك، فلتكن في طاعة مولاك كذلك.

---

(١) الحكمة من القَسَم بالخيل المذكورة لينوّه بشأنها، ويعلي بقدرها في نفوس المؤمنين، ليعتنوا بتدريبها على الكرِّ والفرّ، وليعتنوا بالفروسية التي هي درع الحرب، ليكون كل واحد مستعداً للجهاد، ولهذا قال المصطفى ﷺ: «الخيلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» رواه البخاري ومسلم.

﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ الإيراء: إخراجُ النار، والقدحُ: الصكّ يقال: قدح فأورى، أي فالتي توري النار من حوافرها.

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ والإغارة سرعة الهجوم على العدوّ وقت الصبح، وهو الوقت المعتاد في الغارات، يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو، ويهجمون عليهم صباحاً لأخذهم على غفلة وعلى حين غرة.

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ فيهجن بذلك الوقت غباراً، وتخصيص إثارته بالصبح، لأنه لا يظهر ثورانه بالليل، وبهذا ظهر أن الإيراء واقع في الليل، ولله در شأن التنزيل.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ ﴾ أي فتوسطن بذلك العَدْو والجري ﴿ جَمْعًا ﴾ أي توسّطن جموع الأعداء، ووسطه بمعنى توسطه.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ أي لكفور جاحد لإنعام الله، أي إنه لنعمة ربه لشديد الكفران، وأصل الكنود منعُ الحق والخير، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً، والمراد بالإنسان الكافر بدليل قوله: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴾ الإنسان على كنوده وجحوده ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ يشهد على نفسه، لظهور أثره عليه.

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ ﴾ أي المال كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أي شديد الحب للمال، حريص على جمعه، مجد في طلبه، ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح، بعد وصفه بالكنود للإيماء إلى أن من جملة الأمور، الداعية للمنافقين إلى النفاق، حب المال، لأنهم بما يظهرون من الإيمان، يعصمون أموالهم، ويحوزون من الغنائم نصيباً.

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ ﴾.

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ أي الإنسان الكافر ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ إذا أُثير وبُعث ﴿ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ أي من في القبور من الموتى، و «ما» بمعنى «مَنْ» وفيها تهديد ووعيد، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدَّر، أي أيفعل ما يفعل من القبائح، ولا يلاحظ ما سيحلُّ به إذا بُعثر ما في القبور؟.

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ من الأسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون، والتحصيل في اللغة: تمييز ما يحصل، ومعنى حصل، أي أظهره محصلاً مجموعاً.

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١ ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّهُم ﴾ أي المبعوثون كنى عنهم بضمير العقلاء، بناءً على تفاوتهم في الحالين ﴿ بِهِمْ ﴾ أي بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاضلها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي عالم بظواهر ما عملوا، وبواطنه، علماً موجباً للجزاء، متصلاً به، كما ينبىء عنه تقييده بذلك اليوم، وإلاَّ فمطلق علمه تعالى محيطٌ بما كان وما سيكون، والله أعلم بمراده، وبأسرار كتابه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات»

* * *

سُورَةُ القَارِعَةِ

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ ﴾.

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ القرعُ: هو الضرب الشديد، بحيث يحصل منه صوت شديد وقوارع الدهر شدائده، والقارعة من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تقرع القلوب والأسماع، بفنون الإفزاع والأهوال، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال.

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾.

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ مدار إفادة الهول ههنا هو كلمة ما القارعة أيْ أيَّ شيء عجيب في الفخامة والفظاعة هي؟ ووضعَ الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتهويل.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾؟ أي هل تعلم وهل تدري ما هي القارعة؟ إنها أمر عظيم، وكرب جسيم، لا يعلم حقيقتها إلاَّ علاَّم الغيوب.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ شبَّههم بالفَراش في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، والفراش هي التي تراها تتهافت في النار، وفي آية أخرى شبه بالجراد المنتشر.

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾.

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ أي الصوف المندوف في تفرق أجزائها، وتطايرها في الجو، وكلا الأمرين من آثار القارعة، بعد النفخة الثانية، وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى، لكنَّ تسييرها، وتسوية الأرض، بعد النفخة الثانية.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي فأما السعداء الأبرار، الذين رجحت حسناتهم فهم في معيشة طيبة، وسعادة كاملة مرضية، يرضاها صاحبها.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أي زادت سيئاتهم بأن لم يكن لهم حسنة يُعبأ بها، أو ترجحت سيئاته.

﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾.

﴿ فَأُمُّهُۥ ﴾ أي فمأواه، وعبَّر عن المأوى بالأم، لأن أهلها يأوون

إليها، كما يأوي الولد إلى أمه ﴿هَاوِيَةٌ﴾ هي من أسماء النار، من هوى، يهوي من باب ضرب سقط من أعلى إلى الأسفل.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ الضمير يعود إلى الهاوية، والهاء للسكت، وإذا وصل القارىء حذفها، ثم فسَّرها فقال:

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي نار بلغتْ النهاية في الحرارة، وهو تقريرٌ لها بعد إبهامها، والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة، نعوذ بالله منها، ومن جميع أنواع العذاب، ونسأل الله التوفيق وحسن المآب، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة»

* * *

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾.

﴿أَلْهَاكُمُ﴾ أي شغلكم، وأصله الصرفُ إلى اللهو، ألهاني الشيء شغلني ﴿التَّكَاثُرُ﴾ التباهي بالكثرة، في الأموال والأولاد عن طاعة الله، عن مطرف بن عبد الله عن أبيه، قال: «انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فقال: يقول ابنُ آدم: مالي، وهل لك من مالك إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقت فأمضيتَ»[1]؟ أي أنفذت العطاء وبذلته.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أدركتم الموت على تلك الحالة،

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٥١ في التفسير وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه مسلم في كتاب الزهد رقم ٢٩٥٨ بلفظ يقول العبد: «مالي، مالي، وإنما له من ماله ثلاث..» الحديث. وأخرجه النسائي في الوصايا ٦/٢٣٨.

وأصبحتم من أهل القبور، فمتُّم ودفنتم في المقابر، أو عدَّدوا أسماء الموتى، روي أن بني عبد المناف، وبني سهم من قريش، تفاخروا فقال كل من الفريقين: نحن أكثر منكم سيداً، وأعظم نفراً، فكثَّرهم بنو عبد مناف ـ أي زادوا عليهم في الكثرة ـ فقال بنو سهم: إن البغي أفنانا في الجاهلية، عدُّوا مجموع أحيائنا وأمواتنا، مع مجموع أحيائكم وأمواتكم، ففعلوا فزاد بنو سهم، فعبَّر عن بلوغهم ذكرَ الموتى، بزيارة القبور، تهكماً بهم(١)، وإنما حذف الملهيُّ عنه للتعظيم، أي ألهاكم التكاثر عن الدين، هب أنكم أكثر منهم عدداً فماذا ينفع؟.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر أن تكون الدنيا جميع همّه، والمعنى: ليس الأمر كما يتوهم هؤلاء من أن السعادة بكثرة العدد، قال الحسن: لا يغرنَّك كثرةُ من ترى حولك، فإنك تموت وحدك، وتُبعث وحدك، وتُحاسب وحدك، وتقريره ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ في القبور، قال علي رضي الله عنه: هذه الآية تدل على عذاب القبر.

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾.

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي «ثُمَّ» دلالةٌ على أن الثاني أبلغ من الأول، أو الأول في القبر، والثاني عند النشور.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ تكرار الردع للإنذار والتخويف ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ جواب لو

---

(١) القول الأول هو الأظهر وهو الصواب أي حتى جاءكم الموت وأصبحتم في عداد الموتى، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨٢.

محذوف، أي لو تعلمون ما في أيديكم ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور، لشغلكم ذلك عن التكاثر بزخارف الدنيا، ولما خُدعتم بها عن الآخرة.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أي والله ستشاهدون الجحيم عياناً ويقيناً، وترونها رأي العين بأبصاركم بعد الموت.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكرار للتأكيد، أو المراد بالأولى المعرفة، وبالثانية المشاهدة ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ والخطاب لكل من ألهته دنياه عن دينه، كمن قَصَر همته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلا ليأكل الطيب، ويلبس الليّن، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعلم والعمل، فأما من تمتع بنعمة الله، وتقوَّىٰ بها على طاعته، فهو بمعزل من ذلك، وفي الآية تهديد عظيم للعلماء، فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في التفاخر من الآفة، لتركوا، فالويل للعالم الذي لا يكون عاملاً بعلمه، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر»

* * *

سُورَةُ العَصْرِ

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ①﴾.

﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى ﴿والصلاة الوسطى﴾[1] وقيل: ورب العصر، وعن ابن عباس هو الدهر، وقيل: أراد بالعصر زمن رسول الله ﷺ لفضله على سائر الأعصار، وجواب القسم، قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ②﴾.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي جنس الإنسان، ويدل عليه الاستثناء، ﴿إلا الذين آمنوا﴾ والمعنى: أقسم لكم على شقاء البشر وخسرانهم، وهذا حكم ظاهر، ولنجعلْ الدنيا في هذا دليلاً، فالأرض يسكنها نحو ألف ألف مليون من البشر، أربعون في المائة منهم وثنيون، يشركون بالله، ويعبدون

(١) وفي الحديث الصحيح «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وُتر أهلُه، وماله» أي أصابته داهية عظيمة كحريق أو غرق، ففقد الأهل والمال.

الأصنام، ويقدمون أعز ما لديهم من نفسٍ ومال في سبيلها، وثلاثون في المائة مسيحيون، يخلطون في دينهم، ويؤلّهون البشر، وواحد منهم في المائة يهود، وهم يظنون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقد ران على قلوبهم الغلظةُ والقسوة، واستولى عليهم الحرص والشهوة، وأكثر من عشرين في المائة منهم المسلمون، الجمهرةُ منهم يخالفون الله ورسوله، ويسيرون في طريق التقليد، ويبتعدون عن تعاليم دينهم الخالد، فالإنسان حقت عليه كلمة الله، وصار في خسر وفساد، وبعدٍ عن الإيمان، وضياء الإسلام، فإن قيل: إنه تعالى قال في سورة التين ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويم﴾ فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال إلى النقصان، وههنا يدلُّ على أن الابتداء من النقصان إلى الكمال ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾؟ والجواب المذكور في التين أحوال البدن، وههنا أحوال النفس، وعن بعض السلف قال: تعلمتُ معنى السورة من بائع ثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأسُ ماله، فقلت هذا معنى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فإن الإنسان لا ينفك عن خسران، والخسرانُ تضييعُ عمره.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا، وهم في تجارة لن تبور، وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم[1] ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ ﴾ بيان لتكميلهم لغيرهم، أي وصَّى بعضهم بعضاً

(١) في هذه الآيات وعيدٌ شديد للبشر، لأنها حَكمت بالخسران على جميع الناس، إلاَّ من كان آتياً بهذه الأمور الأربعة: وهي: ١ ـ الإيمان ٢ ـ العمل الصالح، ٣ ـ التواصي بالحق، ٤ ـ التواصي بالصبر، وأنه كما يلزم المكلَّف تحصيل ما يخص نفسه من فعل الخير، فكذلك يلزمه الدعاء إلى الدين، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب لغيره ما يحبه لنفسه.

بالاستمساك بالحق، وهو الدين أجمعُه، والخير كلُّه، من توحيد الله وطاعته، والالتزام بشريعته ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أي تحاثوا وأوصى بعضهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعة، التي يشق على النفس أداؤها، وعلى ما يبلو الله تعالى به عباده، وتخصيصُ هذا بالذكر، مع اندراجه تحت التواصي بالحق، لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة، التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثاني عن رتبة العبودية التي هي الرضاء بما فعله الله تعالى، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه، من فعل أو ترك، بل هو الرضا بما ورد منه تعالى ظاهراً وباطناً، وإنما ذكر سبب الربح دون الخسران، اكتفاءً ببيان أن ما عداه يؤدي إلى الخسران والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر»

* * *

سُورَةُ الهُمَزَةِ

مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾.

﴿وَيْلٌ﴾ أي شدة عذاب ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ الذي يعيب الناس من خلفهم ﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي من يعيبهم مواجهة، وبناء فُعَلَة للدلالة على أن ذلك عادة مستمرة، وكذلك اللُّعَنة، والضُّحكة، قيل: نزلت في «الأخنس» فإنه كان ضارياً بالغيبة، وقيل في الوليد، واختصاص السبب، لا يستدعي خصوص الوعيد بهم، بل كل من اتصف بوصفهم القبيح، فله ذنوب مثل ذنوبهم، والمغتاب، والعيَّاب، والمستهزىء، والمقلد بأقوالهم وأصواتهم ليضحكوا، هذه الوجوه متقاربة، راجعة إلى أصل واحد، وهو الطعن، وإظهار العيب قد يكون باللفظ، وقد يكون بالإشارة، وكلها داخلٌ تحت النهي.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ بدل من كل، وإنما وصفه الله بها لأنه يجري

مجرى السبب، لأن ظنه أن الفضل في المال، ولأجل ذلك يستنقص غيره. ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي جعله عدة لحوادث الدهر، أو عدَّه مرة أخرى.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي تركه خالداً في الدنيا لا يموت، قال الحسن: ما رأيت يقينا لا شك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه، من الموت.

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن حسبانه ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي والله ليطرحن بسبب تعاطيه للأفعال المذكورة ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ أي في النار المؤججة، التي تحطم وتكسر كل ما يلقى فيها، كما أن شأنه كسر أعراض الناس.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾؟ تعجيب وتعظيم لشأنها.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾.

﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ أي هي نار الله ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ بأمر الله عز سلطانه، وفي إضافتها إليه سبحانه، ووصفها بالإيقاد، من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي تعلو أوساط القلوب، وتشتمل عليها، وتخصيصها بالذكر، لأن الفؤاد ألطف ما في البدن، وأشد تألماً، ولأنه محل العقائد الزائغة.

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ ﴾.

﴿إِنَّهَا﴾ أي النار ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي مطبقة، من أوصدت الباب إذا أطبقته.

﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩ ﴾.

﴿فِي عَمَدٍ﴾ جمع عماد ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي توصد عليهم الأبواب، وتمدد على الأبواب العُمُد، استيثاقاً في استيثاق، إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية اللهم أجرنا منها يا خير مستجار، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة»

* * *

سُورَةُ الفِيلِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، والهمزة لتقرير رؤيته والرؤية علمية أي أسمعتَ الأخبار به متواتراً فقامت لك مقام المشاهدة ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ تعليق الرؤية بكيفية فعله عزَّ وجلَّ، لا بنفسه بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك الخ، لتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة عجيبة، دالة على عظم قدرة الله تعالى، وعزة بيته، وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات، لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها ﷺ، وتفصيلها أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى بصنعاء كنيسة، وأراد أن يصرف إليها الحجّاجَ، فخرج رجل من كنانة، فدخل فيها ليلاً، وتغوَّط ولطخ بالعذرة قبلتها، فبلغ ذلك أبرهة، فقال: من اجترأ عليَّ، فقيل: صَنَع ذلك رجلٌ من العرب، فحلف أبرهة ليسيرنَّ إلى الكعبة حتى يهدمها، فخرج مع جيشه ومعه فيل، كان قوياً عظيماً، واثنا عشر فيلاً غيره، فلما بلغ المغمَّس أمر بالغارة على إبل الناس، فجمع أنعام أصحاب الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير، فخرج إليه عبد المطلب، فعظم

في عين أبرهة، لأنه كان جسيماً وسيماً، فأكرمه ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له عبد المطلب: حاجتي أن تردَّ عليَّ مائتي بعير، فلما ذكر حاجته قال: سقطتَ من عيني!! جئتُ لأهدم البيت الذي هو دينك، ودين آبائك، وشرفكم، فألهاك عنه ذَودٌ أُخذ لك؟ فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وللبيت ربٌّ سيحميه، فأمر بإبله فردت عليه، فأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، وأصبح أبرهة بالمغمس، وقد تهيأ بالدخول، فأرسل الله عزَّ وجلَّ طيراً من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره، أمثال الحمص والعدس، فلما غشين القوم أرسلنها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلاّ هلك، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾؟ بيان لما فعله الله تعالى بهم، والهمزة للتقرير، ﴿ كَيْدَهُمْ ﴾ في تخريب الكعبة ﴿ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ أي في تضييع وإبطال، بأن دمَّرهم وأفناهم[1].

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ جماعات، جمع إبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت بها الجماعات من الطير في تضامها.

---

(١) كان إهلاك أبرهة الأشرم وجيشه عام مولد النبي ﷺ السعيد، إرهاصاً بنبوته، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المذكور، من خوارق العادات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد أهلك الله أبرهة وجيشه بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليس من عادتها أن تقتل، كما أهلك عاداً بالريح العقيم، وفي ذلك عبرة للمعتبرين!!.

﴿ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ ﴾.

﴿ تَرۡمِيهِم ﴾ أي ترمي عليهم ﴿ بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴾.

﴿ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥ ﴾.

﴿ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴾ كزرع أكله الدود، أو كورقٍ أكلته الدواب ثم راثته. ولا يمكن أن يقال: إنه من الأخبار الضعيفة، لأنه لم يكن بين عام الفيل، ومبعث الرسول ﷺ إلا نيّفٌ وأربعون سنة، ويوم تلا رسول الله ﷺ هذه السورة، كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب، ولمَّا لم يكن كذلك، علمنا أنه لا سبيل للطعن فيه والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل»

* * *

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾.

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ متعلق بقوله ﴿فليعبدوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لإيلافهم، وقيل: بمضمر تقديره: فعلنا ما فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل، لإيلاف قريش، أي من أجل ائتلافهم واجتماعهم على شكر الله

﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾.

﴿ إِۦلَٰفِهِمْ ﴾ بدل من الأول، تفخيماً لأمر الإيلاف، وتعظيم المنة فيه، والاسم الألفة، تألف القوم: اجتمعوا وتحابوا، والمعنى: إن هذه الألفة إنما حصلت بتدبير الله تعالى، فمن أجل تيسير الله وتسهيله على قريش رحلتهم في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ﴿ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ وكانت لقريش رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله، فلا يتعرض لهم أحد بسوء، فلما

أهلك الله أصحاب الفيل، ازداد موقع أهل مكة في القلوب هيبةً واحتراماً، ولذلك لم يتعرض لهم أحد بسوء، فذكَّرهم تعالى بهذه النعمة الجليلة.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ يعني الكعبة المشرفة، وفي الكلام معنى الشرط، إذ المعنى: إنَّ نعم الله تعالى عليهم غير محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة.

والإنعام على قسمين: ١ ـ دفع الضر ٢ ـ جلب النفع، والأول أهم، بيّن الله الأول في سورة الفيل، والثاني في هذه السورة.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم ﴾ أي أغدق عليهم النعم، بعد شظف العيش، وشدة الفقر ﴿مِّن جُوعٍ﴾ شديد قبلهما ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ عظيم، وهو خوف التخطف في بلدهم وأسفارهم، فقد ذكّرهم تعالى بنعمتين عظيمتين هما: نعمة الغنى واليسار، ونعمة الأمن والاستقرار، فإن لم يكن لهم سوى هاتين النعمتين لكفاهم ذلك اعترافاً بفضل الله عليهم، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش»

* * *

سُورَةُ الماعُون

مختلف فيها وهي سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١﴾.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ استفهامٌ أريد به تشويق السامع، إلى معرفة من سيق الكلام له، والتعجيب منه ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي بيوم الجزاء والحساب، والخطابُ لرسول الله ﷺ، وقيل: لكل عاقل، والرؤية بمعنى المعرفة، أي هل عرفتَ الذي يكذب بالحساب والجزاء؟ هل عرفت من هو، وما هي أوصافه؟.

﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢﴾.

﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ جواب شرط محذوف، والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالدين؟ إن لم تعرفه، فهو الذي يدفع اليتيم، دفعاً عنيفاً، قيل: هو أبو جهل، كان وصيّاً ليتيم، فجاءه يسأله من مال نفسه، فدفعه، وقيل: في رجل من المشركين، نحر جزوراً، فسأله يتيم لحماً فقَرَعه بعصاه، وإذا كان الإنسان منكراً للقيامة، لم يترك شيئاً من المشتهيات، فإنكار القيامة كالأصل لجميع الكفر والمعاصي.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ ﴾.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أي لا يحثُّ غيره على إطعام المسكين، الذي عضَّه ألم الجوع، لعدم اعتقاده بالجزاء، وإذا كان هذا حال من ترك حثَّ غيره، فما ظنُّك بحال من ترك ذلك، مع القدرة عليه؟.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ﴾.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أي غافلون عنها غير مبالين بها يؤخرونها عن أوقاتها، وتلك هي صلاة المنافقين؟.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ أي هم المرائون بأعمالهم، يرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليها، وقال ابن عباس رضي الله عنه: هم المنافقون، يتركون الصلاة إذا غابوا، ويصلون في العلانية، والمؤمن قد يسهو في صلاته، فيتداركها في الحال والمنافق لا يبالي.

﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾.

﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أي الزكاة أو ما يتعاور عادة من القِدْر، والدلو، والمقدحة، ونحوها، وهو قول أكثر المفسرين عن ابن مسعود، قال: «كنا نعدُّ الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو، والقِدْر»[1] والله أعلم بمراده.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الماعون»

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم ١٦٥٧ في الزكاة، وإسناده حسن.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ أي الخير المفرط، والكثرة الكثيرة، من العلم والعمل، وشرف النبوة، الجامعة لخير الدارين، والكوثر نهر من أنهار الجنان، وخير كثير جمعه كواثر، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما لكوثر؟ قلنا: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإنه نهرٌ وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ»(١).

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أي فاعبد ربك الذي أعزَّك بإعطائه، خالصاً لوجهه، أداء لحقوق شكرها، فإنَّ الصلاة جامعة على جميع أقسام الشكر، وقيل المراد بها صلاة العيد «يوم النحر» ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ لوجهه وباسمه مخالفاً لعبدة

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٥٦٣ ومسلم في الصلاة رقم ٣٣٥٧.

الأوثان، انحرْ البُدْن التي هي خيار أموال العرب، وتصدق بها على المحاويج.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي إن مبغضك يا محمد من قومك بمخالفتك لهم من أولئك الفجرة ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي المنقطع عن كل خير، لا أنت، لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين أولادك، فتبقى ذريتك وحسن صيتك، وآثار فضلك إلى يوم القيامة، نزلت في «العاص بن وائل» وذلك أنه رأى النبي ﷺ خارجاً من المسجد، وهو داخل، فالتقيا وتحدثا، وأناس من صناديد قريش، جلوس في المسجد، فلما دخل العاص قالوا: من هذا الذي كنت تحدثت معه؟ فقال: ذلك الأبتر، يعني به النبي ﷺ، وكان قد توفي إبراهيم لرسول الله من خديجة رضي الله عنها، فقال الأشقياء: إن محمداً هو الأبتر، لأنه لا عقب له، فنزلت هذه السورة توضح أن مبغضيه ﷺ هم المبتورون من كل خير، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر»

* * *

سُورَةُ الكَافِرُونَ

ترتيبها ١٠٩

مكية وهي ست آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١﴾.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ روي أن رهطاً من قريش قالوا يا محمد: هلمَّ فاتَّبعْ ديننا سنة، ونتبع دينك سنة، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه ملأ من قريش فقرأها عليهم فأيسوا من مسايرته، وانقطع طمع الكافرين الفاجرين.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي ما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم. أي لم يعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام؟ فأنا بريء من آلهتكم ومعبوداتكم.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي وما عبدتم في وقتٍ من الأوقات إلهي

الذي أنا على عبادته، فأنتم لا تزالون على ضلال، فلا مساومة بيننا ولا وفاق.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ في الحال، والمراد لا أعبد ما تعبدونه أبداً حييتُ، لا أعبد آلهتكم الآن، ولا في ما يُستقبل من الزمان.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم في المستقبل عابدون إلهي الحقَّ، فلا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة[(١)].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ ولي توحيدي وإخلاصي، فليس فيه إذن في الكفر، بل المقصود التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ كأنه يقول: لكم شرككم وأصنامكم، ولي توحيدي وإيماني، فدينكم الكفر والإشراك، وديني التوحيد والإخلاص، والله تعالى أعلم بمراده.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون»

* * *

(١) السورة وردت بصيغة التأكيد عن طريق التكرار، لأن الكفار راجعوا النبي ﷺ مراراً، فحسن التوكيد والتكرار في هذا الموطن، والقرآن نزل بلسان العرب، على أساليب كلامهم وخطابهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز.

سُورَةُ النَّصرِ

مدنية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ①﴾.

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ المراد بالنصر: الظفرُ وإعانة الله، والإظهار على العدو ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ يعني فتح مكة، وقيل جنس نصر الله، ومطلق الفتح وإنما عبَّر بالمجيء تجوزاً، للإشعار بقرب النصر، فكن مترقباً لوروده، مستعداً لشكره، روي أنها نزلت قبل الفتح، وعليه الأكثر، وكان فتح مكة لعشرٍ مضين من شهر رمضان، سنة ثمان من الهجرة، ومع النبي ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، وحين دخلها وقف على باب الكعبة، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صَدَق وعدَه، ونصر جنده، وهزم الأحزابَ وحده، ثم قال: يا أهل مكة: ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء» فأعتقهم، وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم، فعفا عنهم، ثم بايعوه على الإسلام.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ②﴾.

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي أبصرتهم أو علمتهم ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي في ملة الإسلام التي لا دين يضاف إليه تعالى غيرها ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي جماعات جماعات كثيفة، كأهل مكة، والطائف، واليمن، وسائر قبائل العرب، روي أنه ﷺ لما فتح مكة، أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: إذا ظفر بأهل الحرم، فلن يقاومه أحد، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل سبحان الله حامداً له، أي فتعجَّبْ لتيسير الله تعالى، ما لم يخطر ببال أحد، وأحمده على جميل صنعه ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تواضعاً له ودم على الاستغفار، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما صلَّى رسول الله ﷺ بعد ما نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ﴾ إلاَّ ويقول: سبحان الله وبحمده، أستغفر اللهَ، وأتوب إليه» وقال الحسن: إنه تعالى أعلم رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمره بالتسبيح والاستغفار، ليختم بالزيادة في العمل الصالح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ لمن استغفر، والتواب كثير القبول للتوبة، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر»

* * *

سُورَةُ المَسَدِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

﴿تَبَّتْ﴾ أي هلكت أو خسرت، والتبابُ: الخسرانُ كما قال تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلاَّ في تباب﴾ وتباً له، أي هلاكاً ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ هو «عبد العُزَّى بن عبد المطلب» وإنما كناه والتكنيةُ تكرمة لاشتهاره بكنيته، أو استكره ذكر اسمه، وإيثار التباب على الهلاك لما روي في الصحيحين عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، ونادى يا بني فهر، يا بني عديّ، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم ما جرَّبنا عليك إلاَّ صدقاً، قال ﷺ: فإني لكم نذيرٌ بيْنَ يدي عذاب شديد!! فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت تبت يدا أبي لهب[1] السورة ﴿وَتَبَّ﴾ أي وهلك كلُّه، ومعنى ﴿وَتَبَّ﴾ وكان ذلك وحصل له الهلاك والدمار، وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ٢٢٢.

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾.

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي لا يغني عنه حين حلَّ به الهلاكُ مالُه وما كسبه، من الأرباح والمنافع، وعن ابن عباس ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ ولدُه، وروي أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابنُ أخي حقاً، فأنا أفتدي منه نفسي، بمالي، وولدي!! وقد خاب أمله، وما حصل ما تمناه، فافترس ولدَه أسدٌ في طريق الشام، وقد كان ﷺ دعا عليه وقال: «اللهمَّ سلِّطْ عليه كلباً من كلابك» فافترسه الأسد، وكان أبو لهب قد هلك نفسه بالعدسة، فاجتنبه أهله مخافة العدوىٰ، فبقي ثلاثاً حتى أنتن، ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن، فهو إخبارٌ بالغيب، طابقه وقوعه.

﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ ﴾.

﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ سيدخل نار جهنم لا محالة، بعد هذا العذاب العاجل، فالنار ذات اللهب، للشقي أبي لهب.

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ ﴾.

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ هي أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، عمة معاوية، كانت تحمل حزمةً من الشوك، والحسك، والسعدان فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ، وقيل: كانت تمشي بالنمائم، فتفسد بين الناس، أي توقد بينهم النار ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ وعن قتادة أنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها.

﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥ ﴾.

﴿ فِي جِيدِهَا﴾ أي في عنقها ﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ أي حبلٌ من ليفٍ

وشوك، تُعذّب به يوم القيامة، لوضعها الشوك في طريق الرسول ﷺ فإن قيل: إن رسول الله ﷺ كان نبيَّ الرحمة، وصاحب الخُلُق العظيم، فكيف يليق أن يشافه عمه بهذا؟ فالجواب: كان ﷺ لا يسامح أحداً في شيءٍ من باب الدين، ولو كان يداهن أحداً في باب الدين، لفَعَلَه مع عمه، فلما لم تحصل معه، انقطعت الأطماع، وعلم كل أحد أنه ﷺ لا يسامح أحداً في شيء يتعلق بالدين أصلاً، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد»

* * *

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو ضمير الشأن، ومدار وضعه مع عدم ذكره، الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد، كأنه قيل: الشأن هذا، وهو أن الله واحد، لا ثاني له، ولا يحتاج إلى شريك، والذي سألتموني عنه هو الله أحد، إذ روي أن قريشاً قالوا يا محمد: صفْ لنا ربك، أمن ذهبٍ هو؟ أم من فضة، أم من ياقوت؟ فنزلت، ولفظ «الأحدُ» يدلُّ على مجامع صفات الجلال، كما دلَّ لفظ «الله» على جميع صفات الكمال وقال ثعلب: إن «أحد» لا ينبىء عليه العدد ابتداءً كما يقال واحد، واثنان ولا يقال: رجل أحد، كما يقال رجل واحد، ولذا اختص به تعالى، فالأحديَّة تتضمن نفي الوالد والولد، ونفي النظير والشبيه، ونفي الكثرة والعدد، فهي صفة الذات الإلهية.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ②﴾.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هو فَعَل بمعنى المفعول من صمد إليه إذا قصده

وهو السيد المصمود إليه في الحوائج، والمعنى: وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق وقيل الصمد الدائم الباقي، الذي لم يزل ولا يزال، وقيل: الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وتكرار الاسم الجليل، للإشعار بأنه من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، بيَّن أولاً ألوهيته عز وجل، المستتبعة لكافة نعوت الكمال، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد، ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتي عما سواه، وافتقار جميع المخلوقات إليه، وروى البخاري في إفراده عن أبي وائل قال: الصمد هو السيد الذي انتهى سؤدده، وهي رواية عن ابن عباس أيضاً.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة، وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾؟ ولعل الاقتصار على لفظ المضارع لوروده رداً على من قال الملائكة بنات الله، والمسيح ابن الله، أو يطابق قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كل مولود محدث وجسم، وهو تعالى قديم ليس بجسم، لا أول لوجوده.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ولم يكافئه أحد، أي لا يماثله أحد، وقوله تعالى ﴿أحد﴾ يبطل مذهب النصارى في التثليث، والصابئين في النجوم، ويبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله تعالى، وقد ورد في فضل هذه السورة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»[1] وعن سهل بن سعد قال: جاء رجل

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٩/ ٥٣ ولفظه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً =

إلى النبي ﷺ، وشكا إليه الفقر، فقال: إذا دخلت بيتك فسلم، إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد، فسلِّمْ على نفسك، واقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ مرة واحدة، ففعل الرجل، فأدرَّ الله عليه رزقاً» والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك، العاملين لك، الراجين لثوابك، الخائفين من عقابك، المكرمين بلقائك آمين يا معين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص»

* * *

= سمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ يردّدها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ـ وكان الرجل يتقالُّها ـ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن».

سُورَةُ الفَلَقِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ الصبحُ، وهو قول الأكثر، والفَلَقُ: بفتحتين ضوء الصبح، وقيل: كل ما يفلقه الله تعالى، كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن الأمطار، والحب والنوى عما يخرج منهما وغير ذلك، وفي العياذ باسم الرب، المضاف إلى الفلق، المنبىء عن النور، عقيب الظلمة، والسعة بعد الضيق، عدةٌ كريمة بإعاذة العائذ، مما يعوذ منه، وتقوية لرجائه، بتذكير بعض نظائره، ومزيد ترغيب في الجد والاعتناء، بقرع باب الالتجاء إليه تعالى.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم، خص عالم الخلق بالاستعاذة منه، لانحصار الشر فيه، فإن عالم الملكوت خير كله وعالم الخلق وشرُّه اختياري، كالكفر، والظلم، والطغيان.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ الغاسقُ: الليل ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ أي اعتكر ظلامه، وأصله الامتلاء، يقال غسقت العينُ: إذا امتلأت دمعاً، والغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه، عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ نظر إلى القمر فقال: «يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب» وقيل: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ دخل في المحاق وهو آخر الشهر، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي دخل ظلامه في كل شيء، وتقييده به، لأن حدوثه فيه أكثر، والتحرز منه أصعب وأعسر، ولذلك قيل: «الليل أخفى للويل»، وإنما أمر بالاستعاذة من شر الليل، لأن في الليل تخرج السباع والهوام، والسارق والمكابر، ويقع الحريق، وتنتشر الأرواح المضرة، الجنُّ والشياطين.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ النفاثات النساء السواحر، اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها، ويرقين، وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر، والنفث: النفخُ مع ريق، ومنهم من قال النفخ فقط، ومنه قوله ﷺ: «إن جبريل نفث في روعي» والعُقَد جمع عقدة، وإنما جمع لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد، كان التأثير أكثر وأشد، وتعريفها للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه، لأنه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق»

* * *

سُورَةُ النَّاسِ

مكية وهي ست آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي مربيهم ومصلحهم، ودافع ما يضرهم.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أي مالك جميع الخلق، ملوكاً وأتباعاً، وهو عطف بيان، جيء به لبيان أن تربيته تعالى إياهم، ليست بطريق تربية سائر الملوك لما تحت أيديهم، بل بطريق الملك الكامل، والتصرف الكلي.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أي هو تعالى ربهم ومعبودهم، الذي لا ربَّ لهم سواه وتخصيص الإضافة بالناس، مع انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيته، وملكوتيته، وألوهيته، للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة المرضية عنده تعالى.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، والمراد به «الشيطان» سُمي بفعله مبالغةً، كأنه نفس الوسوسة ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتأخر، إذا ذكر الإنسانُ ربه، لما رُوي عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه، خنس الشيطان وولّى، وإذا غفل رجع ووسوس إليه.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ أي قلبهم، يغريهم بالكفر والمعاصي والفجور، ليوقعهم في نار الجحيم، وفي الحديث الشريف «إن الشيطان واضع خطمه - أي خرطومه - على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله تعالى خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس»(١).

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، أي هذا الوسواس الخناس هو من شياطين الإنس والجن، ليفتنوا بني آدم ويضلوهم، كما قال الله تعالى: ﴿شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض﴾ والجنّة بكسر الجيم بمعنى الجن، نعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن، وعصمنا الله من الغفلة عن ذكره إنه سميع مجيب الدعاء.

«ما ورد في فضل المعوذتين»

١ - روى مسلم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تَرَ آيات

---

(١) أخرجه الحافظ الموصلي، وأخرجه البخاري تعليقاً عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٦١٥.

أُنزلت هذه الليلة، لم يُر مثلهنَّ قَطُّ؟ ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾[1].

٢ ـ وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه، ثم ينفث فيهما فيقرأ قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات»[2].

٣ ـ وعن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى، يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتدَّ وجعُه، كنتُ أقرأ عليه، وأمسحُ عنه بيديه، رجاء بركتيهما»[3].

٤ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل، وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفق منه آناء الليل، وأطراف النهار»[4].

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا، ومن شر ما علمنا وما لم نعمل، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، ونبيه وصفيه، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وصلى الله على محمد، وعلى آله مصابيح الأنام، وأصحابه مفاتيح دار السلام، والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا وليَّ العصمة والإرشاد، وهادي الغواة إلى سنن الرشاد، بارىء البرية، مالك الرقاب، عليك توكلي، وإليك متاب، أنت المغيث لكل حائر ملهوف، والمجير من كل هائل مخوف، أحتمي بحرَمِك

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٨١٤ في المسافرين، والترمذي رقم ٢٩٠٥ في ثواب القرآن.

(٢) أخرجه البخاري ٩/٥٦ في فضائل القرآن، ومسلم رقم ٢١٩٢ في السلام.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفضائل ٩/٦٠ ومالك في الموطأ ٢/٩٤٣.

(٤) أخرجه الشيخان البخاري ٩/٦٥ في فضائل القرآن، ومسلم رقم ٨١٥ في المسافرين.

المأمون، من غوائب ريب المنون، وألتجىء إلى حرزك الحريز، وآوي إلى ركنك العزيز، وأسألك من خزائن برك المخزون، في مكامن سرك المكنون، خير ما جرى به قلم التكوين، من أمور الدنيا والدين، وأعوذ بك من فنون الفتن والشرور، لا سيما الاطمئنان بدار الغرور، والاغترار بنعيمها وزهرتها، والافتتان بزخارفها وزينتها، فأعذني بحمايتك، وأعني بعنايتك، وأفض عليّ من شوارق الأنوار الربانية، وبوارق الآثار السبحانية، ما يخلّصني من العوائق الظلمانية، ويجردني من العلائق الجسمانية، وهذب نفسي من دنس الطبائع والأخلاق الردية، ونور قلبي القاسي بلوامع الإشراق، ليستعد للعبور على سرائر الإنس ويتهيأ للحضور في حظائر القدس، وثبتني على مناهج الحق والهدى، وأرشدني إلى مسالك البر والتقى، واجعل أعز مرامي ابتغاء رضاك، وأشرف أيامي يوم لقاك، يوم يقوم الناس لرب العالمين، واحشرني مع الذين أنعمت عليهم من النبيين، والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله على التمام، والصلاة والسلام على أفضل الرسل الكرام بعون الله العزيز الجليل، وعليه الاعتماد والتعويل، إنه قريب قدير مجيب، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وقد انتهى تحرير هذا المقتطف بفضله عزَّ وجلَّ في بلدة «صوفيا» من بلاد بلغاريا في اليوم الثاني من شهر ذي الحجة الشريفة لسنة ثلاث وثمانين وثلاث مائة وألف من هجرة من له العز والشرف، وأنا الفقير المحتاج إلى عفو به. ولطفه الكثير، المصطفى الحصن المنصوري، والحمد لله في البدء والختام، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

«تم تفسير القرآن الكريم بعونه تعالى»

* * *

الفهرس العام

فهرس المجلد الأول

مقدمة التفسير ٥
ترجمة المؤلِّف ٧
تفسير البسملة ٩
١ ـ سورة فاتحة الكتاب ١٣
٢ ـ سورة البقرة ٢٥
٣ ـ سورة آل عمران ٢٩٩
٤ ـ سورة النساء ٤١١

فهرس المجلد الثاني

٥ ـ سورة المائدة ٥
٦ ـ سورة الأنعام ٩٣
٧ ـ سورة الأعراف ١٩٧
٨ ـ سورة الأنفال ٣١٧
٩ ـ سورة التوبة ٣٦١
١٠ ـ سورة يونس ٤٤٧
١١ ـ سورة هود ٥٠٥
١٢ ـ سورة يوسف ٥٧١

فهرس المجلد الثالث

١٣ ـ سورة الرعد ٥
١٤ ـ سورة إبراهيم ٣٩
١٥ ـ سورة الحجر ٧١
١٦ ـ سورة النحل ١٠٣
١٧ ـ سورة الإسراء ١٧٣
١٨ ـ سورة الكهف ٢٣٧
١٩ ـ سورة مريم ٢٨٩
٢٠ ـ سورة طه ٣٢٥
٢١ ـ سورة الأنبياء ٣٧٣
٢٢ ـ سورة الحج ٤١٧
٢٣ ـ سورة المؤمنون ٤٥٥
٢٤ ـ سورة النور ٤٩٣

فهرس المجلد الرابع

٢٥ ـ سورة الفرقان ٥
٢٦ ـ سورة الشعراء ٤٣
٢٧ ـ سورة النمل ٩٣
٢٨ ـ سورة القصص ١٣١
٢٩ ـ سورة العنكبوت ١٦٧
٣٠ ـ سورة الروم ١٩٥
٣١ ـ سورة لقمان ٢١٧
٣٢ ـ سورة السجدة ٢٣٣
٣٣ ـ سورة الأحزاب ٢٤٧
٣٤ ـ سورة سبأ ٢٨٧
٣٥ ـ سورة فاطر ٣١٣

٣٦ ـ سورة يسٓ ٣٣٥
٣٧ ـ سورة الصافات ٣٦٧
٣٨ ـ سورة صٓ ٤٠٥
٣٩ ـ سورة الزمر ٤٣٧
٤٠ ـ سورة غافر ٤٦٩
٤١ ـ سورة فصلت ٥٠٣
٤٢ ـ سورة الشورىٰ ٥٢٧
٤٣ ـ سورة الزخرف ٥٥١
٤٤ ـ سورة الدخان ٥٧٩
٤٥ ـ سورة الجاثية ٥٩٥

فهرس المجلّد الخامس

٤٦ ـ سورة الأحقاف ٥
٤٧ ـ سورة محمد (ﷺ) ٢٣
٤٨ ـ سورة الفتح ٣٩
٤٩ ـ سورة الحجرات ٥٥
٥٠ ـ سورة قٓ ٦٩
٥١ ـ سورة الذاريات ٨٣
٥٢ ـ سورة الطور ٩٩
٥٣ ـ سورة النجم ١١٣
٥٤ ـ سورة القمر ١٣١
٥٥ ـ سورة الرحمٰن ١٤٧
٥٦ ـ سورة الواقعة ١٦٥
٥٧ ـ سورة الحديد ١٨٧
٥٨ ـ سورة المجادلة ٢٠٣
٥٩ ـ سورة الحشر ٢١٥

٦٠ ـ سورة الممتحنة ٢٢٩
٦١ ـ سورة الصف ٢٣٩
٦٢ ـ سورة الجمعة ٢٤٥
٦٣ ـ سورة المنافقون ٢٥١
٦٤ ـ سورة التغابن ٢٥٧
٦٥ ـ سورة الطلاق ٢٦٥
٦٦ ـ سورة التحريم ٢٧٣
٦٧ ـ سورة الملك ٢٨١
٦٨ ـ سورة القلم ٢٩٣
٦٩ ـ سورة الحاقة ٣٠٧
٧٠ ـ سورة المعارج ٣١٩
٧١ ـ سورة نوح ٣٢٩
٧٢ ـ سورة الجن ٣٣٩
٧٣ ـ سورة المزمِّل ٣٤٩
٧٤ ـ سورة المدَّثر ٣٥٧
٧٥ ـ سورة القيامة ٣٧١
٧٦ ـ سورة الإنسان ٣٨١
٧٧ ـ سورة المرسلات ٣٩١
٧٨ ـ سورة النبأ ٤٠١
٧٩ ـ سورة النازعات ٤١٥
٨٠ ـ سورة عبس ٤٢٧
٨١ ـ سورة التكوير ٤٣٧
٨٢ ـ سورة الانفطار ٤٤٥
٨٣ ـ سورة المطففين ٤٥١
٨٤ ـ سورة الانشقاق ٤٥٩
٨٥ ـ سورة البروج ٤٦٧

٨٦ ـ سورة الطارق ٤٧٥
٨٧ ـ سورة الأعلىٰ ٤٧٩
٨٨ ـ سورة الغاشية ٤٨٥
٨٩ ـ سورة الفجر ٤٩١
٩٠ ـ سورة البلد ٤٩٩
٩١ ـ سورة الشمس ٥٠٥
٩٢ ـ سورة الليل ٥١١
٩٣ ـ سورة الضحىٰ ٥١٧
٩٤ ـ سورة الانشراح ٥٢١
٩٥ ـ سورة التين ٥٢٥
٩٦ ـ سورة العلق ٥٢٩
٩٧ ـ سورة القدر ٥٣٥
٩٨ ـ سورة البيّنة ٥٣٩
٩٩ ـ سورة الزلزلة ٥٤٣
١٠٠ ـ سورة العاديات ٥٤٧
١٠١ ـ سورة القارعة ٥٥١
١٠٢ ـ سورة التكاثر ٥٥٥
١٠٣ ـ سورة العصر ٥٥٩
١٠٤ ـ سورة الهمزة ٥٦٣
١٠٥ ـ سورة الفيل ٥٦٧
١٠٦ ـ سورة قريش ٥٧١
١٠٧ ـ سورة الماعون ٥٧٣
١٠٨ ـ سورة الكوثر ٥٧٥
١٠٩ ـ سورة الكافرون ٥٧٧
١١٠ ـ سورة النصر ٥٧٩
١١١ ـ سورة المسد ٥٨١

١١٢ ـ سورة الإخلاص ٥٨٥
١١٣ ـ سورة الفلق ٥٨٩
١١٤ ـ سورة الناس ٥٩١
ـ ما ورد في فضل المعوذتين ٥٩٢
الفهرس العام ٥٩٥

بعون الله تعالى تم انتهاء الكتاب